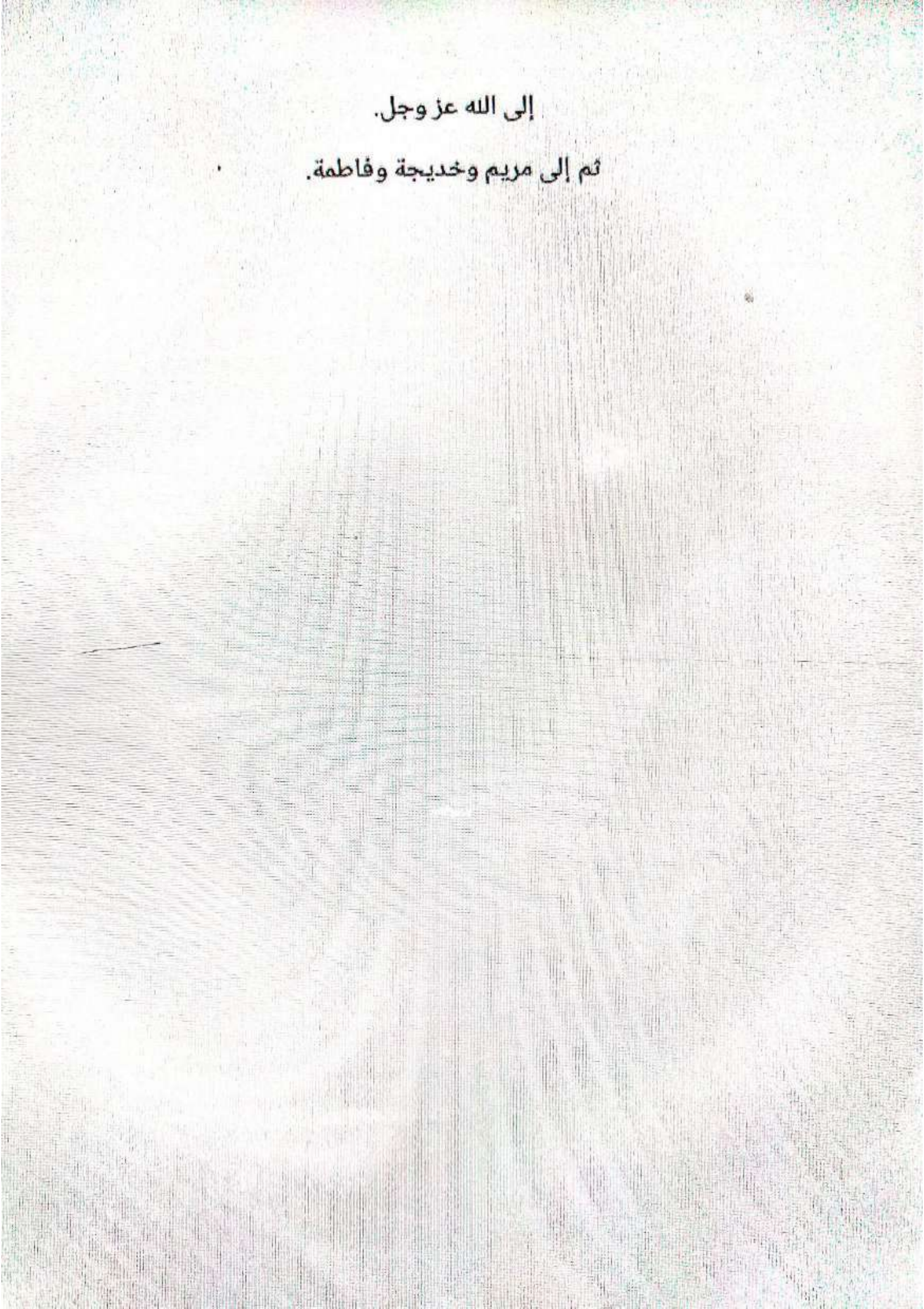
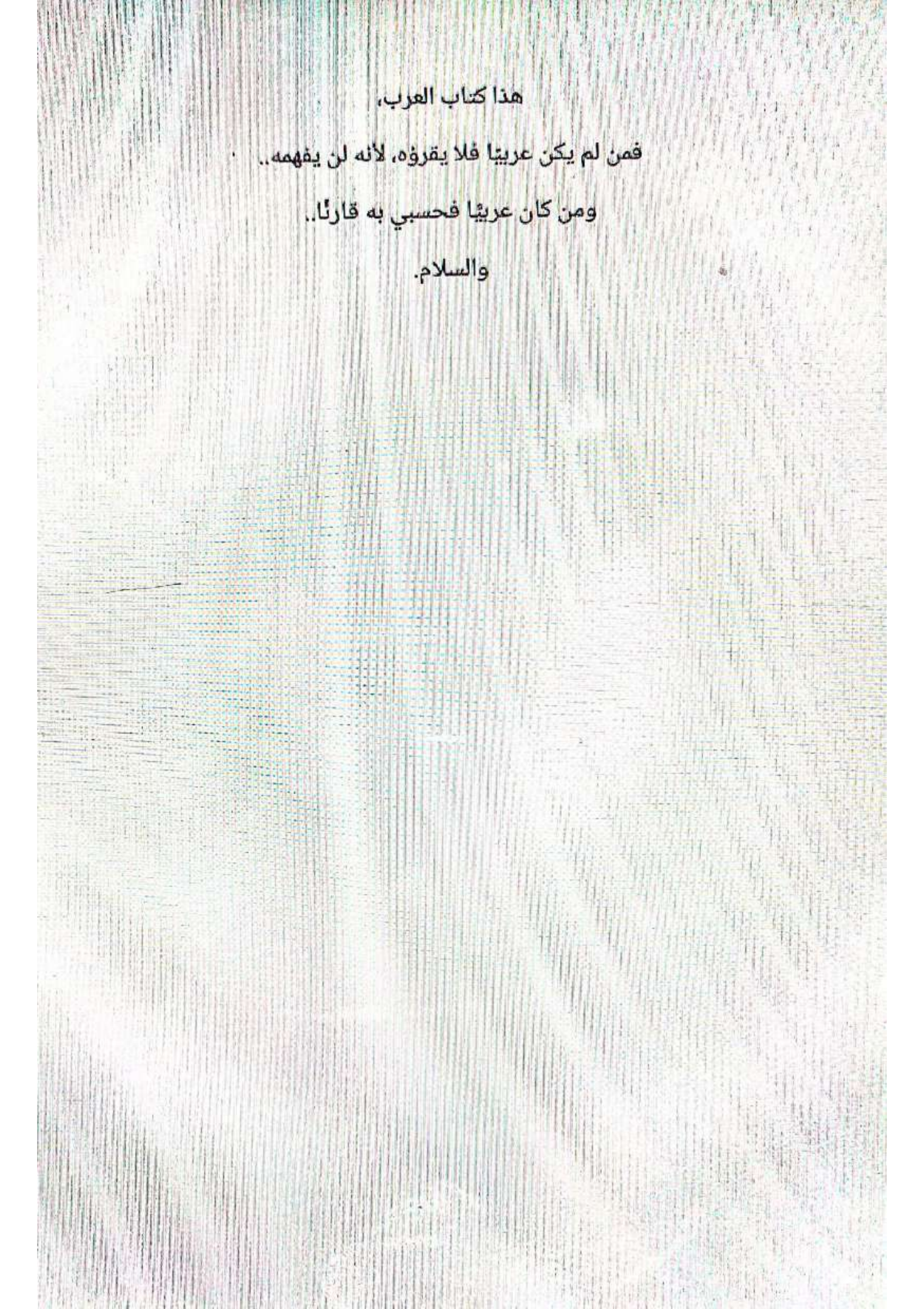

رواية
مجيب الرحمن مدحت
وداعا إرم
حكايتهم من
شداد بن عاد
إلى آل البيت
كيان



إلى الله عز وجل.

ثم إلى مريم وخديجة وفاطمة.



هذا كتاب العرب،

فمن لم يكن عربيًا فلا يقرؤه، لأنه لن يفهمه..

ومن كان عربيًا فحسبي به قارئًا..

والسلام.

• الأحداث الرئيسة بهذه الرواية، وشخصيات الأعلام، وأسماء البلاد والقبائل..

بُنيت على حقائق تاريخية.



تسارعت أنفاس إساف وهي تصعد في الظلام.

يتردد صوت لهاثها بصدًى مخيف مختلطًا برقع قدميها على السلالم اللا نهائية.

تتلمس بيدها الحوائط الحجرية التي تحاصرها. باردة، جفقدت الدم بأصابعها، نتوءاتها جرحتها في أكثر من موضع لكنها في هذه الظلمة لم تستطع أن تتبين الدم.

حين دخلت خلسة إلى المنارة لم تكن تظن أن عليها أن تصعد كل تلك المسافة، ولم تتوقع كل هذه الوحشة، فقط أرادت أن تخوض مغامرة في مكان محرم على أمثالها، لكنها الآن مذعورة لا تعرف إن كانت ستصل أم أنها تاهت للأبد عقابًا لها على تدنيس هذه البقعة من المعبد! وكانت من قبل قد سمعت عند سيدتها عن مغامرات المتحابين فيه، اختلاسهم القبلات عند شرفة بغاء تبركًا، ومن أجل إتمام الزواج، تمنت من قلبها أن تفعل مثلهم يومًا مع حبيبها الذي لا يعرف عن حبها شيئًا، فغامرت أن تذهب وحدها من أجل أمنيتها السرية.

طرح تساؤل داخلها «كيف سأهبط بعد ذلك؟!»، لا بد أن النزول أشد خطرًا من الصعود، كادت تبكي وهي تفكر لكنها تماسكت.

ثم ارتطم رأسها بحرف صخري فانفجر ألم عصبي في دماغها، وشعرت بالدم يحتقن في جبهتها، وببطء حذر مدت يدها تتلمس ما ارتطمت به.

«ها أنت ذا!»، همست بحماس ويداها تقعان على الباب الخشبي المزخرف بالذهب، باب بغاء المبجلة الذي يقود إلى شرفة معبدها العليا التي قيلت عنها الأقاويل. كل من دخلتها وهي مستحقة تهبها بغاء ذرية مباركة كثيرة، ومن دخلتها وهي ملطخة بالذنوب محقت حقها في الذرية فتصبح عقيمًا.

قيل إن كل أمنية عذراء منطوقة في هذه الشرفة تستجاب، فقط إن كانت تلك العذراء طاهرة القلب، وإساف تعتقد في طهارة قلبها.

أخذت نفسًا عميقًا، أغمضت عينيها للحظة فرأت حبيبها بعين خيالها، بجسده العملاق، ووجهه القسيم الذي لم تره من قبل يبتسم، ودفعت الباب الخشبي فانفتح مُصدرًا صريرًا منغمًا، ووصلت إلى أنفها رائحة خشب معتق ثم ضربت وجهها ريح شديدة كادت أن تقتلعها من موضعها وتلقي بها على السلالم، بينما النور يلامس عينيها من جديد.

طار غطاء رأسها في الهواء، دار دورة حول قدم تمثال بغاء العملاق الذي يعلو الشرفة قبل أن يتوارى ضائعًا.

وتقدمت إساف بخطوات مرتعشة داخل الشرفة، ثم شهقت وهي تنظر إلى المشهد أسفلها.

كان أول ما خطف بصرها أعمدة العقيق الأربعة، هي أول ما كان في إرم، بناها قوم عاشوا بهذه الأنحاء في أزمنة غابرة، يقارب ارتفاعهم ارتفاع جبل أجا القريب، يلمعون بالأحمر كقمر دموي تحت أشعة الشمس الحارة التي يجمعونها، وفي الليل ينبضون بدفء فتنعم إرم بنوم هادئ. بهم تتضح حدود المدينة الأربعة وبينهم يسري سورها العتيق.

آه، ما أجمل إرَم!

كأنها جنةٌ قصورها حبات لؤلؤ منثورة بين ورودها، لا تستطيع تمييز حدود جدران الدور وقد تداخلت مع الأشجار العملاقة والنخيل والنهر وفروعه الأربعة والمعابد الثلاثة.

لم تكن إساف من أهل إرم، لكنها تخدم بها مثل قلةٍ من قومها.

تنتمي إلى قبيلة آل عابر التي تقيم على حدود المدينة خارج سورها فيما يعرف بمضارب عابر، غير بعيد عن الباب الجنوبي لإرم. قيل إن عابرًا هو أحد إخوة شديد، سيد عادٍ القديم، وقيل بل قاتل معه العمالقة من قبل حتى طردوهم من حدود هذه الأرض إلى ما وراء الجبل، فجازاه شديد بأن سمح له بالإقامة قريبًا من إرم عند بئر زبيدة.

ترى الآن خيامهم، بادية البؤس، لم يستطع بُعد المسافة أن يمحو عنها تلك الصفة، باهتة الألوان، يتجاور بينها آل عابر مع البهائم التي يرعونها لأبناء عاد، أجسادهم أصغر، وأطفالهم عراة يلطخهم الوسخ والخراء المختلط بالرمل عند مواضع عورتهم. هناك خيمة حمراء وحيدة صبغت بدم الذبائح تنتصب بوسط المضارب، هي خيمة عابر الأصغر، أبو حبيبها الذي لم يعرف بعد أنه كذلك، قحطان، وسيد آل عابر.

بين عابر الأصغر، وعبد الأعلم سيد عاد علاقة قديمة لا يعرف أحد سببها، لكن حكايات صداقتهما الأولى منتشرة في عابر وعاد، وبسبب هذه الصداقة القديمة سمح عبد الأعلم لآل عابر أن يتحصلوا على الماء من نهر بهرموت بعد أن جفت زبيدة.

رفعت إساف رأسها للأعلى فطالعها وجه بغاء الجميلة، والتمعت الياقوتتان بموضع عينيها لها.

بغاء هي أعظم تماثيل إرم قاطبة وأعلاها، فلا يعلو شيء فوقها، ولا حتى الأعمدة الأربعة.

ترقرقت عينا إساف بالدمع وهي تتأمل جمالها الساحر؛ أنفها الدقيق، شعرها الملتف كالكثبان، وشفتاها اللتان ترسمان ابتسامة هادئة حكيمة وكأنها تهمس لإساف «أنا أعرف كل شيء، وكل شيء يعرفني».

للحظة كادت إساف أن تضعف فتخر ساجدة لها كعاد! قومها يعبدون إلهًا سريًا لا يُرى، لا

تماثيل له، ولا نقوش في الصخر، ولا يعرف عنه إلا اسمه.

«إيل»، ليس له صوت، ولا صورة لكنه يفعل كل شيء.

مدت يدها تستند إلى السور الحجري للشرفة، مزين بنقوش الزهور، ملون بدم البقر وصبغة الحشائش، تُسمى مشاهدة إرم من هذا الموضع «نظرة بغاء»، وهي نظرة عالمة تكفي لجعل المدينة كلها عارية أسفلك.

تحت شرفة المنارة المعبد، وهو أكبر معابد المدينة، من أجل بغاء بني، له ساحة عظيمة اسمها «الحمراء»، بنيت كلها من رخام جبلي له لون الدم، جلب من جبال بعيدة بأيام الأجداد، ولا يوجد مثله بالمدينة، يرمز لدم كل امرأة من عاد نزفت أثناء ولادتها.

بخطوات مرتعشة دارت حول الشرفة مستندة إلى حافتها محتمية من الريح، وهي تبتلع بعينيها صورة المدينة كاملة.

قُسمت إرم إلى أحياء حسب عوائل أبناء عاد، بأقصى جنوبها يوجد السوق المعرش، ومرابط الإبل والخيل، وهي الحيوانات الوحيدة التي يسمح ببقائها داخل أسوار المدينة، وأقرب الأحياء إلى السوق هو حي آل غانم، هم أصحاب المزارع ومربو الحيوانات، استأنسوا كل بهيمة؛ الخيل والجمال والغنم والبقر الوحشي، والضباع وبعض الأسود. دائمًا تفوح منهم رائحة بهيمية ثقيلة ولذلك يعاف الزواج منهم أهل الأحياء الأخرى، لا يقاتلون ولا يملكون السلاح ولا يغادرون المدينة. هم أقرب العوائل إلى آل عابر بحكم العمل لأن قومها يعينون آل غانم في تربية المواشي وقص الصوف وتخزين اللحم وتمليحه. بيوتهم دائرية، متقاربة وكأنها سلسلة قباب صغيرة، ويجاورهم بالجزء الشمالي من إرم، آل مخلص.

آل مخلص هم أشرف بيت بعاد، كبيرهم هو سيد إرم اليوم، عبد الأعلم، وهو رجل مُهاب من الجميع، في قصره تخدم إساف، ومن قبلها خدمت أمها وعمات لها، وهي محظوظة كونها ممن يخدم بالمدينة، فيحق لها العودة إلى قومها بطعام وشراب من القصر، وللخدمة شرط وحيد، هو التضحية. فلا يحق أن يدخل إرم من عابر إلا من كان له قريب ضُحي به من أجل بغاء.

والقصة أنه في كل عام، قبل موسم الربيع، تختار كاهنة بغاء شابًا من آل عابر، تتوسم فيه القوة والجمال، فيبيت ليلته معها بالغرفة المقدسة، وفي الصباح يحمله آل عاد إلى قمة أجا ويلقى به من أعلى صخرة فيه تضحية لبغاء وصداء وصمود؛ آلهة عاد الثلاثة، ليستديم المطر الذي يصنع نهر بهرموت.

ويكون من حق أهله الخدمة ببيوت عاد، يطعمون، ويكسون ببعض الأحيان تكريمًا لذكرى

قتيلهم.

منذ عام واحد كان مصرع أخيها بعد أن اختارته الكاهنة.

لا تزال إساف تذكره، أجمل ما فيه كان اسمه، «عاصم»، ميزته عينان واسعتان وحواجب كثيفة مرسومة بدقة، ومثل ابن عمها قحطان، كان له جسد قوي ومتين على عكس معظم آل عابر.

وكان دائمًا ينجح في انتزاع ضحكاتها.

منذ غاب لم تضحك.

تنهدت وهي تتفحص قصور آل مخلص من موضعها.

هم بناؤو هذه المدينة، وقد أعادوا بناء أجزاء واسعة من السور العتيق بعد أن حطمه فيضان شتوي منذ سنوات، بيوت أكثرهم قصور، حوافها العالية مزينة باللونين الأزرق والأصفر تمييزًا لها عن باقي إرم، نساؤهم أجمل بنات عاد، وأكثرهن حكمة وحفظًا للبيوت، وقد خبرت إساف ذلك بنفسها من معاشرتها لهن، لا يتزوجن إلا من بني آل مخلص بينما يحق للرجال أن يتزوجوا من أي الأحياء شاؤوا إلا آل غانم.

تواجه قصور آل مخلص بالجهة الغربية، حيث يصنع الجبل حد المدينة وحيث يبدأ النهر، بيوت آل شديد وآل عوص، وهم مقاتلون أشداء، وأكثر عاد تملكًا للسلاح، طافوا بأنحاء الأرض حتى وصلوا إلى البحر فعبروه، وامتلكوا تجارة العود، والبذور، والجلود مما تحصلوا عليه من البلاد البعيدة، كما سرقوا كنوزًا من بقاع شتى حتى امتلأ حيهم بتماثيل ذهبية ورخامية لآلهة بعيدة وملوك عارية يلبسون التيجان ولا يُعرف عنهم شيء، وقد كان جدهم الاكبر شديد هو من قيل أن عابرًا الأول قد قاتل إلى جواره حتى طرد العماليق. تقول شديد أن جدهم الاكبر كان أعظم رجل خُلق بعاد، وتتكبر على باقي الأحياء به، فكان بين حيهم وباقي إرم حتى عوص تنافر وغيرة مستمرة قد تصل إلى حد الكراهية بأحيانٍ كثيرة.

من حيهم يتفرع نهر بهرموت قادمًا من أخاديد تسري في سلسلة الجبال حيث تمطر السماء بلا توقف، فيسري في أربع قنوات هي: حوف، وحرشف، وشيجة، وأم الغريق ويكوّن بحيرته العظيمة عند ساحة معبد بغاء الحمراء فكأن تمثالها ينظر مباشرة إلى تلك البحيرة.

آخر الأحياء هم بنو الضحاك، ويسكنون بطرف المدينة الجنوبي الغربي قريبًا من معبد صداء وصمود، وهم حلفاء بني مخلص الأقرب، يعملون بالتجارة، فيخرج رجالهم كل شتاء في رحلات طويلة يدفع فيها كل أهل عاد أموالهم من أجل الربح. يطوفون بالأنحاء

مستكشفين، ومتاجرين مع الأقوام الأخرى، عرف عنهم النزاهة في التجارة والابتعاد عن السرقة والإكراه، ويرجعون مع بدايات الربيع في موكب مهيب من العير المحملة بالبضائع، كما يحضرون غريب الحيوان والطير مثل القرود التي كانوا سببًا بانتشارها بالمدينة، والقطط المستأنسة، ويجلبون الذهب والزمرد والأحجار الملونة، والبهار.

هم من أوقف غزوات البدو على إرم بعد أن طاردوهم مع آل شديد حتى أبعدوهم في الصحاري البعيدة.

ارتجفت ركبتا إساف فجأة، وكذا يداها وهي تقترب من حافة الشرفة ناظرة إلى أقصى موضع بالطرف الشرقي للمدينة أسفل عمود العقيق، وهي تميز جسد ابن عمها قحطان رغم المسافة، مثل قومه يرتدي الإزار الذي يلفه حول جسده ولا يرتدي القمصان على عكس رجال عاد، ويمتلك جسدًا لا يملكه سواه في آل عابر وكأنه رجل إرمي. رأته وهو يتلفت حوله وقد تسلل إلى المدينة، ومن مسافة قريبة هرعت إليه ابنة عبد الأعلم، خديج، وهي تركض خلفه إلى خارج المدينة من كوة في سورها وبانتظارهما من الناحية الأخرى جملان!

التمعت عيناها بالدمع، وشعرت بحرقة ضاغطة في صدرها تصاعدت حتى حلقها كأنها ستخنقها، وتعرقت أصابعها على الحافة الحجرية للشرفة وهي تعض شفتيها بينما تراهما يعبران السور، ثم سمعت صوت الباب الخشبي ينفتح من خلفها فارتجف قلبها والتفتت مذعورة تنظر القادم فرأت يلوذ، ثاني أهم رجل بإرم وابن أخي عبد الأعلم، وهو يتقدم نحوها مبتسمًا بدناءة ويقول وهو يلف عباءته الحريرية حول جسده فتلمع أطرافها المذهبة:

- *«ما أفجر ذلك! امرأة من عابر في شرفة بغاء؟!»*.

وللحظة امتقع وجهه وهو يلمح من خلف إساف خديجًا ابنة عمه مع قحطان، كرر مندهشًا:

- *«ما أفجر ذلك!»*.

***

زحف قحطان، تتبعه خديج من الكوة الضيقة بالجزء الأخير من صدع السور الذي يمتد من بوابة السوق حتى الموضع الذي يلامس فيه جبل أجا. خارج السور كان جملان ينتظرانهما، أحدهما «ذات ذهب»، وهي ناقة خديج، أما الآخر فكان أحد جمال آل غانم التي يرعاها أولاد عابر بمضاربهم.

اقتربت خديج من ذات ذهب وأخرجت من جيب ثوبها بعض أعشاب صفراء لها حواف

خشنة فمدت الناقة رقبتها تتناول منها مستأنسة بقرب صاحبتها. لمست خديج وجه الناقة فأرزمت بصوت دافئ وانفرج فم قحطان بابتسامة صامتة وهو يرقبهما.

برفق ضربت خديج على بطن ذات ذهب فنخت الناقة وميز قحطان الخصلة الذهبية في شعرها والتي شميت تيمنًا بها، غض بصره وخديج تعتليها، ونظرته من طرف خفي فابتسمت حين رأته يداريّ عينيه عنها، ومن بعدها قفز قحطان على ظهر بعيره ثم انطلقا إلى جبل توبار.

هو الجبل الثالث في سلسلة جبال تبدأ من إرم وتخترق الصحراء حتى متاهاتها التي لم يصل إليها أحد، ومن خلال شق ضيق فيه يمكن العبور إلى الجهة الأخرى حيث مدافن عاد، ومن قبلهم العماليق، تتبعها قبور مشؤومة تسمى «صبيحة» يدفن فيها الجن موتاهم، ومن وراء تلك القبور جبال غامضة يقال إن الجن يسكنها وتدعى «المظلمة».

سارا بمحاذاة سفح الجبل كي يبتعدا عن المضارب، تحت حواف جمليهما أرض تغطيها الزهور والحشائش، تتناثر فيها أشجار أثلٍ وسدر ومر لم يزرعها أحد. في لغة خديج، يوجد لكل نوع من تلك الزهور اسم وفائدة، تجمع بعضها لأهلها، تضعه في جراب جلدي صنعته بنفسها، تغليه بالماء فيصبح شرابًا معالجًا، أعطت قحطان بعضه في مرضه من قبل فخفف ألمه سريعًا.

هبت ريح الصبا، لطيفة وباردة فأغلقت خديج عينيها تستشعرها على جلدها، مثلها فعل قحطان، كان أصغر منها بثلاثة أعوام، لكن أعمار عادٍ كانت أطول من أعمار عابر بكثير، ومثل قومها كانت خديج أقدر على الشم من عابر، فاستنبطت روائح ورود أشجار الرمان في الريح.

أنشد قحطان بصوت خشن لجمله فأصدر الأخير أصواتًا راضية، ومن حولهما تبدى الجمال في كل شيء في عيني قحطان، وهكذا هو العالم حين تأتي خديج، تتخذ الورود ألوانًا مبهجة، وتنمو في كل الأماكن حتى في شقوق الصخر، وتلتمع الجبال بالأحمر والأسود والأبيض، تتداخل فيها تعرجات أطياف ألوانٍ مبهرة، ويصبح غناء الطير مفهومًا، وحتى صوت المطر القادم من فوق توبار خالقًا نهر بهرموت يعزف كلحن شجي.

التفت إليها، للحظة تلاقت أعينهما فشعر كأن قلبه يحترق، ورغم أن عادته الصمت، بحث عن كلمات يقولها ليسمع صوتها:

- *«سنبحث اليوم عن زهور أيضًا»*.

- *«يبدو أني وجدت كل أنواع الزهور بهذه الأرض، لمَ لا نتوغل في الصحراء؟ فلا بد أن*

هناك زهورًا لم يرها أحد بعد».

- *«ولم تريدين أن تجديها؟».*

- *«كي أطلق عليها اسمًا».*

ابتسم لقولها، وتابع:

- *«التوغل في الصحراء خطر؛ هناك البدو، والمفترس من الحيوان، وأخطر منهما الضياع في متاهاتها، ولذلك لم تجرؤ عابر على مغادرة مضاربها عند سور مدينتكم».*

- *«أنت إلى عادٍ أقرب منك إلى عابر».*

قالت ذلك وعلى وجهها ترتسم ابتسامة، فبهت لقولها.

نعم كان جسده أقرب لرجال عادٍ بطوله، لكنه نحيف رغم ذلك تغيب عنه القوة العضلية لرجالهم، كما أن لهجته هي لهجة عابر بينما لعادٍ لهجة أعظم منها بكثير، تحوي كلمات أكثر، ويمكن صياغة الأغاني منها بسهولة، وهي لغة رقيقة لها لحن ساحر، تتباسط خديج بالحديث معه بلهجة عابر التي تعلمتها من الخدم، ولو كلمته بلغة قومها لما فهم كثيرًا مما تقول رغم تقارب اللهجات.

- *«لم أخرج اليوم من أجل الزهور».*

هز رأسه مستعلمًا، فقالت:

- *«سنذهب اليوم إلى قبر أخي رمل، هذا هو ربيعه الأول».*

هز قحطان رأسه ولم يعقب، فقط ضرب بطن جمله بقدميه الحافيتين فانطلق صوب شق «ضحاء» ومن ورائه ناقة خديج، وهو شق فاصل بين جبلي توبار وأجا. ما إن ولجاه حتى تصاعد صوت احتكاك الحصى تحت حوافر جمليهما، وعلا صوت المطر واستفاض الظلام حتى عميا عن كل ما حولهما.

من فوق قمة توبار تُلقى الأضاحي من آل عابر بداية قبل كل ربيع من أجل بغاء كي تتم نعمتها بدورة جديدة للمطر، يستطيع الآن أن يسمع عظام الضحايا تتهشم تحت أقدام الإبل، وتصله رائحة عفونة الجثث المتحللة من الأسفل وقد عطنها الماء، ولو كان هناك نور لاستطاع قحطان أن يميز بعض وجه ابن عمه ولم يكن قد مر عام على إلقائه بعد.

نفخ بانفعال مكتوم، سمعته خديج فخفضت رأسها وقد فهمت ما كان يفكر فيه.

خرجا من الشق فانفتحت أمامهما صحراء القبور الصامتة، أرض منبسطة لا زرع فيها،

تتناثر فيها شواهد أضرحة موتى عاد، كل شاهد صخرة عملاقة لا يقوى على حملها إلا مجموعة من الرجال مجتمعة، مربعة الشكل، موزعة بين أربع عشرة فوهة بركان خامدة ومحاطة بصخور مدببة سوداء يطلقون عليها الحرة، وهي بقايا ما ألقته البراكين حين كانت مشتعلة بالأيام الغابرة، ومن خلف قبور عاد كانت قبور أخرى عملاقة حتى رجال عاد لا يستطيعون حمل حجارها، مصقولة، ناعمة الحواف، منقوش عليها رموز لا يعرف أحد ما تعني لكنها ليست مثل رسوم عاد أو وسومها، ولا هي أشكال زينة.

قال قحطان بإجلال:

- *«قبور العمالقة»*.

فقالت خديج:

- *«لا، بل أقدم من ذلك، حتى العماليق لا يقدرون على حمل هذه الحجارة، ولا نحت تلك الرموز»*.

- *«من حملها إذا؟»*.

- *«قالت جدتي يومًا أن مخلوقات من السماء دفنت تحتها أوائل البشر»*.

- *«تلك المخلوقات هي من نحتت تلك الرموز!»*.

- *«لا، أظن أن الرموز من صنع البشر، المسافات بينها ضيقة، كأنها كتبت بيد إنسان تشبه أيادينا»*.

قالت وهي تلف ذراعها حول جسدها وتهمس:

- *«تشعر بذلك!»*.

هز رأسه موافقًا، ذلك الشعور الغامض بالرهبة الباردة، وحتى الإبل تتباطأ مشيتها هنا، ولا تصدر أي أصوات.

الجميع يعلم أن قبور الجن غير بعيدة، هي تلك القبور المجهولة على مرمى البصر، هناك تظهر القبور فجأة، وفي الليل، ويفاجأ بها الرجال في الصباح ومن ذلك اشتقت اسمها «صبيحة»، فيعرفون أن الجن قد دفن ميتًا له قبل فجر ذلك اليوم.

ربتت خديج على عنق ناقتها وهي تهمس لها فتوقفت، وبركت على الأرض، ومن فوقها قفزت خديج برشاقة، ومثلها فعل قحطان لكن جمله لم يستجب له، فهزه بقدميه وضرب عنقه حتى أصدر صوت رغاء ضَجِر وتجمد مكانه، وبسرعة اقتربت منه خديج فأمسكت

بعقاله تشده برفق حتى استجاب لها وبرك وقحطان يسبه.

مشى بجوار خديج وهو يحاذر أن يدوس الحجارة المدببة، أما هي فكانت ترتدي حذاءً من جلد ثعلب يلمع بنقوش فضية، توقفت كالمتذكرة والتفتت إليه وهي تبحث بيدها في جرابها.

- «*كيف نسيته؟!*».

ومن جرابها أخرجت حذاءً من جلد أسود مدبوغ، مدت ذراعها به إلى قحطان وهي تقول:

- «*صنعته من أجلك*».

تجمد وهو ينظر إليه في يدها، ربما يكون أول رجل بعابر يتملك مثله، رفع عينيه إليها دون أن يأخذه.

- «*اسمه خُف، وهو سهل الارتداء والخلع*».

ثم هزت يدها به وهي تقول:

- «*هيا خذه*».

مد يده إليها، قبض عليه فاشتم رائحة طيب خفيفة، رمشت عيناه انتشاءً من فرط جمالها وهمس بصوت مبحوح:

- «*عطرته؟!*».

- «*فعلت*».

أجابت ببساطة، ارتجفت شفاهه تأثرًا وأسرع ينحني مرتديًا إياه ليخفي دمعًا احتشد في عينيه على رغمه، ولما اعتدل شعر أنه انفصل عن الأرض بعازل، وأن أذاها غير قادر على أن يصله بعد، وأنه خفيف مثل حصان يستطيع أن يتجول في أي مكان دون حذر.

قال باحثًا عن الكلمة المناسبة:

- «*إنه شعور...*».

فابتسمت خديج وهي تقول:

- «*بالأمان*».

حرك رأسه موافقًا وهو يتابع:

- «يجعلني قويًا».

ورفع عينيه إليها ممتنًا، ورغم تجهمه الذي عُرف به ابتسم، فابتسمت له وهي تعدل حجابها فوق رأسها، لمح للمرة الأولى بعض شعرها الفاحم تحته فكاد يشهق سحرًا.

نظرت إليه ولم تعقب ومن دون كلمات مشت إلى قبر أخيها.

هو وهي، قحطان وخديج، وذلك الشعور الأبدي بينهما منذ أيام الطفولة الأولى حين كان يأتي مع خالاته للخدمة بقصر أبيها عبد الأعلم، لم يجعلهما العالم معًا، بل بدا وكأن العالم قد خلق باجتماعهما، وكأن حبهما بدأ ثم خُلق القدر بعد ذلك ليجعله واقعًا، فكان ذلك الحب من عناصر الحياة الأولى كجبال أجا وتوبار ونهر بهرموت والأعمدة، ومع أن ذلك الحب سري، ومحرم في شرع عاد الذين يمنع أن يختلطوا بأي صورة من صور النسب مع غيرهم، فإن صحبتهما تستمر.

تعمقا بين الصخور الجنائزية، كل صخرة بطول قحطان أو أعلى، وتحت كل منها فقيد من عاد، أحيانًا تدفن عائلة كاملة تحت صخرة واحدة، أو صديقان اجتمعا في الحياة وأوصيا أن تجتمع جثتهما بعد الموت، وقد زينت عوائل الأحياء قبور موتاهم بنقوش نباتية وأختام ورسوم أبقار وحشية وجمال وجبال وسحب ورماح وحراب وحتى نقوش لبغاء وصمود وصداء.

اشتم قحطان الرائحة الملحية الغريبة التي تفوح من تلك الصخور، وانقبض قلبه من صفير الريح وهي تندفع بين الممرات الضيقة التي صنعتها تلك الشواهد، لم يكن قد أتى هنا إلا مرة واحدة وحده بعد أن دُفن رمل، ولم يكن قد رآه حيًا لأنه ولد بعد أن بلغ قحطان سنًا يُمنع فيها من دخول إرم. رمل أصغر من أخته باثني عشر عامًا، ولا إخوة آخرون بينهما، وكان مولده معجزة لأمها «مهد» التي عرفت بأطفالها التي تخرج ميتة من رحمها منذ أنجبت خديجًا بعد مشقة أيضًا، لكن رمل ولد كأبهى رضيع رأته عاد، ثم غدا مضرب المثل في الجمال؛ طفل بعينين عسليتين واسعتين، وأهداب طويلة رشيقة، وأنف دقيق، وشفاه كأنها رسمت رسمًا، وقلادة جعلتها أمه حول عنقه وعلقت فيها ناب نمر يحفظه من العين، وكانت قدرته على الحديث مثار حسد كل أم بإرم، فاستطاع أن يخطب بالرجال في السوق من عمر الخامسة، وكان صاحب أبيه في كل أموره.

وفي صباح شتوي بارد قال الطفل أنه يريد أن ينام لأنه يشعر أن داخله مظلم، هكذا قال.. كانت المرة الأولى التي ينام فيها قيلولة، أغلق عينيه ولم يفتحهما بعدها، وجاءت أمه لتوقظه فلم يستجب لها، صرخت فدخل كل من في القصر غرفته محاولًا إيقاظه لكن عينيه

ظلتا مغلقتين.

هكذا من دون أسباب، وبلا ألم، مات رمل، حتى أن مهدًا رفضت أن تصدق أنه قد رحل، واستبقته رغم اعتراض عبد الأعلم ثلاثة أيام في سريره على أمل أن يستيقظ، وكمعجزة صغيرة لم يتعفن ولم تصدر منه ريح الموتى المشؤومة، ولم تتخل عنه أمه حتى زارتها الكاهنة وأخبرتها أنها رأته مع بغاء فوق عرشها الأعظم يضحك.

حينها فقط أخرج من قصر عبد الأعلم ودفن هنا.

والآن تقترب خديج من قبره.

هي من حفرت النقوش عليه.

نقش لطفل إلى جواره امرأة راكعة على ركبتها كأنها تصلي له، ومن فوقهما وردة متفتحة لها أربع بتلات تمثل كل واحدة منها أحد أفراد العائلة.

عبد الأعلم، مهد، خديج، رمل.

أراحت كفها على ضريحه.

لمست القبر بجبهتها، غنت له أغنية كان يحبها، هذه المرة كانت بلهجة قومها، فلم يفهم قحطان كثيرًا منها لكنه تأثر بالشجن فيها وشعر بقلبه يدق منفعلًا.

فجأة صدر صوت من أسفل الصخرة كأنه ضحكة!

ارتعب قحطان، تجمد مكانه وهو يرقب الصخرة فزعًا، وتوقفت خديج عن الغناء وهي ترجع خطوة عنها وقد اتسعت عيناها تنظر إلى الصخرة بانفعال.

واستمر الصوت، نعم، هو الضحك، ضحك تعرفه جيدًا، ضحك رمل!

تلفت قحطان حوله بارتياب يبحث عمن يعبث بهما وقد عزم على قتله ولو كان من عاد، لكنه لم يجد غير صخر الأضرحة على امتداد البصر ومن ورائها قبور صبيحة.

رمت خديج نفسها على الضريح ملصقة أذنها به، لكن الصوت كان قد بدأ يخفت ويذوب في صوت الريح الصاخب. دفعت بيدها في الصخر تحاول تحريكه وهي تنادي رملًا، وانضم إليها قحطان فأنشب أصابعه في الصخرة يدفعها بأقصى ما استطاع لكنها ثبتت على حالها، فانحنت خديج تحفر أسفلها، أزاحت حجارة الحرة السوداء الحادة، ومن تحتها ظهرت تربة حمراء غرزت يدها فيها وتابعت الحفر وصوت أخيها يختفي تمامًا ويحل محله صوت بكائها اللاهث.

سقطت ندف دم على التربة أمامها فرفعت رأسها ورأت يدي قحطان وقد جرحتا في أكثر من موضع، وعروقه قد نفرت، ووجهه وقد احمر من جهد، وللحظة تسمرت عيناها عليه، ونبض قلبها أسرع من أجله، ثم انكبت تتابع الحفر.

ومست يدها شيئًا غريبًا!

ناعمًا، باردًا ومصقولاً.

توقفت تنظر فرأت جلدة مدبوغة، لها لون كان أبيض في زمن بعيد وقد اصفر الآن.

تابعت الحفر حولها فبرزت من بين الرمل كاملة.

أمسكت بها، فردتها على التربة ونظرت إليها، كانت جلدة في حجم أربعة أكف متجاورة، اثنتان فوق اثنتين، محافظة على تماسكها كأنها جديدة، وعليها كانت نقوش غريبة، ليست رسومًا ولا زخارف، إنما نقوش لرموز متكررة، منتظمة في شكل دائري، أو في سطور ملتفة!

لهثت خديج وهي تتفحصها، وتوقف قحطان عن محاولة دفع الصخرة وهو يسأل بحذر:

- «*هي من بقايا الجن!*».

قالت خديج وهي تتلمس الرموز بيدها:

- «*لا*».

كانت بلون أسود فاحم، ورغم قدم الجلدة حافظت على وضوحها.

قالت بتبجيل وهي تجلس على ركبتيها:

- «*هذا كلام مكتوب*».

ثنى قحطان ركبتيه جالسًا إلى جوارها، راقب أناملها الرقيقة وهي تتحرك بسلاسة فوق الرموز، وصلته نفحة من عطرها، عود خفيف أدار رأسه وجعل كل ألم جسده يختفي كأن لم يكن.

كانت فكرة أن تكتب الكلمات على شيء مبهمة بالنسبة له، وإن بدت له شديدة العذوبة كأمر سحري، وانتابته برودة خوف والريح تصفر في أذنيه وهو يسأل نفسه عمن كتبها وما فيها.

اقتربت خديج من القبر وقالت:

- «*هل كانت إرادتك أن أجدها يا رمل؟*».

التفت قحطان إلى القبر بخوف منتظرًا إجابته، تنفس الصعداء حين لم يسمع شيئًا غير صوت الريح، فقال:

- *«لعلنا توهمنا صوته يا خديج».*

- *«أنت سمعته مثلي يا قحطان».*

- *«لا يعيش جسد تحت التراب، قد دفنتموه منذ عام».*

- *«فما كان الصوت؟».*

- *«عله الجن يعبث بنا».*

نظرت إليه، بكت على حين غرة، فهز رأسه قائلًا:

- *«لنغادر».*

مسحت دمعها بطرف ثوبها، التفتت إلى قبور الجن البعيدة ثم حركت رأسها ببطء متردد، توقفت، لمست القبر مرة أخرى.

«رمل.. أخي.. إن كنت تسمعني فأجب».

عمَّ صمت، ورغمًا عنها أفلتت نهنهات بكائها فخفض قحطان رأسه متجنبًا النظر إليها، واقتربت منها ذات ذهب فلمست بوجهها خد خديج.

احتضنت خديج الرأس كأنها تداري وجهها فيه، وبركت الناقة عندها تدعوها للمغادرة فصعدت وهي تضع الجلدة بحرص في جرابها، ومن خلفها ركب قحطان جمله وأقلا عائدين إلى سور إرم.

بتلك الليلة تحممت خديج، في مغطس أمها المرمري، مسحت آثار الحزن عن وجهها، ارتدت ثوبًا أبيض مطرزًا بنقوش ورود متداخلة، وأمسكت بالجلدة تتفحصها عن قرب في ضوء قنديل نحاسي. تذكرت قصص جدتها عن الرجال العظام الذين عاشوا بالزمن الغابر بأمر بغاء وصمود وصداء ليعمروا الأرض ويطردوا الجن منها، وكانوا قادرين على كتابة كلماتهم تحت إشراف نبي قديم علمهم هذا الفن، فكان من يأتي بعدهم قادرًا على قراءتها وكأنهم يتحدثون إليه وإن كانوا قد هلكوا منذ زمن.

فكرت خديج في ذريتها، حدثت نفسها، لو أني أستطيع أن أكتب لهم كلمات يقرؤونها من بعدي.

كانت تشعر بأنها سترزق بأولاد وبنات كُثر، ومن خلفهم قبيلة كاملة من الأحفاد كأنهم حي

جديد بإرم، ما أجمل أن يستطيعوا أن يقرؤوا كتابها إليهم بعد أن تموت.

نامت محتضنة الجلدة بين يديها.

في نفس تلك الليلة، غير بعيد، في خيمته خارج السور، رأى قحطان حلمًا.

رأى نفسه وحده في وادي ضحاء، عاريًا إلا من إزار يغطي عورته، لم يعرف ما يصنعه بذاك المكان لكنه حين فتح يده وجد فيها بذرة غريبة، كأنها قمر صغير جدًا.

ومن وراء جدار صخري خرجت خديج، مرتدية ثوبًا أبيض، مطرزًا بالورود، وقد كشفت شعرها فكان مثل ألف جناح عملاق، متموجًا ببهاء، أشد ظلمة من سماء الليل، اقتربت منه حتى اضطربت وقفته، اقتربت أكثر، قبلت جبهته وأصابعها تتناول البذرة من يده، وأمامه انحنت على الأرض فحفرتها لتظهر فيها الجلدة وعليها نقوش جديدة بالدم، على الجلدة وضعت البذرة ثم غطت كل شيء بالتراب.

وانفجرت الأرض بفوران عظيم، وكأن كل تربتها أضحت غبارًا.

تداخلت سحب الطين، دفعت بعضها كأنها تتقاتل، وسقط المطر غزيزًا فزاد الطين بلة، وببطء تحولت تلك السحب إلى ناس! رجال ونساء، تداخلوا فخرج منهم ناس أكثر، تداخلوا، وتقاتلوا لكن عددهم استمر في الزيادة وفاحت في الجو روائح مختلطة، رائحة خبيثة سرعان ما تدفعها رائحة طيبة، رائحة دم، تدفعها رائحة ثمار زهرية، وانتشر الناس في وادي ضحاء حتى باعدوا سفح الجبلين فغدا الشق واديًا رحبًا ودخله النور للمرة الأولى فرأى فيه قحطان أمةً كاملة في وسطهم خديج!

واستيقظ منفعلًا من حلمه وهو يلهث، مسح عرقًا باردًا عن جبهته، ومع أنه لم يكن يعتقد في الأحلام إلا أنه وعلى عادة قومه بدَّل نومته فجعل رأسه مكان قدميه كي ترى خديج في مخدعها الحلم نفسه.

وفي غرفتها أسفل البرج بقصر أبيها رأت خديج نفسها بين ذراعي قحطان، كان يبكي متألمًا فمدت يدها تمسح عن عينيه فانبعث من بين أناملها نور عظيم اكتسح معه كل إرم تاركًا إياها أرضًا منبسطة!

وصاح الديك فاستيقظت من نومها مندهشة مما رأت!

سمعت صوت أبيها يتساءل ناعسًا بردهة القصر:

- *«أحل الفجر بعد؟»*.

فأجابته أمها مهد بصوتها الدافئ:

- *«لا! لا يزال الليل في أوله»*.

فقال بصوت قلق:

- *«هذا نذير شؤم. لعل الديك صاح مرة واحدة، فلا يكون نذيرًا إلا إن صاح مرتين»*.

وصاح الديك من جديد!

وفي الخارج، على ضوء القمر الذي عكسته الأعمدة الأربعة، كان تأويل صيحتي الديك. أنارت الأرضية الحمراء لساحة بغاء وفوقها استقرت عباءة مطرزة بالذهب والأزرق رمز آل مخلص، وبين طياتها كان لحم مبعثر لجثة لم تعد لها ملامح.

أيقظ صوت الارتطام جيرة المعبد، فخرج الرجال وقليل من النسوة ينظرون إلى ما حدث، وصاح رجل:

- *«لا يرتدي تلك العباءة إلا عبد الأعلم وابن أخيه يلوذ»*.

فتعالت الهمهمات المضطربة بين الحشد ولم تخفت إلا حين ظهر عبد الأعلم نفسه محاطًا بموكب من رجاله من آل مخلص، حاملًا عصاه المشؤومة التي لم ترفع في وجه رجل إلا قتل أو نفي أو دفع به من فوق أجا.

اقترب من الجثة بلا خوف بينما يفسح له الجميع، انحنى على الأرض إلى جوارها مقتربًا، غمس يده في اللحم بحثًا عن علامة، بسرعة ميز بقايا عظام الجمجمة ورأى كرثي عين ابن أخيه، فأمسك العباءة بأطراف أصابعه وغطا بها بقايا الجسد والرأس قبل أن يعتدل في وقفته فيعم الصمت.

دفن رأسه في صدره فغطت لحيته الضخمة التي امتلأت بالشيب كامل صدره، واهتزت العصا في يده فتراجع الناس خطوات.

ها هو عظيم آخر من آل مخلص يهلك، وريث إرم من بعده يموت كما مات رمل، كأن بغاء قد تحالفت مع آل شديد كي يعود ملك إرم إليهم، ما أكثر ما ينجبون من الذكور، وما أقل ما ينجب آله منهم.

اقترب منه خادمه ناصر بخطوات عرجاء كأنها القفز استحق معها اللقب الذي يناديه به أبناء عاد «ابن تعامة»، وهمس بأذنه:

- *«شداد قادم»*.

فاستقام عبد الأعلم وهو يرفع نظره إلى آخر الساحة ليرى شدادًا بجسده العملاق وهو يسرع إلى الساحة محاطًا بقومه من آل شديد وحلفائه من آل عوص. زفر بغضب مكتوم، لعنهم في سره، واقترب شداد حتى وقف إلى جواره فكره ذلك لأنه رغم طوله يبدو قصيرًا إلى جوار ذلك الشاب، امتعض من رائحة العود الثقيلة التي فاحت منه حتى غطت على رائحة الدم.

باحترام لكن من دون خوف جاوره شداد حذرًا أن تمسه عصاه، واسترق نظرة إليها لم تفوتها عينا عبد الأعلم الخبيرتان، وقال بصوته الجهوري:

- «*أحقًا هذا اللحم الملفوف بالقماش هو يلوذ؟*».

صمت عبد الأعلم ومن خلفه تبعثرت الكلمات مجيبة سيد شديد، فتابع:

- «*مقتول؟ أم دفعته بغاء من شرفتها؟*».

التفت إليه عبد الأعلم بغضب منذر، كره ما رآه فيه، وجهه القسيم المشرب بالحمرة، لحيته التي تداخلت في سوادها شعرات شقراء بلا أثر لشيب، ورأسه سليم الشعر كثيفه كأنه وجه أسد.

- «*منذ متى تدفع بغاء أشراف عاد من شرفتها يا شداد؟*».

أجابه، واقترب منه خطوة وتابع:

- «*وكيف عرفت أنه سقط من شرفتها؟*».

قال شداد متجاهلًا سؤاله:

- «*فمن قتله؟*».

- «*اليوم ندفنه، وغدًا أنا قاتل من فعلها*».

أجاب عبد الأعلم وهو يهز عصاه بيده فترتطم بوركه، وتراجع شداد خطوة وهو يتابعها بحذر وقال:

- «*سآمر كل شديد أن تخرج في جنازته معك*».

هز عبد الأعلم رأسه موافقًا، واقترب شداد من الجثة، انحنى على ركبتيه ومد يده يريد أن يكشف العباءة عن الرأس فصاح عبد الأعلم محذرًا:

- «*إياك أن تفعل!*».

لكن شدادًا تجاهله ويده ترفع الغطاء عن جزء من الرأس فتعلو صيحات الدهشة والذعر ممن جاء بعد أن غُطي الجسد، وللحظة لمح عبد الأعلم ما يشبه ابتسامة سرعان ما اختفت عن وجه شداد.

غطى شداد الجثة ثانية، ورفع رأسه فوجد عصا عبد الأعلم تنظر إليه مباشرة، بلونها البني الداكن شبه القذر، ولمح بقعًا خضراء كأنها عفن دائم على بعض أجزائها، وبقع دم قديمة متعتقةً داخل نتوءات خشبها الممتدة على مدى العصا، وسقط إلى الخلف مذعورًا وهو يغطي بثوبه ساقيه اللتين تعرّتا، وعبد الأعلم يتقدم منه وعصاه لا تفارق وجهه والقوم من حولهم يتحفزون كلٌ إلى حيه، إلا أن آل عوص تراجعوا عن شديد خوفًا من غضبة عبد الأعلم المفاجئة فأصبح آل شديد قلة محاصرة بغيرهم من الأحياء، بينما تكلم عبد الأعلم فخرج صوته هادئًا مشربًا بقوة واثقة:

- «*لن تخرجوا في جنازة يلوذ، بل يحبس كل آل شديد في حيهم حتى يُعلم القاتل، ومن يغادر الحي منكم قدمه مهدور*».

توقف شداد بحذر وعيناه لا تفارقان العصا التي تتبعه والهمهمات تتعالى حوله فصاح فيه عبد الأعلم:

- «*أوعيت قولي؟!*».

هز رأسه أن نعم وهو يلف عباءته السوداء حول جسده ومن دون كلمة أخرى التف مغادرًا الساحة بخطوات سريعة ومن خلفه قومه، والتفت عبد الأعلم إلى ناصر قائلًا:

- «*احرص على أن تجعل هناك من يراقب حي ذاك العلج، وليكونوا من الأربعة أحياء*».

هز ناصر رأسه باحترام، وأشار عبد الأعلم إلى الجثة من دون كلمات، فأسرع رجاله يلفون العباءة حول اللحم ويحملونها بحذر استعدادًا للدفن.

***

غمست خديج سبابتها في إناء ملأه دم غزال ثم رفعتها إلى جلدة جديدة مدبوغة. لمست الجلدة وعيناها على الرموز المرسومة على رقعة قبر رمل، حاولت تقليدها، رموز رقعة قبره كانت واضحة، خطوطها مستقيمة ومتناسقة، أما خطوطها فمرتعشة وغير منتظمة.

رفعت إصبعها قليلًا عن رقعتها فوجدته يرتعش، وشعرت بأنفاسها ثقيلة. أغلقت عينيها فنزل دمع ساخن من أجل يلوذ اختلط بالدم على الجلدة فأخرج لونًا هجينًا كأنه أحسن من لون الدم وحده.

مسحت دمعها وهي تتفحص اللون، ألا يمكن أن يكون هذا اللون الرقيق إلا من دم ودمع؟! تنهدت، ارتعشت شفتاها إشفاقًا على الميت وهي تسأل نفسها عن مصيره.

أهناك شيء بانتظاره أم إنه أصبح لا شيء للأبد؟ وما قيمة الحياة إن كانت تنقضي مفضية إلى فناء لا هروب منه؟

بالخارج كان نور الشمس ينتشر مضيئًا إرم، شعرت بالبرد فخرجت إلى شرفتها تلتمس دفء الشمس، طالعتها القصور المجاورة ومن خلفها السور العتيق بعيدًا ومن خلفه المضارب.

رغم ما عرف به من مجون ولهو، كان يلوذ دائمًا حاميًا لها، تذكر فزعته من أجلها في كل مرة احتاجت إليه وهما صغيران يلهوان مع أطفال الأحياء الأخرى، بل إنها تذكر حين كان أبوها يعلمه وهو صغير ويقول له: «إرم هي خديج»، فيردد الطفل من ورائه. قالت وهي تنتحب:

- *«كل ميت منفصل عنا للأبد، ليتك تخبرني بما تراه الآن يا يلوذ، وبما رآه رمل»*.

وفي بهو القصر كانت جثته، ملفوفة بالكتان الذي تشرب دمه، فلُفت بكتان آخر سرعان ما نبتت فيه بقع الدم من جديد، حتى أمر عبد الأعلم أن تلف بجلد ثور، ثم ألبسها عباءة سوداء له.

بالأعلى ببرج القصر حيث الغرفة الأكبر التي تعلوها قبة القصر المذهبة، شد عبد الأعلم جسده وإساف تضع عليه قميصه وتحكم إغلاقه ثم تأتي بعباءة جديدة من وبر وتضعها على كتفه برفق بينما يرقبها ملاحظًا ارتعاش يدها، ووجهها الشاحب. سألها:

- *«ما بك؟»*.

- *«ليس بي شيء»*.

قالت دون أن ترفع عينيها إليه:

- *«أنت تكذبين»*.

قال بهدوء، ورفعت مهد رأسها متابعة إياهما من طرف الغرفة.

- *«إنما هو الفقد، موت ابن أخيك أحزنني»*.

قالت إساف.

همهم عبد الأعلم بكلام غير مسموع ثم سألها وهو يبعد يدها برفق:

- «كيف حال عمك؟».

- «عمي عابرا مريض».

- «منذ متى؟».

- «خمسة أيام».

أجابته. ابتلع ماء حلقه، حانت منه التفاتة إلى مهد فانشغلت عنه بزينتها.

- «ما به؟».

- «محموم».

أجابت بصوت خافت.

- *«ارجعي إليه بطعام من مطبخنا، واسألي خديجًا أن تعطيك زهرًا وعشبًا تخلطينه بالماء الساخن فيعينه على الشفاء».*

هزت رأسها فدفع كتفها مترفقًا وهو يقول:

- *«افعلي ذلك الآن، وارجعي إلى أهلك».*

غادرت إساف ترقبها مهد التي اقتربت من عبد الأعلم، وضعت يدها على عباءته تفردها على جسده وهي تقول:

- *«سيفسدهن تدليلك».*

- *«من؟».*

سأل.

- *«كل خدمك».*

أجابها بصدق:

- *«يا مهد، كلما رأيت فتاة تذكرت خديجًا فرقَّ قلبي».*

ابتسمت له، لا يزال وجهها جميلًا رغم طول حزنها على فقد رمل، منها ورثت خديج رسم العينين والجبهة الناعمة وصفاء البشرة.

ورغم أنها تبتسم الآن، وتعينه في كل أمور يومه، وتحفظ على أكبر قصور إرم نظامه، يعلم أنها تحترق داخلها.

هذه امرأة فقدت اثني عشر رضيعًا بعد خديج، كلهم ولد ميتًا، حتى جاء رمل كمعجزة فلم يرها منذ مولده إلا حاملة إياه، ترضعه، أو تطوف به في القصر وحدائقه. تؤلف الأغاني في حبه، وحين كبر كان كل وقتها لعب معه، يسحبها خلفه بكل مكان يذهب إليه وتطيع ضاحكة.

ثم مات.

أمه اليوم ميتة وهي حية، يشعر بها ليلًا تتقلب جواره عاجزة عن النوم، تبكي بلا صوت، وتهمس له منادية كأنها تحدثه.

لمس وجنتها، وهمس:

- *«أنت جميلة»*.

رفعت عينيها إليه فرأت الصدق في وجهه، أدهشها ذلك، ولم يكن قد قال لها مثل تلك الكلمة منذ أعوام.

أمسك يدها، قبلها ومسح على خدها وهو يكرر:

- *«أنت جميلة»*.

هي كذلك، وقلبه الآن يوجعه لأنه يعلم أنه قد ظلمها ظلمًا طويلًا، لم يكن لها وحدها أبدًا حتى هذه الساعة، في قلبه كان حبٌ قديم يمنعه من أن يخلص، وكلما رأى منها فعلًا جميلًا تذكر قصته القديمة التي لا يعلم عنها أحد شيئًا إلا هو وعابر وامرأة مدفونة في قبر لا يعرف موضعه.

لكنه اليوم، وللمرة الأولى، وبعد أن خط الشيب لحيته ومفارق شعره، يشعر بقلبه يخفق لها راضيًا، وكأن موت يلوذ واقتراب المواجهة مع شداد جعلاه يستفيق من تلك الذكرى البعيدة.

- *«سأقاتل حي شديد اليوم»*.

- *«ولذلك أتزين»*.

قالت وعيناها تلمعان انفعالًا.

- *«أردتني أن أفعل ذلك؟»*.

هزت رأسها وهي تجيب:

- *«نعم، فعلت منذ موت رمل. لا أظن قاتله إلا منهم، واليوم أيقنت أنهم من قتل يلوذ أيضًا طمعًا في ملك إرم»*.

لفت قماشة من حرير مطرزة بنقوش مربعة حول عنقه وتابعت:

- *لم يعد في إرم مكان للحيين؛ آل مخلص وآل شديد، وكأنهما جماعتا أسود تتقاتلان على شح زاد من بهيمة، فإما نحن وإما هم، ووالله قد قيل لي أن شداذا قال في جمع لشديد وعوص أنه ناكح خديجًا من بعدك ومالك إرم.*

صمت برهة ثم أردف:

- *«قد استقام المنسم يا مهد، وإني قاتله الليلة».*

وتناول سوارًا من ذهب محفورة فيه صور الطير متتابعة، ثم سحب عصاه يضعها في غمدها بجانب ثوبه وهو يقول:

- *«وإني لأرجو أن تحكم خديجُ إرمَ يومًا».*

فبهتت مهد من قوله، وللحظة بدت لها الفكرة ساحرة!

وخرجت جنازة يلوذ.

ابتدأت بحيه، فخرج كل آل مخلص حتى أطفالهم، في كامل زينتهم، مرتدين الثياب المطرزة والعمائم والذهب، سرجوا الخيل بالجلد ونظموه في صفوف متتابعة يتقدمهم عبد الأعلم، عصاه معلقة بخصره وعلى رأسه عمامة سوداء، وإلى جواره ناصر ورجاله المقربون، ومن خلفهم النعش منحوتًا بتصاوير حيوان وشجر يحمله الرجال.

مرت الجنازة بعمود العقيق الشمالي، قاعدته العملاقة بطول رجل، مدبب كسهم موجه للسحب، دافئ دائمًا بضوء الشمس الذي يتشربه طوال النهار، ومن عنده اتخذوا مسار النهر إلى معبد بغاء مارين بالقصور والنخيل، والتفت عبد الأعلم خلفه فرأى قومه في حشد عظيم، كلهم قد خرج بسلاحه كما أمرهم.

هل يعلمون أنهم قاتلو آل شديد اليوم؟ ربما، كل آل مخلص يبغضون شديدًا، وقد كان الدم قانونًا بين أبناء عادٍ عند الضرورة من أجل أن تبقى القبيلة كلها. ألم يُقتل عوص الكبير نفسه، وكان من عظماء إرم، من قبل عقابًا له على مخالفة شرع عاد حين تزوج بامرأة من البدو؟

من بين أوراق الشجر المتداخلة لاحت بغاء في السماء تعلو معبدها، وانعكس النور عن الأرضية الحمراء للساحة كأنه أشعة دم، والساحة امتلأت بالرجال والنساء من آل الضحاك، تتقدمهم كاهنة بغاء وبناتها.

صلت على الميت، بينما الورد يُلقى من الشرفة على الحشد مشيعًا رائحة طيبة.

وعند معبد صمود وصداء بالجنوب كان آل غانم، راكبين دوابهم، يترفعون عن المسير راجلين حتى داخل إرم، فاحت منهم رائحة بهيمية عرفوا بها، لكن حشدهم الكبير ودوابهم كللت الجنازة بالمهابة.

وعند بوابة إرم الوسطى كان آل عوص بالانتظار، جميعًا خرجوا وقد أدهش ذلك عبد الأعلم كونهم حلفاء آل شديد لكنه اطمأن به.

حياهم مكبرًا فعلهم وهو يراهم ينضمون إلى الجنازة بهدوء بينما تفتح مصارع البوابة الخشبية العملاقة.

وخرجت عاد من إرم فانفتحت أمامهم الدنيا.

أودية عشبية وأخرى جافة، سلاسل الجبال، سحائب المطر وأصوات الطير البرية وروائح الأشجار المتفرقة.

عن يمينهم نحو الجنوب، مضارب آل عابر وقد وقف أهلها يرقبون الجنازة بتوقير لم يسلم من فلتات الأطفال وصياحهم، فضرب هؤلاء وصفعوا من أجل فرض الهدوء، والتفت عبد الأعلم باتجاه الخيام، بحث بعينيه عنها، الخيمة الحمراء، أحزنه أن لونها قد حال حتى أضحى أقرب إلى لون برتقالي مريض، كأن الخيمة جسده الذي يبلى بينما يتقدم في العمر، وقد رقعت بأكثر من موضع.

ذاب في بحر ذكرياته بها وانتفض حين مست مهد كتفه، التفت إليها، رأى في عينيها راحة عجيبة افتقدها منذ مات ابنهما ففهم بسرعة أن قتال آل شديد وانتقامه القريب منهم هو السبب.

ودخلت الجنازة الشق، ساحقة عظام الضحايا، غير عابئة بالمطر والرائحة العطنة، وحين خرجت إلى حيث القبور كانت الشمس قد توسطت السماء باعثة دفئًا لم تضعفه الريح.

أمر عبد الأعلم بالمسير إلى حيث قبر رمل حيث سيوضع يلوذ معه، وهو القبر نفسه الذي أوصى أن يدفن فيه حين يحين أجله، فتقدم ناصر الجنازة دالًا على موضعه بين الصخور العظيمة المتجاورة، وسمعت صلوات وتحيات من الأحياء لموتاهم وهم يمرون جوار قبورهم.

لمحت خديج أباها وهو يقترب من أمها ممسكًا بيدها، رأتها ترفع رأسها في عزة تداري بها ألمها فأشفقت عليها، خفضت رأسها فرأت جعبها الذي تحمله وفيه الجلدتان، رقعة رمل، وجلدتها التي تنقش عليها، فاستأنست بوجودهما معها.

كل هذا الحشد، كل تلك الملابس، هذه الزينة وتلك الأسلحة، الرجال القوية والنساء الساحرة كأنهم خلق متفرد أرادت بغاء أن تجعله فوق كل خلق آخر، وأورثته أعظم لغة، فجعلوا منها الأغاني المبهرة، كل هذا يحبه عبد الأعلم، وسيقاتل من أجله دائمًا من أجل إبقاء نظام حياة عاد، ومن أجل إبقاء آل مخلص على قمة ذاك النظام.

تقدمت الجنازة حتى التفت حول القبر، وضع النعش على الأرض ببطء، وتجمع رهط شباب أشداء حول الصخرة ليحملوها فاتحين القبر.

واشتدت الريح.

صفرت بين الأحجار بصوت ضاغط منذر كأنها سيل، أو إنذار من مارد.

ومن بعيد حيث جبل الظلمة موطن الجن تحركت سحابة غبار حارقة، سوداء تلمس الأرض وتصعد للسماء عابرة فوق ركام البراكين المندثرة وقبور صبيحة والعماليق حتى ضربت الجنازة بصوت جهوري قبيح ارتاع الناس منه، كما ارتاعوا من رائحتها الخبيثة، وسخونة ريحها.

وفي لحظة كانت السحابة قد لفت كل رجل وامرأة، فصلت الحشد عن نفسه، وعلا صوت عويل نساء خائفة ونحيب أطفال بينما دار عبد الأعلم حول نفسه ينظر الحدث بدهشة وصاح غاضبًا وهو يرى رجالًا تتعثر في النعش حتى انكشف عنه غطاءه فبانت الجثة ملفوفة بعباءته، ومن بعيد سمع صوت زوجته تناديه فلم يستطع أن يميز موضعها.

«الجن! الجن!» صاح صائح، فانتشرت الكلمة على الألسن وتعالى الصراخ وعم الذعر وتدافع الناس فسقط خلق كثير وداس بعضهم بعضًا وتطايرت أحجبة النساء وعمائم الرجال، وتكشفت الثياب عن صدور عارية ونهاد ممتلئة فعلَت ضحكات ماجنة، غير بشرية، من اللا مكان، وحمل الناس عيالهم خوفًا من أن يسحقوا تحت الأرجل، وانتشر قول فحش وسباب دنيء من أفواه مجهولة وكأنها الريح، وصاح عبد الأعلم بناصر أن أبعد الجثة عن قبر رمل، فأسرع ناصر ينفذ أمره، ثم وردت صيحة مرتعبة وكأنها نحيب ألف امرأة تقول:

«ماتت مهد!»، فجرى عبد الأعلم إلى مصدر الصوت، وظل يبحث حتى وجد جمع نسوة ملتاعة، فرقهم بجزع وهو ينظر للأسفل فرأى زوجه وقد استلقت على الأرض بلا حراك وعيناها تنظران للأعلى وقد غادرتهما الحياة.

***

دفنت الجثامين في أضرحة قديمة. يلوذ بقبر أبيه، ومهد بقبر أختها التي سبقتها بعامين،

وكان قبر أختها ذاك أقرب الأضرحة إلى قبر ابنها رمل.

ورجع الحشد في ظلمة خلقها السحاب. يتساقط عليهم مطره باردًا فيزيد بؤس مظهرهم، وكانت الريح لما اشتدت ساعة الدفن قد حملت الحصى فتطاير ضاربًا أجساد القوم، وبهائمهم، بينما انتشرت أيدٍ خفية عبثت في الجميع، فشدت مآزر الرجال، وقمصانهم، وكسوة النسوة وأغطيتهن، حتى تعرى كثيرون بالكامل.

كان السلاح قد تبعثر، وتطايرت العمائم، وبمعجزة استطاع بعض رجال أشداء من آل مخلص يقودهم ناصر أن يحملوا الصخر ويدفنوا الجثث رغم كل شيء، فكانت مهد أول امرأة تدفن من عادٍ دون أن تمر ببغاء، أو تباركها الكاهنة.

ورأت خديج ناصرًا كما لم تره من قبل، ناصرًا ابن نعامة، أثبت شجاعة لم ترها في رجل من عاد، رأته وهو يدفن أمها دون أن يتوقف مثل الباقين خوفًا مما يحدث حولهم من عبث الجن، أو تمزق الثياب، ثم يدفن ابن عمها بعدها، فيتبعه في ذلك رجال.

يمشي الآن آفلًا مع القوم وقد تقطع أكثر ثوبه، وهاج شعره البني الذي تتخلله خصلات ذهبية عرفت بها أمه من قبله، قد جرحت جبهته، ونزف دم من مفرق شعره راسمًا خطًا جفَّ على امتداد وجهه، وعلى ذراعه ظهر وشم لوجه امرأة، لم يره أحد من قبل، رأته خديج، فكرت أنه قد يكون رسمًا لأمه، فآلمها قلبها من أجله رغم ما فيها من وجع. كان ناصر يسمى يتيم آل مخلص، فُقد أبواه في الصحراء ولم يعثر عليهما فتكفله أبوها لكنه أبقاه بدار أبويه فعاش وحيدًا منذ كان في السابعة. لم يتحدث عن أهله أبدًا حتى ظنت أنه نسيهم لكن الوشم الذي تراه الآن ينبئ بغير ذلك.

إلى جواره يمشي عبد الأعلم، لا يزال محتفظًا بعباءته، وعمامته وفي غمده عصاه، لكن ثوبه وجسده قد تلوثا بالطين، لم يذرف دمعة، متماسك كأن لا شيء حدث لكن رأسه لم يُرفع عن الأرض مرة واحدة منذ وضع مهد تحت الصخر.

عند مضارب آل عابر أمر الجمع بالوقوف، وحده مشى إلى الخيمة الحمراء مدفوعًا بشجاعة الفقد، كانت صداقته بعابر معروفة لعاد لكنها المرة الأولى التي يدخل فيها عظيمٌ من عاد إلى المضارب علانية.

مشى غير عابئ بالعابرين الذين وقفوا احترامًا له، أو خوفًا من بطشه، ابتل نعله بالطين، وصلته رائحة نتنة، خليط من روث البهائم وعرق البشر والطعام المطبوخ، لمح الأطفال العارية، الناحلة والضعيفة، غض بصره عنهم محاولًا دفع ألم أحدثه مرآهم في قلبه، ووقف أمام الخيمة الحمراء.

بعيني خياله رأى الخيمة بالعصر القديم، كانت مقامة بمكان آخر غير بعيد عن توبار، وفيها كانت أجمل امرأة بالأرض؛ سلمى، أخت عابر.

يذكر الأيام الأولى، قبل أن يقترب منها، حين كان يراها تقف هنا بالمضارب، تنظر إليه من بعيد وهو يغادر من الباب الشمالي في رحلة صيد أو سرية قتال، لم تكن تطيل النظر، لكن عينيها كانتا تقولان أشياء كثيرة. سرعان ما كانت تنصرف عنه وكأنها خيال عابر فلا يحصل على نظرة أخرى لها مهما حاول بذلك اليوم.

وحتى بعد زواجهما السري بمعرفة أخيها، حين أقام لها الخيمة الحمراء بسفح توبار، وكان يغيب عنها لأسابيع، كانت تنظر إليه من بعيد، تبتسم له، ثم تختفي.. وبهذه الطريقة تأتيه بأحلامه حتى اليوم، تنظر إليه بلا كلمات، ولا أفعال، فقط تلك النظرة الساحرة، العالمة بدواخله، المسامحة إياه على عيوبه، وكأنها أم كاملة.

نادى من خارج الخيمة:

- *«يا أهل الدار، هذا أنا عبد الأعلم، هل أدخل؟»*.

تلفت فوجد كل آل عابر ترقبه، ومن خلفهم عاد.

خرجت سكينة زوجة عابر من الخيمة، رفع عينيه إليها، بدت في عمر زوجته مهد، ربما أصغر، لها وجه نحيل أسمر لا يخلو من صرامة، وتقاسيم وجه رشيقة، وجسد سليم، خفضت رأسها له باحترام وقالت: «عابر ينتظرك»، هز رأسه وهو يرفع قماش الخيمة فقالت بسرعة: «لا تطل عليه، فهو ضعيف اليوم»، رمقها لحظة ثم رفع قماش الخيمة ودخل.

احتاج لحظات حتى اعتادت عيناه الظلمة بالداخل، استطاع أن يقف مفرود الظهر لأن الخيمة كانت عملاقة مقارنة بخيام عابر، يعرف ذلك جيدًا فهو من صنعها، لكنها الآن بدت في حالة مزرية، جلدها تفسخ في مواضع كثيرة، وتغير لونها بعد أن تهيج وبرها بفعل السنين وأدخنة نار التدفئة.

في طرفها كان عابر، متدثرًا في صوف خشن، نائمًا على جنبه ينظر مباشرة إليه.

اقترب منه ببطء، تسارعت أنفاسه وهو يتفحصه، عمر واحد، لكن ما أشد ما شاخ عابر، حفرت وجهه التجاعيد، غطّى عينيه سائل شفاف كدمع مستمر، شاب كل شعر رأسه الذي ضرب الصلع أوسطه، ولحيته الخفيفة بدت ضعيفة.

جلس عنده، مد يده يلمس جبهته فوجدها ساخنة لا تزال، جز على أسنانه وهو يتنهد، وخفض رأسه.

أغمض عابر عينيه لحظات ثم فتحهما متعبًا، وقال بصوت ضعيف:

- *«ظننت أني لن أهلك حتى أراك».*

- *«ستموت؟».*

سأله عبد الأعلم.

- *«أظن ذلك».*

- *«ما الخير في العمر بعدك؟».*

ابتسم عابر وهمس:

- *«عشرون عامًا يا صاحبي لم أرك فيهم إلا مغادرًا إرم أو داخلًا إليها، ظننت أني نسيت صوتك لكنك الآن تتكلم فأشعر وكأني كنت معك بالأمس فقط».*

- *«عشرون عامًا منذ ماتت سلمى».*

قال عبد الأعلم، فهز عابر رأسه، وأغلق عينيه فسمع عبد الأعلم يقول له:

- *«أطلعني على موضع قبرها قبل أن تهلك».*

سعل عابر بألم وهو يضغط صدره، بحث عبد الأعلم حوله حتى وجد طاسة ماء، أمسكها وقربها إلى فم صاحبه يسقيه، عب منها قليلًا حتى هدأ سعاله، مسح عن شفاهه بقايا الماء، وكانت قطرات لا تزال تتساقط من لحيته لما قال:

- *«دعها يا عبد الأعلم، هي في دنيا غير هذه الآن، وسرعان ما ألحق بها، وإنك تعلم أنها ماتت وهي عليك غاضبة».*

- *«كانت زوجتي يا عابر، وما يدريك أنها لم تصفح قبل أن تموت؟! كان هذا خُلقها».*

- *«وعدتها وأخلفت».*

اعوجت شفتا عبد الأعلم من حزن وقال:

- *«لم أخلف وعدي لها ولك، قلت إنها حين تنجب سأعلن لكل عاد أني زوجها، وأن ذرية جديدة جُعلت بين عابر وعاد. لم تلد الطفل لترى إن كنت قد أخلفت وعدي، أم حافظت عليه».*

- *«لكنها ماتت وحدها وهي تحمله».*

أجابه عابر وقد التمعت عيناه بصحوة مفاجئة.

ذرف عبد الأعلم دمعًا فأسرع يمسحه بثوبه، وهمس:

- *«تشهد بغاء يا عابر، أني لم أرد إلا أن أكون معها، ولم أنتظر ولادتها إلا كي أكسر حرمة ذاك الزواج بأعين قومي وقومك حين يرون ذريتي، لكن لشد ما تلعب الدنيا بأحلام الرجال وخططهم»*.

وخفض رأسه، اعوجت لحيته العملاقة على صدره، وغرق في بكاء، للحظة بين دموعه شعر كأنه اشتم رائحتها وكان قد نسيها.

ومد عابر يدًا مرتعشة لمس بها يد صاحبه.

انفتحت عينا عبد الأعلم فرَقًا وهو يشعر برجفتها، رفع عينيه إلى صاحبه وهو يتذكر ما قالته له سلمى يومًا عن الرعشة في يد أبيها في مرض موته، وفي يد جدها من قبله.

همس بصوت مرتعش:

- *«ستموت حقًا!»*.

«نعم»، قال عابر وهو يمسح لعابًا سال على شفته:

- *«فارأف بقومي من بعدي»*.

أجابه صادقًا:

- *«أفعل»*.

وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال، وهو يمسح كل أثر لبكائه:

- *«أشد من حزْم زواج عاد من عابر هم آل شديد، واليوم أقاتلهم»*.

- *«لطالما انتظرت يومًا يقتلون فيه، لكني ظننت أن إيل هو مهلكهم»*.

ربت عبد الأعلم على كتف صاحبه، وهمس:

- *«ابق حيًا حتى تشهد مصارعهم»*.

***

كسلالة خيل نادرة، تطورت قبيلة أولاد عاد عبر الزمن. ليست إرم هي كل القبيلة، إنما فني الكثير من عاد مع حوادث الدهر، وطرد بعضهم خارج إرم فكانت قبائل متشرذمة تتنقل في

الصحاري وتدخل المدن البعيدة، وتصارعت العوائل من قبل فبادت دور وأحياء كاملة، واغتيل كبراء أحياء من أجل السلطة والثأر.

فكان ممن قُتل عوص حين تزوج امرأة بدوية، وحرقت جثتهما، وكان آل غانم من حي أقدم أبيد أكثره حين منع خيله من القتال مع شديد أيام العماليق، عدا غانم الذي أخرج خيله معه فأبقى على حياته وأصبح عظيم حيه، بل إنه يُحكى أن عادًا الأول نفسه قد قتل ابنه الأوسط حين طمع في ملك أخيه الأكبر وأفنى ذريته.

وقد حرمت عادُ النكاح من غير القبيلة، وقتل فيه رجال، ولم يحدث أن أنجب رجل من عاد من امرأة خارجها، كل من فعلها عقم الذرية حتى قيل إن بغاء تلعن بمنع الذرية عن كل من تزوج من غير عاد، وكانت إرادة عبد الأعلم وعابر وسلمى أن يظهروا بهتان ذلك القول بعد أن تلد فيباح ذلك الزواج وتدخل عابر في عاد.

الآن يقترب عبد الأعلم من السور وهو يكاد يشتم رائحة الدم الذي سيسفك، كلمه رجال من آل غانم والضحاك في التريث لكنه أبى، وأمر فأطاعوا، بكت نسوة من الأحياء من أجل أن يتأخر رأيه فتجاهلهن.

والحق أن عادًا تبغض شديدًا، لأن شديدًا عندهم نزقٌ إلى سفك الدم، ذبحوا كثيرًا من أولاد عابر بلا وجه حق، وتجبروا استنادًا على قوة حيهم، وكثرة سلاحهم، وأنهم أكثر عاد منعة، وتشاجر أبناؤهم مع باقي الأحياء بالسلاح مرات، واعتبروا أنهم خير عاد.

اهتزت العصا على ورك عبد الأعلم، خافها، لا يعلم عنها الكثير، هي إرث عاد الأول، وهي مشؤومة حقًا، خبر ذلك بنفسه حين ضربت مرةً حصانه الأثير «غبرة» فمات من فوره بتلك الليلة وهو ينزف من فمه. لا تبيت معه في غرفة واحدة لأنها جلابة كوابيس، وعما قليل سيرفعها في وجه حي شديد.

أمر أن يدخلوا من الباب الشمالي لإرم ليمروا على منازل آل مخلص في مسيرهم إلى شديد. التمعت أعين الرجال بالإثارة التي يصنعها اقتراب سفح الدم، ممزوجة بالألم لما حدث في المقابر، كعسل مخلوط بالعلقم.

عبروا بمحاذاة الجبل حتى ظهرت البوابة الشمالية، فصاح عبد الأعلم بصوت ثابت: «لتبقَ النسوة والأطفال بدور آل مخلص، وليتبعني الرجال، ومن أراد التسلح فليأخذ حاجته من حينا».

حام فوق البوابة نسر عظيم تابعه عبد الأعلم بلا تعبير، واقتربت خديج منه، وهي تجر ذات ذهب خلفها، ربتت على يده، وقبلت كتفه فهمس لها:

«هل تعلمين لم سأفني آل شديد حقًا؟»، سكتت، التفت إليها، تأمل وجهها الرقيق، ذلك الذي جمع فيه كل سمة حسن لذرية عاد، وكأنها خلق أعظم منهم كلهم.

- *«سأفنيهم يا بنية كي لا يصلوا إليك من بعدي».*

اتسعت عيناها تأثرا، همست:

- *«تقتل حيا من أجلي؟»*.

تابع وهو ينظر مباشرة إلى عينيها فرأت في عينيه بوادر دمع:

- *«لا أخجل أن أفني كل عاد من أجل ابنتي. إرم لك يا خديج، يومًا ما ستتملكينها، وستكونين أعظم مني في حكمها»*.

اقتربت منه، قبلت جبينه، وتلاقت أعينهما من جديد فكأنها تنظر إلى طفل، قالت بصدق وهي تفكر في قحطان:

- *«أستطيع أن أغادر إرم يا أبي»*.

أجاب قاطعًا، وعيناه تلتفتان إلى البوابة ودمه يغلي مطالبًا بالقتال:

- *«إرم هي أنت»*.

ومن ورائهم تقدم ناصر على فرس أبيض لبني غانم وهبوه إياه من مراعي آل عابر بعدما كان في المقابر، متسلحًا بفأس نحاسية وبقايا الدم الجاف لا تزال على وجهه، فقال:

- *«اقتربنا من البوابة فأمرنا.. نحقق مع آل شديد أم نقاتلهم!»*.

أجابه عبد الأعلم:

- *«بل الذبح الذبح»*.

فانطلق ناصر إلى البوابة صائحًا:

- *«سأعد درعك»*.

وتباعدت سحب عن الشمس فأشرقت على العمود الشمالي الذي أضاء بنورها فظهر في وسطه سواد دقيق كأنه حبل ملفوف، نظر إليه عبد الأعلم في غير فهم، والحشد يجتمع عند البوابة والرجال يدفعونها فاتحين، وشعر عبد الأعلم بوخزة في صدره بينما يراها تنفتح فضغط على أسنانه متحملًا.

وصرخت امرأة! التفت الناس إليها، رأوها تشير إلى العمود فرأوه يتزحزح عن مكانه ساقطا باتجاههم يشده حبل غليظ! ثم انفصل العمود عن قاعدته بدوي هائل وصفير ريح مرعب، وشظايا العقيق الأحمر تنفجر منه، حتى ارتطم بالسور فحطمه وتابع سقوطه ساحقًا الناس تحته وكأنه جبل منهدم!

صرخات متفرّقة، ذعر شامل، الناس ترتطم ببعضها، تتساقط، أطفال تُدعس، وينفتح الباب عن جيش عظيم من آل شديد، يتقدمهم شداد، آل عوص يشهرون سلاحهم وهم ينتشرون وسط آل مخلص ذابحين وقد ظهرت أركان خيانتهم، وشداد يرفع فأسه عاليًا فيلمح النسر من فوقه ويستبشر به وهو ينطلق ورجاله من خلفه نحو الحشد.

ارتطم حجر أسود برأس عبد الأعلم فشجه واحمرت الرؤية في عينيه بدمه، مسحه بسرعة وهو يرفع عصاه على امتداد ذراعيه صارخًا بقومه:

- *«قاتلوا»*.

لكن آل شديد وعوص انتشروا كالجراد في الجمع الجنائزي المتعب، قاطعين الرقاب، والأذرع، والسوق، مهشمي الرؤوس، وباقري البطون، يبحثون عن آل مخلص خاصة ويتركون غيرهم فتراجعت الأحياء عن القتال بخوف طالبين السلامة إلا آل الضحاك، وارتفعت أصوات تحطم الجماجم واحتراق اللحم، وصرخات الألم، وأنات الاحتضار والقيء، واقترب شاب من عبد الأعلم هاويًا عليه بفأسه فتراجع عبد الأعلم بجذعه ثم أمسك به من ظهره وضرب بركبته أنفه حتى سمع صوت تحطمه، ثم سلبه فأسه فرفعها سريعًا وهوى بها على رأس الشاب وهو يصرخ:

- *«باسم بغاء!»*.

فانفجر الرأس وتبعثر مخه حتى لوث وجه عبد الأعلم فانتابته شهوة قتل عظيمة وركض بين الرجال يضرب بفأسه كل رأس لشديد وعوص، ومن بعيد لمح «مسبحًا» سيد عوص وظهره له، فانطلق نحوه ورفع فأسه ثم غرزها في أوسط ظهره فصرخ مسبح مذعورًا وسقط جسده كجوال قمح، لكن ابنه رآه! فجرى نحو عبد الأعلم لينتقم، وضربه في بطنه بعصا غليظة بينما كان يحاول أن يخلع فأسه من لحم مسبح.

ترك الفأس من شدة الألم، تقيأ وهو يتراجع للخلف فتلوثت عباءته، ثم دفعه ظهر جمل ارتطم به فسقط على وجهه في الأرض الطينية فوجد طينها مختلطًا بدم الرجال!

رفع رأسه عنها يبحث عن خديج فرآها وناصر يعينها على امتطاء حصانه الأبيض، وإلى جوارها كانت ذات ذهب ترتجف على الأرض وقد نحرت رقبتها. كانت خديج متماسكة وعلى

وجهها أمارات غضب، تبحث بعينيها عنه لكنه خبأ وجهه في الطين كي لا تراه على هذه الحال، وفجأة وجد حبلًا خشنًا يلتف على رقبته، وسُحب للخلف على ظهره مسحولًا فحاول أن يتشبث بأي شيء، انقلب على بطنه يحاول إبصار الفاعل، اندفع الحصى، والطين في وجهه، بصعوبة استطاع أن يرى الحبل معلقًا إلى ظهر جمل أسود استقر فوقه شداد، رفع عصاه بينما يتفسخ جلده بحصى الأرض وصاح:

- *«يا بغاء! العني هذا ومن معه»*.

انتفض حين سمع ضحكة عابثة من عصاه! أغمض عينيه دامعًا فشعر بها تسحب من يده.

وسُحل عبد الأعلم أمام الجميع، بطول السور العتيق، وقُتل وذُبح آل مخلص طوال الظهيرة، وحتى غابت الشمس وانسدل الظلام فوارى جثثهم كأنه يسترهم.

أمر شداد ألا يدفن أحد، فتركت جثثهم للمفترس من الحيوان والطير، واستمرت النسور تنهشها حتى في ساعات الفجر.

وعُلقت جثة عبد الأعلم على الباب الأوسط، متفسخة وبلا معالم إلا عباءته، فباتت إرم أشر ليلة عرفتها منذ وضع لبنتها الأولى الجد الأكبر.

وقيل إنه لم ينج رجل من آل مخلص ذلك اليوم، وهو قول زور لأن شدادًا بنى لهم سجنًا، حبس فيه من بقي منهم، كما فر بعضهم إلى الأودية البعيدة، والجبال مختبئًا.

وقبل الفجر بقليل، دخل حصان أبيض مضارب آل عابر، مستترًا بالظلمة، يعتليه ناصر ومن خلفه خديج. ضحك ضبع بعيدًا عند الجثث، بينما مضى ناصر متبعًا وصف خديج حتى وقف قريبًا من الخيمة الحمراء.

نادى قحطان، ولم يكن قد نام رغم عدم علمه بما جرى عند الباب الشمالي، لكن دخنة رملية وصيحات وحشية أرقته، وكان يعلم أن عبد الأعلم مُبيد شديد اليوم فظنها أصوات مصارعهم.

خرج من خيمة أبيه.

وكحلم، وجد أمامه خديجًا.

***

تلك الليلة، أمر عابر ابنه قحطان أن يترك الخيمة الحمراء، وينطلق ليقيم مع عمه سكون المتحنث في كهف أسفل توبار.

قال له أبوه يومًا ما أن الخيمة الحمراء حين خيطت أول مرة، نصبت أمام ذلك الكهف قبل أن تنقل إلى المضارب بعدها بعام.

رغم مرضه، خرج عابر وجسده يرتجف تاركًا الخيمة لزوجته سكينة وخديج، ثم جاء أخو عابر الأصغر، خالد، فحمل فرشة عابر إلى خيمته، وصرف أهله إلى خيمة أخرى.

كانت المسافة من المضارب إلى حيث سكون طويلة، قطعها قحطان في صقيع الفجر حتى وصل الكهف مع إشراقة الشمس، وهو يحمل كيس دقيق، قالت له أمه أن يصنع منها الحليمة ليأكل منها عمه.

كان سكون قد خالف آل عابر، وترك مضاربهم، وامتنع عن التكسب بالعمل، واعتزل وحده بكهف لا يمكن للناظر المار بتوبار أن يميزه إلا إذا دخل بين شق غائر في جوف الجبل ونظر إلى يمينه، حيث سيرى فتحة ضيقة لكن يمكن العبور منها تقود إلى براح واسع بالداخل.

دخلها قحطان حذرًا من أن يجرح بفعل الصخر الناتئ. جدران الكهف ملساء، تفوح منها رائحة ماء عذب معتقة، غير رطب، وحرارته أدفأ من الخارج، وكأن الجبل كائن حي، وهذا داخل جسده، وكانت قطرات ماء تتدفق من بعض مواضع من السقف، بللت شعر قحطان فمسحها وهو ينظر إلى عمه، محتبيًا على أرضية طينية بجوف الكهف كأنها من غير صخره، أسفله فرشة من جلد مرقط لما بدا أنه نمر، ينظر إليه بهدوء كأنه ينتظره.

قيل عنه أنه أجمل رجل أنجبته عابر، نحيل من دون عيب، متوسط القامة، له شعر أسود ثقيل تتخلله خصلات بنية داكنة، ناعم متعوج، ولحية خفيفة لم تنبت بمواضع عند جوانب الفم، وعيناه واسعتان، فيهما حزن أصيل لازمه منذ موت أمه.

«جميل كسكون»، هكذا كانت نساء عابر يقلن، كره الرجال مشيه في المضارب لتعلق نظر النسوة به، لكنهم هابوه لمكانة أخويه عابر وخالد، لكنه فجأة ترك المضارب متنقلًا إلى الكهف، وهناك اشتهر عنه تحنثه وتعبده لإيل.

- «عمي».

أجابه سكون بصوته الرقيق:

- *«تعال يا قحطان»*.

اقترب منه حتى جلس أمامه، كان سكون يبدو أصغر منه عمرًا رغم كبر سنه، وكان الأوسط بين عابر وخالد. خلع قحطان خفه، لمس الأرض فكانت باردة، ورطبة. شعر ببرد فحك يديه على فخذيه بينما سكون ينظر له مبتسمًا ثم يسأله:

- *«لمجيئك علاقة بالدم الذي يسيل خارج إرم!».*

- *«كيف عرفت؟!».*

- *«أرى الكثير من الأشياء من فوق هذا الجبل».*

هز قحطان رأسه قائلًا:

- *«نعم».*

- *«حدثني بالخبر».*

أخبره قحطان ما عرفه، فُنَت آل مخلص أو كادت، قُتل عبد الأعلم وصلب على بوابة إرم الوسطى، تملك شداد وقومه، وجلب رجل من آل مخلص خديجًا لخيمة عابر.

خفض سكون رأسه، رأى قحطان جذعه وكأنه يحركه للأمام والخلف في حركة دؤوبة جلبًا للدفء. سأله وهو ينظر إلى عينيه مباشرة:

- *«خديج هذه، هي من كانت معك يوم زرتما المقابر؟».*

بهت قحطان، شحب وجهه، وصمت تمامًا، فتابع سكون:

- *«ألم أخبرك أني أرى الكثير من الأشياء من فوق الجبل؟ هل تريد أن ترى بنفسك؟».*

هز رأسه موافقًا فتوقف سكون، ورأى قحطان أن جسده قد نحل عما يذكره. أشار إليه بيده أن يتبعه، ثم توقف لحظة وهو يسأله عما في كيسه:

- *«دقيق».*

- *«أحضره معك».*

ارتدى قحطان خفيه، وأسرع خلف عمه، وفوق الصخر تحرك الرجل مرتقيًا الجبل، يبرد الهواء كلما صعدا وتشتد الريح، لم يقو قحطان أن يرفع عينيه عن الصخر وهو يتسلقه، غرز أصابعه متشبثًا وهو يصعد ببطء، ولولا خجله من أن يبدو ضعيفًا لصرخ بعمه أن يتوقف ويساعده.

أما سكون فكان يتنقل فوق الصخر بيسر، نادرًا ما استخدم يده، وإنما يتنقل معتمدًا على قدميه. شعر قحطان أنه قد ابتعد كثيرًا عن سفح الجبل، أرد أن يلتفت لينظر لكنه خاف، ومن الأعلى وقف سكون يترقب وصوله.

لكن قحطان شعر أن أنفاسه قد ثقلت، انزلقت قدمه من على صخرة بارزة فكاد يهوي

لكنه تماسك، هز قدميه راميًا نعله الذي أهدته إياه خديج، متأسفًا لفقده، سيبحث عنه بعدها وقد يجده، مد ذراعه من جديد فوجد أنها ترتطم بيد سكون الذي قبض عليها وسحبه للأعلى قائلًا:

- *«قف وانظر!»*.

فاستقام قحطان وهو يلهث.

وانفتحت عيناه عن آخرهما!

رأى المضارب كلها!

السور العتيق..

مواضع الجثث والطير التي نشبت فيها.

إرم المهيبة..

بغاء أعلى معبدها برأسها الناظر للأسفل وظهرها المائل قليلًا.

قصور آل مخلص..

دار حول نفسه فرأى صخور أضرحة المقابر، وقبور صبيحة، وقبب البراكين الخامدة، وجبال الجن البعيدة.

للمرة الأولى رأى أنها جبال سوداء فقط، كبعض أجزاء توبار، لم تكن مظلمة، ولا مخيفة من هذا الموضع، لكنها منعزلة عن كل ما حولها.

- *«هكذا نرى من فوق الجبل»، قال سكون. «فكّر كيف يرى إيل من فوق السماء!»*.

دق قلب قحطان وهو يلتفت إلى عمه.. باردٌ هو قلبه فوق هذا الجبل، برد الخشية التي تدفع للبكاء. قال سكون:

«أعطني الدقيق».

فناوله قحطان الكيس الجلدي. أدخل سكون يده فيه وقبض قبضة وافية ثم صفر وهو يلقيها في الهواء.

رددت صافرته أصوات الطير من كل اتجاه، وفُتحت السماء بالحمائم، والزرزور، والسمان والعصافير الملونة! تراجع قحطان وهو ينظر بانبهار صائحًا: «آآآآ».

فالتفت إليه سكون مبتسمًا وقال:

- *«حين تعجز عن الكلام اذكر ربك»*.

سأل قحطان:

- *«كيف أذكره؟»*.

فأجابه سكونٌ سريعًا:

- *«قُل، سبحانه»*.

هز قحطان رأسه وهو يهمس بها.

- *«الآن أخبرني، من كانت تلك المرأة معك عند المقابر؟»*.

صاح سكون رافعًا صوته على ضجيج الطير.

- *«خديج، ابنة عبد الأعلم»*.

تأمله عمه لحظات قبل أن يسأل ثانية: «هي من أعطتك ما كنت تلبسه في قدمك!».

- *«اسمه خف، وقد صنعته بنفسها»*.

- *«إممم»*.

هكذا كان صباح قحطان الأول مع عمه، أما بالليل فأمر آخر، يجعل سكون ليله لإيل، فبينما راح قحطان يغط في نومه، كان سكون يتعبد بهمس غير مفهوم، همس طويلٌ متألم، يُنشد من أجله، يدعوه ويخبره بالأشياء التي تحدث بإرم وخارجها كأنه يحادثه.

وحدث أن فتح قحطان عينيه مرة فرآه يبكي.

ولم ينم إلا قبل الفجر بقليل.

وعند المضارب، أمر عابر فمُنع الناس من الاقتراب من الخيمة الحمراء.

وغلظ خالد في تأديب كل من سأل عن سبب المنع، وعن انتقال عابر إلى خيمة أخيه، حتى أنه منع ابنته إساف أن تسأل.

وبوركت إقامة خديج مع سكينة بتفاهم تام وود ومحبة، وقربتها سكينة إليها فكانت تحتضنها وهما نائمتان، وتقبل رأسها حين تسمع بكاءها على أبيها وأمها.

ودخلت على زوجها بخيمة أخيه تطمئن عليه فوجدته جالسًا يشرب الشاي الساخن. كان أفضل حالًا وكأنه يبرأ، جلست عنده وقالت:

- *«ما أحسن خديجًا!»*.

نظر إليها ولم يعقب، حتى قالت:

- *«ليتها تكون زوجًا لقحطان»*.

فأفلتت من عابر ضحكة، وقال وهو يرقب امرأته:

- *«إن بك لخبل!»*.

لكن الحديث عن زواج خديج من قحطان لم يدر في خيمة خالد وحدها، إنما استيقظ قحطان ذات صباح فوجد عمه جالسًا قريبًا من رأسه كأنه ينتظره أن يفيق، فاعتدل سريعًا وهو يقول كالمعتذر:

- *«قد أطلت النوم»*.

- *«لا، إنما استيقظت أنا باكرًا»*.

وأكمل:

- *«رأيتك في الحلم مع خديج»*.

تعجب قحطان، وتلاشى كل أثر للنوم عنه وسأله:

- *«ماذا رأيت في منامك؟»*.

- *«كان غريبًا، لكني أولته»*.

- *«بم أولته؟»*.

- *«أولته بأن لإيل إرادة أن تتزوجها»*.

ازدرد قحطان ماء حلقه وبدا له الكهف أبرد من أي يوم سابق، رفع عينيه إلى عمه، وبصوت متردد سأله:

- *«لماذا لم تتزوج أنت؟»*.

انكسرت عينا سكون وكأن نورهما انطفأ. أطرق صامتًا وهو يعبث في الصخر بيده، ثم قال:

- *«لم أترك الزواج فقط يا قحطان، إنما تركت هذه الدنيا»*.

- *«لم فعلت؟»*.

رفع عينيه إلى ابن أخيه، وقال باقتضاب:

- «دع عنك هذا الحديث الآن، وأخبرني بما تنوي أن تفعل مع خديج؟».

- «ستقتلنا عاده».

هز سكون رأسه، بدا واثقًا وهو يجيبه:

- «ليس هذا ما رأيته في حلمي».

وتذكر قحطان حلمه الأخير بخديج.

وكلم أباه في مراده داخل خيمة عمه خالد وفي حضوره.

نظر إليه عابر بغضب وقال ببطء:

- «كنت أظن أن فتى آل مخلص قد جاء بها إلينا لصحبتي لأبيها. الآن أعرف أنه إنما أحضرها لك».

سكت قحطان، وقال خالد مغتاظًا:

- «ألا ترى أنك تقتلنا بما تطلب؟ شداد باطش، وعاد كلها معه، فما أسهل أن يقتلوا كل آل عابر من أجل نكاحك إياها».

ثم أشار خارج خيمته وقال:

- «إن كنت إنما تطلب امرأة صالحة، فدونك ابنتي إساف».

بصوت محشرج قال قحطان وكان أصغر من عمه بسنوات معدودة كأنهما أخوان:

- «لن يخبر أحد من آل عابر شدادًا بأمرنا».

فقال خالد مغضبًا من تجاهل عرضه:

- «ائتمنت كل آل عابر على سرك؟!».

فامتقع وجه قحطان، وقال عابر منهيًا الجدل:

- «لن تتزوجها».

ثم التحف بعباءة من صوف وأولاهما ظهره قائلًا:

- «عد إلى كهف عمك، ولا تعرج على خيمة أهله».

وفي المساء جاءت سكينة إلى خيمة خالد فوجدته يجالس عابرًا، فلما رآها حياها وخرج، ولم تجلس عند زوجها، وقفت تنظر إليه، فرفع رأسه لها، عيناه متعبتان.

- *«ما بالك ترفض؟»*.

- *«وكيف أقبل؟»*.

- *«قلت لك إنها امرأة كاملة»*.

- *«ليس ذلك سبب رفضي»*.

- *«لأنها ليست من عابر؟»*.

- *«لأنها من عاد يا سكينة، ولو كان قد جاء بامرأة من البدو لقبلت»*.

- *«لم تعد منهم، ألم يفنَ آل مخلص؟ ألم يذبح أهلها؟ هي الآن عابرية مثلي»*.

- *«هي منهم، ولو علم شداد أنها هنا لعجل إلينا»*.

- *«أتجبن يا عابر؟ هل هرمت حقًا؟»*.

التمعت عينا الشيخ غضبًا، علا صدره بأنفاس منفعلة فقالت: «أريدها زوجة لابني».

قال منفعلًا:

- *«ما بك يا امرأة؟! منذ متى تكثرين جدالي؟!»*.

- *«منذ صاحبتها يا عابر. هذه امرأة اكتملت خلقًا، وحباها إيل جمالًا لم يجعله في امرأة قبلها، فزوجها لابنك وانتظر خير ذرية»*.

- *«وإن ماتت مثل أختي حين تزوج الحيّان يا سكينة؟»*.

سكتت المرأة، تسارعت أنفاسها مثله، فهمت للمرة الأولى أن ما يمنع عابرًا ليس الخوف من شداد فقط، لكن الذكرى. دمعت عيناها رغمًا عنها، كانت المرة الأولى التي يذكر فيها سلمى منذ ماتت.

سمعا صوت سكون يناديه من خارج الخيمة مستأذنًا في الدخول، ولم يكن قد نزل المضارب منذ تحنث، فقال عابر متعجبًا وسكينة تعدل حجابها فوق رأسها:

- *«سكون! لا تزال هذه الليلة تأتينا بكل عجيب»*.



تغيرت إرم..

أفشى شداد البناء فيها، فنحتت تماثيل عظيمة لبغاء وصمود وصداء بأحياء المدينة وميادينها وعلى أسطح القصور، لم يجاريها في العدد إلا تماثيل النسور التي أمر شداد أن تكون في كل إرم حتى غدا ذلك وسمه.

ولم يقف ولعه عند تماثيل النسور فقط، إنما ربى سبعًا منها داخل قصر عبد الأعلم الذي ورثه عنه بعد قتله، وجعل مجلسه بالبهو الكبير على عرش من خشب الأرو مطعم بالعاج والصدف، وتحت قدميه نسوره السبعة تتحرك بحرية كأبنائه. مثيرة الرعب في قلب كل داخل عليه، خاصة حين تبدأ في النهش من أطباق اللحم العملاقة التي وُزعت بالبهو مطلقة أصواتًا صاخبة أشبه بالزغاريد.

لم يكن قصر عبد الأعلم وحده ما أخذه شداد، إنما ضم كل حي آل مخلص إلى حي شديد، فأضحى كل شمال إرم لهم، شرقًا وغربًا، ثم اتخذ سجنًا محل عمود العقيق المحطم بعد أن عجزت كل عاد أن تعيد بناءه، فوضع به كثيرًا من آل الضحاك، وقلة ممن نجا من آل مخلص الذين أمر بمنع ذكر اسم قبيلتهم وناداهم بالصعاليك.

وكانت بضع نساء من آل مخلص وأطفالهن قد نجوا من مذبحة السور، فأمر بقتل الذكور من الأطفال، ووزع النساء على بيوت آل شديد وآل عوص، فأكرم أغلبهن من نسوة تلك الأحياء كرامة للعشرة القديمة.

ثم أمر شداد أن يذبح ثلاثة رجال من الصعاليك ومساجين آل الضحاك كل شهر، ويقطعوا لحمًا وعظامًا فتطعم منهم نسوره، فارتعدت عادٌ من أمره، وعدوه علامة جنون، لكنهم ارتضوا منه بإعمار إرم ما جعلهم يسكتون.

أوكل مهمة الذبح والتقطيع إلى شيخ جزاري آل غانم واسمه غصاب، فتقبلها مرغمًا.

بتلك الأيام الكئيبة، تزوج قحطان من خديج.

يوم عرسه، خرج عابر إلى الحشد وإلى جواره أخواه سكون وخالد، بكامل زينته، مرتديًا عباءة من وبر ورثها عن أبيه، قد حلق شعر رأسه، وهذّب لحيته. وقف أمام كل عابر وقال بصوت جهوري:

- *«إني قد سمعت همهمتكم إذ تسألون عن عروس ابني، فتقولون ليست من آل عابر، وتتقولون القصص.*

وإني أشهدكم الليلة أنكم تنظرون إلى عرس ابني قحطان، من ابنة سيد عاد، عبد الأعلم.

وإني قد كنت من قبل ناصحًا لكم في أمور معيشتكم، كما كان أبي، وجدي من قبل، لكنني اليوم آمر..

فكل من يخون آل عابر، جماعة أو أفرادًا، بقول أو فعل أو وشاية عند عاد أو غيرهم، أحل اليوم دمه، ودم آل بيته.

وكل آل عابر إخوة، تُلزم جيرتهم، وصلة رحمهم الدفع، والحماية، والجوار ولو كان ثمنه الدم».

فكانت تلك أول قوانين استنها آل عابر منذ عابر الأكبر، واستقبلتها القبيلة باحترام ممتزج بفخر وكأنهم قوم صالحون، أو لعلهم كانوا كذلك، رغم اقتصار نفعها بذلك اليوم على خديج وحدها.

وأولم عابر بشاة له، أضافت لها سكينة اثنتين من ملكها، وأتى سكون بالطير من السمان والحمام، وأخرج خالد دقيقًا وزبيبًا فضنعت منه الحلوى.

طعم كل آل عابر، جلوسًا على الأرض في ليلة باردة جعلها حساء الطير محتملة، وبعد الطعام رقص الرجال بالعصي، وزغردت النساء، حتى أن عابرًا نفسه أمسك بعصاه وطفق يدور بها.

يدور، فيرى الأرض حوله، انظر إلى ما حولك يا عابر، يكلم نفسه..

كل أعوامك تقريبًا انقضت..

والأرض هي الأرض، الخيمة هي الخيمة.

يدور فيرى الجبال الموحشة من حوله، والخيام الفقيرة لآله..

ويفكر، كل رجل من آل عابر تزوج امرأة منهم، فلم يحدث شيء إلا استمرار بؤسنا.

ألا يمكن أن يكون هذا الزواج بداية زوال هذا القحط؟

ثم خرج قحطان، وزوجه، فتباطأ الرقص، وتوقفت الزغاريد، وتسمر الناس.

أخذوا ببهاء العروسين، تساءل بعضهم:

- «*هل خلق إيل إنسًا أجمل من هذين؟!*».

بسطةٌ في الخلق لم يُعرف مثلها في عابر، أجسادهم متناسقة، وخلقتهما متشابهة، كأنهما من بطن واحد.

كانا مثل الجد الأول وزوجته اللذين نفاهما إيل إلى الأرض في قصص الجدات القديمة.

مشيا حتى خيمتهما السوداء التي صنعت من وبر جمل منفرد اللون فكانت آية في الغرابة.

وحين دخل خلف زوجته إلى الخيمة، كاد قحطان يسمع صوت دقات قلبه.

حاول أن يستجمع أنفاسه بألا ينظر إليها، فتلفت في الخيمة، رآها نظيفة، قد ابتلت أرضيتها بماء معطر، وفي طرفها حصيرة للنوم، وغطاء من صوف، وقربة ماء.

وعند الركن الآخر كانت رقعة رمل، تجاورها جلدة خديج.

وهمست خديج:

- «*كانا الشيء الوحيد الذي وضعته في جعبي حين خرجنا لدفن يلوذ*».

التفت إليها قحطان، كانت المرة الأولى التي يتحدثان فيها منذ لقائهما حين جاء بها ناصر.

اقترب منها، عيناها دامعتان، همس لها:

- «*ما يبكيك؟*».

خفضت رأسها، ومن بين دمعها قالت:

- «*أبي.. أبي معلق على باب إرم، وأنا على هذه الحال*».

«نعم»، همس مجيبًا، تأملها صامتًا وهو يفكر، ثم قال:

- «*أقسم ألا أمسّكِ حتى أنزله*».

رفعت عينيها إليه فهز رأسه مطمئنا، وتابع:

- «*انتظريني*».

وغادر وهو يلف عباءته حول جسده.

كان جُل القوم قد دخل خيامه اتقاء للبرد إلا جماعات صغيرة استأنست بالنار الموقدة بالخارج.

عبر قحطان المضارب بسرعة ملتحفًا بعباءة عرسه، تفوح منه رائحة الطيب وماء الورد، محاذرًا أن يُرى.

كان الخلاء بين المضارب والبوابة الوسطى مظلمًا في ليلة غير قمرية، تتردد بينه وبين

سفح الجبل نداءات ذئاب متقطعة، ونعيق بوم استقر فوق أغصان شجر السدر المتناثر بطول المسافة.

اقترب من البوابة الوسطى، ضربته ريح شديدة أسقطت عمامة رأسه، حملها ولفها من جديد، واستوحش وهو يرى السور أمامه مانعًا عنه رؤية ما وراءه، يقال هنا أن كل الخلاء خارج أسوار إرمٌ يصبح ملكًا للجن من مغيب الشمس وحتى تشرق باليوم الثاني، يترك عابر وعاد بقايا العظام لهم فيه ويستيقظون فلا يجدون منها شيئًا.

تعثر في حجر، سقط على وجهه، سب وهو يجلس على ركبتيه نافضًا التراب الرطب عن وجهه، وكفيه، وبعض ثوبه، ثم رفع رأسه فرآه..

مربوطًا من كلتا يديه، ذراعاه مشدودتان على امتدادهما، ورأسه للأسفل. بدا كصقر يهجم من الأعلى، عباءته الممزقة كانت أجنحته.

ظله ارتسم على الحائط..

مُكبرًا عشرين مرة أو يزيد، كأنه صرخة ألم مرسومة.

نبض قلب قحطان بجنون، شعر كأن وجنتيه تحترقان بالغضب، اعتصرت أنامله الرمل تحته.

توقف متأهبًا فوجد غير بعيد عنه قطيع كلاب تفترس عظمًا مهملًا، ربما هي آخر ما بقي من قتلى آل مخلص، بعد أن سبقهم الطير والضباع إلى الجثث، اتخذ خطواته وهو يحذر من أن يقترب منها، تشاءم من منظرها، ورغم أنه اتخذ مسارًا بعيدًا لكن واحدًا منها توقف عن عض العظم، ورفع رأسه إليه مزمجرًا. كان غريب المنظر، أسود، في طول فتى من آل عابر، ناحلًا مثل الذئاب الجبلية.

أبعد قحطان ناظره عنه مركزًا على جثة عبد الأعلم لكن الكلب مسح وجهه في الرمل، وتقدم نحو قحطان، خطواته تحولت في لحظة إلى انطلاقة محمومة، رآه قحطان والطين يتناثر من فيه، وكان لا يزال في فورة غضبه من مشهد عبد الأعلم فغلب ذلك خوفه، وانطلق هو الآخر باتجاه الكلب مهاجمًا.

تباطأ الكلب لحظة وقد فاجأته ردة الفعل، ولما أصبح قحطان قريبًا كفاية ليميز نخاع عظم الجثث على أسنان الكلب، رآه يقفز فقفز أعلى منه، وكتفه بذراعيه من الخلف كأنه يحمل كومة أغصان، معتصرًا إياه بكل قوته، ثم سقطا على الأرض، ظهر الكلب إلى بطن قحطان، قدماه تضربان في الهواء بفزع، ونباحه لا ينقطع.

فاحت من الكلب رائحة قار محترق، داهمت أنف قحطان حتى كادت تخنقه، حرك يديه بسرعة، وضعهما داخل فك الكلب وشدهما مباعدًا وهو يجز أسنانه صارخًا وأصابعه تنزف.

كان شعورًا جديدًا عليه..

الغضب العظيم، الغضب القادر على تحطيم كل إرم.

إرادة القتل.

أصابته رعشة مفاجئة حين سمع صوت تحطم الفك، تقزز منه! مثل لحاء شجرة غليظ ينزع عنها من أجل الصمغ لكنه ممزوج بانبلاج الدم، وأنين تألم.

وشعر قحطان ببلل دافئ على ربلتيه اللتين تعرّتا من إزاره، فنظر أدناه ليرى الكلب يبول وهو يشخر.

وفجأة سمع صرخة جعلته يرتعد فرقًا!

كان صوتًا بشريًا لكنه غريب، مثل امرأة لها صوت ذكوري أو رجل مخنث.

تتابع الصراخ، كان متداخلًا وكأنه لعدة أشخاص لا حلقًا واحدًا، لكنه صادر من نفس الفم، وهو ما جعله مرعبًا، ثم دخل فيه أنين وسب فاحش لا يكاد يفهم، كان حديثًا مظلمًا، وكان يصدر من فم الكلب!

وتراجع باقي القطيع بحذر ثم انطلق في الريح هاربًا باتجاه شق أجا.

ثبت قحطان الكلب بذراع واحدة ومد الأخرى ليستلم حجرًا، رفعه ليحطم به رأسه، لكنه تكلم بذلك الصوت:

- *«يلعنكم الرب، يلعنكم.. أفلتني أيها الرجل فأحفظها لك».*

ارتعشت يد قحطان على الحجر من شدة خوفه، بصعوبة تماسك والكلب بين ذراعيه، وبصوت مرتجف سأل:

- *«ما أنت؟!».*

- *«الحارث بن مطيف! الحارث أيها الملعون، صاحب الوادي».*

- *«أي وادٍ؟».*

- *«عبقر».*

أجفل قحطان، غرز قدميه في الطين كي يمنع نفسه من الفرار، وتابع الجني:

- «اتركني، اتركني يا ابن الأنجاس، وسأحفظها لك».

- «ويحك! تسبني وأنت بين يدي! فكيف إن أفلتك؟».

- «ما سببتك، أنت نجس وابن أنجاس، وكذلك عاد وشداد وعابر، والعمالقة من قبل، يلعن الرب نسلك فما وجدنا فيه خيرًا، لكننا لا نكذب، وسأحفظها لك».

- «وبمَ تنفعني؟».

قال قحطان وصدره يؤلمه.

- «ما أنفع أن يكون لمثلك عند من هو مثلي ذمة!».

مترددًا خفض قحطان يده الممسكة بالحجر، ثم سحب الأخرى من على الكلب، وتركه يسقط عند قدميه، فرفع الكلب رأسه دون أن يقوم، كان ينزف من بين فمه دمًا بطيئًا..

قال الكلب:

- «أخبرني باسمك».

ابتلع قحطان لعابه، وبصوت أجش قال:

- «قحطان.. اسمي قحطان بن عابر».

- «أدر وجهك عني الآن، ولا تلتفت حتى أخبرك».

قال الكلب لاهثًا، ولسانه يتدلى خارج فكه المكسور لكن قحطان ظل محدقًا به.

- «افعل قبل أن أهلك».

فغرب عنه، وللحظة اشتم ريحًا خبيثة، وسقطت عمامته من فوق رأسه، فالتفت ينظر ولم يجد شيئًا، بينما دوت ضحكة ماجنة من الصوت المخنث، وقال عابثًا:

- «إياك أن تظن أنك غلبتني، في هذا اللقاء أنا من بَال عليك».

وتحسس قحطان فخذيه فوجدهما لا يزالان مُبتلين ببول الكلب فأخذ يمسحهما بالرمل.

في حضرة الصمت سار إلى السور، البوابة من عروق خشبية عملاقة ربطت بالليف، وحفرت فيها الصور على تعاقب السنين، الجديد منها كان ما أمر به شداد لنسور تهجم، تقتل، وتفترس.

كان نقش النسر طاغيًا على ما حوله، ليس على البوابة فقط، إنما على كل إرم، حافزًا في

الأذهان صورته كحاكم أوحد، نسر منفرد قادر على افتراس أي حي يعصيه بارم.

وفي اللحظة التي غرز فيها قحطان إبهامه وسبابته والوسطى في الشق الضيق بين العروق الخشبية ليتسلق الباب إلى حيث الجثة، كان شداد يحفر رمزه بإزميل في قدم تمثال صداء الضخم ببهو قصر عبد الأعلم الذي صار مُستقرًا له حين سمع صوتًا خارجًا من التمثال يقول:

- *«آآآي.. آآآي.. قد خرج هود»*.

تجمد شداد وهو يرفع رأسه إلى رأس التمثال، وسقط إزميله على الأرضية الرخامية فرن بصوت عال.

تأمل التمثال بانتظار كلمة أخرى، وقلبه يدق بقوة، ولما لم يسمع منه شيئًا، التفت إلى قدحه، وضحك قائلًا:

- *«يا للخمر!»*.

***

الآن صار قحطان بمحاذاة الجثة، متشبثًا بيده اليسرى، وباليمنى أخرج سكينه الحجري وبدأ يقطع الحبل السميك، رآه يتفسخ ببطء شديد، نسيلة تسقط بعد أخرى، آلمته ذراعاه، وجرحت قدماه اللتان غرزهما في عمق الشق، ثم انقطع الحبل فجأة فسقطت الجثة بعنف محتكةً بالباب، وسمع قحطان صوت تفسخ الجلد من ثقل الحمل على الذراع الأخرى.

نزل بسرعة، تخلى عن الباب بمنتصف المسافة فسقط مرتطمًا بالأرض، وسرت موجة ألم صاعق في ساقه.

أمطرت السماء، تسلق قحطان من الناحية الأخرى للجثة، رأى موضع تفسخ الجلد عند الإبط، وقد برزت منه رؤوس العظام، بيضاء ناصعة، كاد يقيء، ومن جديد بدأ يقطع الحبل حتى استوعب أخيرًا أن الجثة ستسقط محطمةً على الأرض فتوقف..

أخذ نفسًا عميقًا، واقترب من عبد الأعلم حتى أصبح وإياه وجهًا لوجه.

قابلت عيناه عيني حميه..

كأنه لا يزال يتوجع حتى الآن! تنظران في عالم آخر..

فمه معوج من شدة الألم بلحظاته الأخيرة..

جلده متسلخ.. التصق الذباب ببعضه..

تفوح منه رائحة التعفن.. تكاد تقتل قحطان.

وجد نفسه يهمس له:

- *«أقسم أن أنتقم لك»*.

واحتضنه بكلّ جسده، غرز قدميه في الباب جيدًا، وعاد يقطع الحبل. سريعًا انقطع، وسقط عبد الأعلم في حضن قحطان، كاد أن يسقطه من علٍ لكنه تشبث بشدة، وببطء نزل قدمًا قدمًا وهو محتضن إياه.

كتم أنفاسه، الرائحة لا تطاق، جرحت قدماه في كل موضع تقريبًا، وحين لمس الأرض وضعه بسرعة ثم التفت عنه، وتقيأ كل ما في جوفه حتى خرجت من فمه عصارة حمضية صفراء.

وقبل الفجر.. فُتحت الخيمة السوداء..

رفعت إليه خديج عينين مشفقتين لم تلبثا أن امتلأتا دمعًا، وهي ترى أباها بين ذراعيه..

غسلا الجثة، حرصت خديج أن تنزع عنه كل ذرة رمل، وكل حشرة، وكل قذارة..

كفنتها في الغطاء الصوفي، ثم رسمت عليه بدم بهيمي صورة قصره ومن ورائه الجبل.

وفي أوسط خيمتهما حفرا له عميقًا جدًا، أنزلاه حتى استقر، ثم أهالا عليه التراب، ومع شروق الشمس كانت خديج عند قدمي زوجها تغسلهما بالماء، وتدعكهما بملح صخري، كذا فعلت بيديه، وثوبه، وباقي جسده.

نام بين يديها من شدة التعب فتأملته عن قرب، ليس في جسده موضع سليم..

قبلت جبينه، يديه، ولحيته..

بذلك اليوم، وقبل أن يستيقظ، أخرجت جلدتها، وأخذت تنظر إلى النقوش التي كانت تقلد بها نقوش جلدة رمل، قررت أن تجعل لكل صوت تنطقه رمزًا، ستكتب لغتها..

وكان أول صوت اختارت أن تجعل له رمزًا هو «قا»، أول حرف في اسم زوجها.

لم يكن بسجن الصعاليك، وآل الضحاك، الذي بني من حجارة توبار، منفذٌ للنور، فكانوا يتحدثون إلى بعضهم دون أن يروا، كجماعة عميان.

ربما كان ذلك من حسن حظهم لأنهم في تلك الظلمة لم يعرفوا كم هزلت أجسادهم، واستطالت شعورهم ولحاهم وأظافرهم، ولو رأوا لارتعبوا.

تشفع شيخ آل الضحاك غير مرة عند شداد من أجل خروجهم، لكنه لم يرجع من عنده إلا بالزجر والتهديد، وفي زيارته الأخيرة، عض نسر طرف عباءته، فضحك مجلس شداد بينما ابتسم الأخير، فامتنع الشيخ عن زيارته من بعد.

وكانت نساء آل الضحاك يزرن السجن كل صباح، يجلسن خارجه، يبكين رجالهن في مشهد تكرر كل يّوم حتى اعتاد عليه أهل إرم.

وبنهار دافئ انفتح الباب الخشبي السميك فضيق المساجين أعينهم اتقاءً للنور، لم يستطيعوا التحرك بسبب قيودهم، وعرفوا أنه موعد الذبح لثلاثة رجال جُدُد يختارهم غصاب.

رأوا ظله في فسحة الباب، مثل غراب شؤم، كان رجلًا قصيرًا، أقصر حتى من بعض آل عابر، شحيفًا، غزير الشعر طويله، يعقده في جدائل تفوح منها رائحة طيب ممتزجة برائحة ضأن مألوفة، ودائمًا هناك بقع دم على ثوبه رغم أن أصابعه وأقدامه شديدتا النظافة.

دفع الباب إلى آخره، لم يكن معه حرس شداد هذه المرة!

دخل بصيص نور، ضعيف جدًا، لكنه سمح للرجال التعرف على الكثير مما تبدل في هيئاتهم، وقال الجزار وهو ينظر إليهم: «اختفت جثة عبد الأعلم من على الباب الأوسط».

لم يكونوا يعرفون أن الجثة قد علقت أصلًا، فعم صمت إلا من صوت بكاء متقطع من بعض رجال آل مخلص.

فرك جبهته بيده، وتابع:

- *«كل إرم رقصت لهذا الخبر إلا آل شديد، يقولون أن الجن قد حمله مكرمًا، فغسله، وطيبه، ودفنه بقبر ابنه، بينما أميل إلى أن أصدق أن بعض آل مخلص لا يزالون في الجبال وقد حملوه، ودفنوه بمعرفة كاهنة بغاء تحت الساحة الحمراء».*

قرفص أمامهم، بدت سوءته من تحت إزاره لكنه لم يتكلف عناء تغطيتها، إلى جواره وضع ساطوره وتكلم كأنه يسامرهم:

- *«لا أريد أن أقتل أبناء عمي من أجل إطعام النسور اللعينة».*

اشرأبت أعناق المساجين ينظرون إليه، نبضت قلوبهم بالأمل بينما تابع:

- *«ربما.. إن قطعتم لي عهدًا بالهروب من إرم، وعدم الرجوع لها من بعد أبدًا، ربما أستطيع أن أجد لكم طريقة للنجاة».*

قاطعه صوت أكبر الرجال عمرًا، وكان رجلًا من آل الضحاك اسمه طريف:

- *«أخرجنا يا غصاب، ولك عهد كل رجل هنا ألا نرجع إرم، ولا تسمع زوجاتنا منا، إلا على جثة شداد».*

التفت إليه غصاب وقال مستنكرًا:

- *«كيف يموت شداد؟».*

وأطرق ثواني، ثم قال:

- *«سأهربكم تباعًا، ثلاثًا كل شهر، فاختاروا اليوم خيركم ليخرج»*.

أجابه طريف:

- *«والنسور؟».*

- *«سأذبح إحدى نوقي، وأقطعها لتبدو كأحدكم، لن يعرف أحد».*

عم صمت..

ثم تكلم طريف قائلًا:

- *«اخرج يا مسعود».*

فتقدم شاب لم يتجاوز العشرين من عمره مترددًا.

- *«اخرج يا عبس».*

رفع فتى له جسد متين يده، وخفضها سريعًا والرجال يفسحون الطريق له.

- *«واخرج يا زيد».*

تباعد القوم ليظهر طفل! ربما كان في العاشرة، نظر إليه غصاب محتارًا وقال:

- *«كنت أظنك ستبدأ بشيوخ القوم!».*

أجابه:

- *«بل أبدأ بأنفعنا، وهم الفتية».*

- *«وأنت! أنت سيد الناس هنا».*

- *«إذًا أخرج آخرهم».*

هكذا سحب غصاب الرجلين والطفل..

بعيدًا عن الأعين سار بهم على طول السور العتيق، حتى وصلوا إلى الجزء المنهدم منه الذي ما زالت أجزاؤه مختلطة بالعقيق الأحمر، فأطلقهم إلى الجبل..

انطلق الثلاثة حاذرين حانيين ظهورهم، ملابسهم ملوثة بالدم من يوم المعركة. تحركوا بسرعة مثل الذئاب بينما وقف غصاب يتابعهم وهو يشعر بالرضا، والحق أن قتله للرجال كان يقتله هو نفسه. أن يمسك ساطوره الذي طالما ذبح به البهائم من أجل ولائم الأعراس، فيذبح به أبناء عمه من عاد، ويقطع أوصالهم من أجل نسور مسعورة، لا يحب أن يذبح شيئًا أكثر منها.

ثم إنه لا يفتأ يذكر عيني ضحيته الأولى وكان شيخًا نحيلًا، أحنى ظهره، وخفض رأسه لساطوره، لكنه في لحظة ما قبل الذبح همس فسمعه غصاب:

- «*فلتلعن بغاء النسر وصاحبه*».

ثم تابع والساطور يلتحم بجلد رقبته:

- «*ومُطعِمَه*».

ثم انتثر دمه في وجه غصاب مثل المطر في وجه رجل ينظر للسماء.

وفي الوقت الذي كان الرجال المحررون يركضون بين شقوق أجا، كان شداد قد دخل في طور جنونه الأول والذي سيعرف به أبدًا، فعجز عن النوم إلا بمشقة زائدة، وداهمته الكوابيس الثقال فرأى فيها الجن، وعبد الأعلم، والأجداد، وبغاء وحتى آل عابر وكلهم ضده. ثم عرف عنه سبابه الفاحش بمجالسه للكل حتى أصحابه، لا يفرق في ذلك بين صغير ومسن، وتطاولت يده عليهم، فكان لا يتورع عن الصفع، والركل أحيانًا، ولم يحدث ذلك في عهد من سبقه، وجعل قوة من رجالٍ مقاتلة، ميزها عن باقي عاد، وكانت إرم تنفر في الحروب جماعات من كل الأحياء، لكنه ميز هؤلاء الرجال بسلاح وعدة لم تكن عند غيرهم، وأغدق عليهم بالمال من إرث آل مخلص وبيوتهم، ولما أراد أن يوزع عليهم نساء آل مخلص أيضًا منعته نساء إرم حتى نساء بني شديد.

كان الكل يعرف، وأولهم شداد نفسه، أنه سيعود إلى بعض عقله إن وُجدت جثة عبد الأعلم..

ولكنها ظلت غائبة، وإن ظل ذكرها حاضرًا على الألسن، وفي مجالس الناس.

مبجلة، اختفاؤها خير خاتمة لحكاية طويلة من الخدمة المخلصة لإرم.

وفشى الخوف..

حُكمت عاد من خلاله بعد أن كانت تُحكم بالحكمة القبلية. أكلت شديد حقوق كثيرٍ من أحياء الضحاك، فكانت عاد بهذا كمن يجدع أنفه بيده، كانت عاد تأكل نفسها ببطء.

ولما كثرت كوابيس شداد التي كان آل عابر جُزءًا منها، منعهم من دخول المدينة حتى للخدمة، وأمر جيشه فانطلق في هجمات على البدو الذين استطاعوا أن يجدوهم في أطراف الوادي، فقتلوا الرجال، واستعملوا النساء والغلمان عبيدًا، ثم أمر شداد أن يجري عليهم ما يجري على البهائم، فكانوا يطعمون التبن وحشيش الأرض، ويشربون الماء الآسن، ولا تتغير كسوتهم بشتاء أو صيف، بل ترك بعضهم عراة، وناموا في الحظائر..

كم قُتل من أطفال تحت حوافر أنعامهم الذين شاركوهم مسكنهم!

كانوا يُرون في الأسواق، وعند الدور بأجساد ناحلة، وظهور منحنية، ومآزر مقطعة متسخة..

التبن لاصق بشعورهم، وروائحهم خراء بهيمي، فعف كثير من عاد عن طلبهم للخدمة، وساعدهم البعض سرًا، فكانوا يرسلون إليهم بالطعام والشراب والكسوة، خاصة آل غانم وكانوا أهل كرم، ورغم ذلك هلك كثير منهم في أشهر قليلة.

وفي إحدى رحلات شداد إلى الغرب خرج من واد مُنبت بين سلسلة جبلية عظيمة فوجد نفسه أمام البحر!

لم يكن لقاء عاد الأول به، لكنهم كانوا يجدونه شرقًا، والآن ها هم أمامه بالغرب!

اقترب شداد مأخوذًا بما يراه. كانت الجبال تلتف على الشاطئ مانحة إياه خصوصية شديدة، تربته رمل ناعم فيه صدف، داس عليها مقتربًا من الماء فغطست قدماه، وأصابه شعور لطيف كالدغدغة.

- *«انظر هناك يا شداد!»*.

صاح رجل مشيرًا إلى طرف بعيد التفت إليه شداد فرأى للمرة الأولى هيكلًا عملاقًا من الخشب. سار إليه بتوجس، فلما اقترب منه، رأى ما يشبه حقل غربان خامدة، اقترب أكثر، فوجد أن تلك الغربان جثث لرجال ونساء ليسوا كعاد، ولا عابر، ولا البدو، إنما لهم بشرة سوداء حرقتها الشمس التي بقوا تحتها لأيام لا يعرف أحد عددها.

كانوا عراة، ولم يكن معهم سلاح ولا عدة.

- *«سفينة».*

قال شداد وهو يرفع عينيه إلى الحطام الخشبي، بينما اقترب منه رجل يسأله:

- *«ألا يمكن أن يكون بقية منهم حولنا هنا؟»*.

حاول شداد أن يستدل على أثر لهم، لكن أمواج البحر كانت قد محت كل أثر على التراب حولهم، فهز رأسه، وانصرف عن الجثث، ومشى حتى صفحة الماء، لمستها قدماه فنسي كل شيء سواها، ونظر إليها فرأى انعكاس وجهه، ورأى أسفله عالمًا لا يصدق!

ألف لون متداخل لمخلوقات لا يعرف لها اسمًا!

أصداف، نباتات بحرية، كأنها قدت من صخر، تجاويف صغيرة لمخلوقات يراها للمرة الأولى، ثم السمك..

يسبح حول ساقيه بلا خوف..

ملونًا، بأشكال عجيبة، وتفاصيل غير معقولة، بعضه له أشواك حمراء طويلة، الآخر عيناه ترتفعان عن رأسه بزوائد جلدية...

رأى سمكة بدت ككتلة دهنية بلا معالم، وأخرى لها ذيل واسع ملون وكأنها تجر عباءة خلفها ورأى ثعبانًا أسود يسبح كأنه على اليابسة!

ما أسهل أن يغطس يده فيمسك به..

أسرع سلطعون مبتعدًا عن قدميه، وكان قد سمع عن ذاك المخلوق من آل عوص لكنه لم يره من قبل، دعسه بقدمه فانسحق تحتهما، وانبلج منه لحم طري، أمسك ببعضه ووضعه في فمه فاستطابه.

مثله دخل كثير من الرجال إلى الماء، سمع ضحكاتهم وأصوات لهوهم وهو يتقدم في العمق، الماء الأبعد له ألوان عدة، باهتة بالمقدمة، تزداد زرقتها كلما تقدم، أعجبه أن قدميه فقط هما ما غاص في الماء، وسأل نفسه إن كان باستطاعته المسير حتى يصل للضفة الأخرى، وكانت أساطير بلاد الذهب البعيدة قد حُكيت له ككل قومه لما كان طفلًا، وفجأة سقط كأنما يقع من السماء، اختفت الأرض من تحته؛ ووجد نفسه يغطس كليًا في الماء ففهم بذعر أنه اجتاز الجرف الصخري للشاطئ بينما رأسه يغرق تحت الماء.

للحظة، رأى المشهد كأنه يعيشه.

الألوان بكل بهائها واضحة..

الحياة المزدحمة بالأسفل..

كل هذا الخلق، كأنها إرم مخلوقات أخرى تحت الماء..

مرت لحظات لم يشعر بها بالوقت، وهو يسقط للأسفل.

ثم ذعر..

كتم نفسه، وهو يضرب بيده وقدميه فلا يزداد إلا غرقًا.

ارتطمت يداه بالجرف، نزفتا من الصخور الحادة، لم يبال وهو يمسك ببعضها شاذًا نفسه للأعلى.

ثبت أقدامه في الصخر، وببطء ارتفع..

كاد يبكي، وهو يدخل يديه في شقوق لا يعرف ما فيها، قرص شيء ما إصبع قدمه فسرت صاعقة بأعصابه، لكنه استمر بالصعود وأصوات رجاله الزاعقة تقترب، ثم ضرب بقدميه الاثنتين في الصخر غير مبال بالجروح التي أحدثتها نتوءات الصخر فيهما، فصعد جسده للأعلى بقوة وكأنه يحلق.

ودخل رئتاه الهواء البارد، عبَّ منه بأقصى ما استطاع وهو يبعد أيدي الرجال عنه معتمدًا على نفسه حتى وقف على الجرف..

مسح شعره الغزير، وسحب قميصه للأسفل لكنه ارتعب حين لم يجد عصاه التي ورثها عن عبد الأعلم بجرابها!

التفت للخلف، ونظر للأسفل فرآها تسقط ببطء غارقة في البحر حتى استقرت بالقاع العميق.

لم يعلم بضياعها إلا هو..

وعلى عكس عبد الأعلم كان لا ينام إلا وهي جواره..

يعجبه شيطانها، وهو رفيقه الأشد إخلاصًا.

ألم تكن من أوحى إليه بذبح رجال الضحاك والصعاليك من أجل نسوره؟!

كتم الأمر، وأمر أن تضرب الخيام على الشاطئ.

وسريعًا وجد رجاله أن البحر على بهائه بالصباح موحش بالليل..

اختفت الجبال تاركة مكانها ظلالًا قاتمة، وأصبح البحر غابة سوداء لا بداية لها ولا نهاية،

وترادف عواء الذئاب وأصوات الطيور الجارحة مع أصوات وحشية أخرى لم يعرفوا مصدرها، مسافرة عبر الأودية القريبة، وقمم الجبال.

وحين ناموا..

خرج شداد من خيمته، عاريًا من كل شيء، استنشق الهواء البارد وزفره بتأن..

خطا ثابتًا نحو البحر، وقف أمامه لحظات والماء يلامس أصابع قدميه، كان دافئًا.

ثم دخله..

تمدد فيه بطوله، على ظهره، ثم على بطنه، وبدأ يحرك ذراعيه، وقدميه ضاربًا الماء..

رغم هذه الوحشة من خلفه، لم يخف..

الحق أنه رأى نفسه جزءًا من تلك الوحشة.. هو المخيف، لا الخائف.

ومع أول شعاع للشمس استيقظ أحد رجاله، فتح عينيه والتفت باتجاه البحر ثم اعتدل جالسًا، وهو ينظر بدهشة إلى شداد يسبح بعمقه عاريًا، غير عابئ بالموج العالي، ممسكًا عصاه بيسراه!

همس الرجل لنفسه، وهو يتابعه مبهوتًا:

- «*ما أشده! كأنه إله*».

***

لم يكن منع آل عابر من دخول إرم هو الضرر الوحيد الذي وقع عليهم من شداد، لكنه أتبعه بأمر ثانٍ أن جعل إمدادهم بالماء متقطعًا، وبأمره فقط، فكان يرضى يومًا أن يُحمل إليهم الماء، ويرفض أيامًا، فشح، وهلك زرع كثير وبهائم، ومع قلة الطعام مات ناس منهم.

ولم تحبل خديج رغم انقضاء وقت على زواجها، فتهامست النساء بعقمها بدايةً، ثم أصبح الهمس دندنة يتحاكينها في مجالسهن، ووجدت إساف في الأمر راحة لها، وكانت تحسدها أن سلبتها قحطان، فقالت إن إيلَ لعنها لزواجها من خارج عاد أو لعلها بغاء من فعلت. ثم كنّتها «ملعونة عاد»، وصارت تناديها بذلك الاسم بلا حياء، فانتشر الاسم في المضارب، وخديج على ذلك صابرة.

وغلَت قحطان كآبة من أجل ذلك، كانا الزوج الأول بعابر الذي يُمنع الذرية، وفي ليلة صيفية حارة دعاه أبوه إلى خيمته، وكان مرضه قد اشتد عليه.

دخل عليه، وجلس عنده، فالتفت عابر بكل جسده إلى ابنه، وابتسم وعيناه تترقرقان بالدمع. مد يده ممسكًا بيد قحطان، فوجد الأخير أن يد أبيه لا تنفك ترتعش، وكانت علامة موت في أجيال عابر.

- *«يا بني، إنه ليحزنني أن أراك على هذا الحال»*.

هز قحطان رأسه، وهمس:

- *«لا عليك يا أبي»*.

رفع الأب عينيه إلى عيني ولده، غرق كل منهما في عالم الآخر.. شعر قحطان لحظة كأنه ينظر إلى الموت نفسه في عيني الشيخ.

- *«لن تنجب منها يا قحطان»*.

- *«لا تزال صغيرة»*.

- *«لا علاقة للأمر بكما، إنما هو إيل»*.

مندهشًا كرر قحطان: «إيل!»، فهز أبوه رأسه، وأغمض عينيه كالخائف، وانفرجت شفتاه قليلًا لكنه لم يلبث أن أطبقهما.

- *«أخبرني يا أبي»*.

همس قحطان راجيًا.

ارتعشت شفتا أبيه، ذرف دمعًا، اشتدت رجفة يده، تكلم فتبعثر من فمه رذاذ مختلط بدمع..

- *«قد جربت هذا من قبلك، أيام شبابي.. كنت وعبد الأعلم صديقين، نشأت في قصر أبيه، وكانت أمي تخدم عندهم، كنا قريبين كالإخوة»*.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها عابر صراحة عن علاقته بعبد الأعلم، انتبه قحطان لكل كلمة، وهو يمسك بيد أبيه.

- *«كان أبوه يعده ليحكم من بعده، تعاهدنا حينها أنه حين يملك سيدخل المضارب بإرم، يهدم جزءًا من السور الشرقي فيضم أرضنا ثم نبني سورًا أوسع، ونعيش فيها كأهلها ونكون حيًا فيهم. كانت حكايات أجدادي وأجداده عن الجد الأقدم، أبونا الأول، والقرابة بيننا لا تزال ثقال، آمنا بصدقها.*

وأحب عبد الأعلم أختي سلمى، أراد أن يتزوجها لكن عادًا تحرم الزواج خارجها، وتقتل من أجله، فتزوجا سرًا بعلمي، بنى لها الخيمة الحمراء، هذه التي نسكنها، وجعلها عند الكهف، وتعاهدنا أمام إيل وبغاء وصمود وصداء، أن يعلن أمر زواجهما لإرم حين تنجب له، فتبطل ما يؤمنون به من أن بغاء تلعن كل من يتزوج من غير عاد بمنعه الذرية. لم يعرف بذلك الزواج غيري، ثم عرف به سكون من بعد وإن لم يوافق عليه».

أغمض عابر عينيه، وهو ينهج، شعر قحطان أن عليه أن يطلب منه التوقف عن الحديث ليرتاح، لكنه أراد سماع باقي القصة فسكت.

- *«حملت أختي، انتفخ بطنها كأعظم ما يكون حتى أننا ظنناها تحمل توأمًا. لم يكن أحد يعلم عن زواجها شيئًا فلم تلق دعم نساء عابر، وظلت تطعم نفسها، وتغسل ثوبها من اليوم الأول حتى الأخير، وقبل ولادتها بأيام جاء عبد الأعلم كما وعد. كان أبوه قد مات وتسيد قومه، وجاءنا ممسكًا بعصاه التي ورثها، حاملًا سلة طعام، وكسوة للمولود، وأمه، وكرر عهده بأن يحمل المولود ويدخل به إرم.*

لكن أختي اختنقت بحملها، انتفخ جسدها، وقاءت كل طعام أو شراب وضعناه بفمها، صرخت من الألم ليلة كاملة فلم يشهد صراخها إلا توبار، وأنا وسكون، حتى رأيت عينيها تدمعان ألمًا، وسال خيط دقيق من دم أسفل منها، فتحت فمها لتتكلم، اقترب منها أخي سكون، فأسرت له بأمر لم أسمعه، ثم هلكت.

دفناها ليلتها ببطن الكهف، في فجوة طينية بنهايته، فلم يعلم موضع دفنها غيري وغيره».

- *«الكهف الذي تحنث فيه من بعد؟».*

- *«نعم».*

همهم قحطان كعادته حين يعجز عن الكلام، خفض رأسه، واضطربت شفتا عابر، بكى مثل طفل حتى أن قحطان لم يفهم ما يقول فاحتضن رأسه إلى صدره.

- *«لم أكن لأنطق بهذه القصة لولا أن أجلي حان. أكره أن أموت وأنا أعلم أنه لن تكون لك ذرية».*

- *«فما تأمرني يا أبي؟».*

- *«تزوج يا بني، وأكثر نسلك، ولا تغادر المضارب أبدًا، اجعل كثير عددنا مما نتقوى به على الحياة فيها، وإنما شداد رجل من عاد، ما أقرب أن يهلك ويحكم من هو خير منه فيسقينا الماء، ويدعونا للخدمة فنتحصل على ما نحتاج إليه».*

تنهد قحطان، ولم ينطق.

ذلك المساء، وحده في خيمته، وسكينة عند خديج تسامرها، سرى في الخيمة نور قمري عند بابها، تزايد حتى أضاءها كلها، ورأى عابر رجالًا تدخلها عليهم ثياب غريبة من استبرق لم يرَ مثله من قبل، واشتم رائحة مسك خفيفة. ميز أباه بينهم فبكى وهو يمد ذراعه المرتجفة إليه في الهواء، لكنه توقف حين رأى امرأة تتقدم من خلفه، أجمل امرأة رآها، ترتدي ثوبًا مذهبًا بنقوش وردية، همس ملتاعًا: «سلمى»، فهزت رأسها له وابتسمت وهي تتقدم إليه قائلة بصوتها الرقيق الذي افتقده طويلًا:

- *«لشد ما أخطأت في فهم الحياة يا أخي»*.

«ومن يفهمها»، أجاب باكيًا.

وخارج الخيمة، كانت سكينة تهم بالدخول حين اشتمت رائحة المسك! وسمعت زوجها ينطق اسم أخته، يحدثها، فشهقت ووضعت يدها على فمها تكتمه..

وشعر عابر بضغطة على أصابع قدمه، سرعان ما شملت ساقه كلها، ثم فقد إحساسه بها، ارتفعت الضغطة حتى ركبتيه، ثم فقد إحساسه بهما كلهما، ثم تابعت إلى أسفل بطنه صاعدة إلى الأعلى، وكلما مرت بجزء من جسده فقد شعوره به، لمست أخته كتفه وهمست:

- *«فلتهنأ لأن الخالق رحيم»*.

وابتسم والضغطة تصل منابع رقبته.

***

بصيف عام شداد الأول في الحكم، وبينما تتحرك إحدى قوافل آل عوص في الأودية البعيدة بحثًا عن الذهب، هوجمت، وسُرق ما كان معها من متاع وسلاح، وقتل كل ركبها، ثم مُثّل بالجثث فجدعت أنوفها وآذانها، ورميت بالعراء، بل إن بعض تلك الجثث حُمل، وألقي به عند باب النخيل الجنوبي لإرم، وإحداها صُلب على الباب الأوسط بنفس الموضع الذي صلب فيه عبد الأعلم.

تبع ذلك هجوم آخر على جمع من شباب شديد كانوا يشوون شاة خارج السور، فذبحوا، وشوي غير واحد منهم محل الشاة.

اضطربت عاد بتلك الجرائم، ولكثرة ما مر بهم من أحداث بالعام المنصرم، من مقتل عبد الأعلم، وإطعام النسور لحوم آل مخلص والضحاك، والتضييق على آل عابر، واستعباد البدو، بل والأبنية الجديدة التي تطاولت على معابد الآلهة الثلاثة، ولم يكن من قبل من بناء أعلى

من رأس بغاء إلا الأعمدة، لكل هذا لم يستطع أهل إرم أن يلقوا باللوم على حدث أو شخص معين يكون سببًا لذلك القتل فما أكثر أعدائهم، وما مر بهم في عام واحد.

وفي ليلة شديدة الحر، قبيل الفجر، بنفس الوقت الذي قتل فيه يلوذ تقريبًا، سُمع صراخ بهيمي قادم من الساحة الحمراء لمعبد بغاء، أتبعه صوت ارتطام عظيم ثم صمت مطبق.

واجتمع الناس ليجدوا أحد نسور شداد السبعة، واسمه «ملجوف»، يميزه مخلب دموي اللون، محطمًا على الرخام، مبعثرٌ ريشه، وقد لُفت ساقاه بالخيش إلى عظام جناحيه!

لم يُر شداد غاضبًا مثل تلك الليلة، أغلق أبواب إرم ليمنع الفاعل من الهرب، ونشر رجاله بأحياء المدينة وسوقها ومعابدها، مستقصين الأخبار، وكان مجلسه ذلك اليوم مجلس سوء لشدة ما سب وضرب الحاضرين.

يقال إن ذلك اليوم، كان اليوم الذي أوحى إليه فيه شيطانه أن عمره معلق بعمر تلك النسور الستة الباقية، وأنه حين قُتل نسره الأول نظر في مرآته فوجد شعرة شيباء أولى في منتصف لحيته العظيمة.

في اليوم التالي، خرج شداد من مجلسه ليشرف على إطعام النسور بنفسه فوجدها تأكل لحمًا طريًا ذا لون داكن، ووجد عندها غصاب الذي حياه دون أن ينحني له، وبدا ارتباك في عينيه.

اقترب شداد من أحد النسور يتفحص اللحم أمامه، جلس على ركبته، وأمسك بقطعة كبيرة فصاح نسره، وعضها بين منقاره شادًا إياها فانبجست منها قطرات دم لوثت ثوب شداد الذي دفع بيده وجه النسر ساحبًا قطعة اللحم لكنه لم يفلتها، فضغط شداد وجه الطائر بين أصابعه بغلظة حتى فتح فاه مرغمًا تاركًا قطعة اللحم بين يدي سيده الذي اشتعل وجهه بالغضب، ورفع عينين متهمتين إلى غصاب قائلًا بصوت كالفحيح:

- *«ليس هذا لحم إنسان!»*.

فشخر الجزار قائلًا:

- *«منذ متى تطعم عاد لحوم أبنائها لنسورها؟!»*.

وانفعلت كل عاد بالحكاية!

غصاب، شيخ جزاري آل غانم، لم يمتثل لأمر شداد، بل كان يطلق شباب مخلص والضحاك إلى خارج إرم، ثم يأتي بالخيل العاجزة، أو النوق المريضة لآل غانم، فيتخير أضعفها، ويقطعه أجزاءً صغيرة يطعم منها النسور.

حبس غصاب، فانتفض كل رجال غانم، وهم أكثر عاد عددًا، وحطموا باب السجن فأخرجوا شيخهم، ومعه كل من كان حبيسًا.

هنا وصلت الأخبار من الجبل..

همسًا أولًا، ثم قيل الخبر جهارًا..

أبناء آل مخلص الناجون وغيرهم من آل الضحاك احتموا بأحجار توبار وكهوفه، وعزموا النية على القتال حتى يسقط شداد، ومن معه.

هم من قتل الرجال بالوادي، وعند السور.

لكنهم لم يكونوا من أنزل عبد الأعلم من الصلب.

وانهار نظام إرم أو كاد.

لم يعد للأوامر فيها أثر، حتى أوامر شداد أو كبار الأحياء.

وشاع القتل، غير مبرر في أغلب الأحيان، في الشوارع والأسواق وعند الخلاء وورش التجارة.

معظم القتلى كانوا من آل شديد وآل عوص، حتى أن شدادًا أمرهم ألا يسيروا في المدينة إلا جماعات.

وانفلت شباب من باقي الأحياء بإرم، آمنوا بأن شدادًا يجب أن يسقط، فانضموا إلى جماعات الجبل، وأعانوهم بالسلاح.

وفي جوف الليل، نودي على قحطان بما يشبه الهمس من خارج خيمته.

سمعت خديج الصوت أولًا، ففتحت عينيها، وجلست، وهي تهمس غير مصدقة: «ناصر!».

ثم سمع قحطان الصوت فاستيقظ منتبهًا، مد يده بسرعة يبحث عن عصاه بالظلام، وخرج وخديج تنظر من ورائه..

خارج خيمته كان ناصر، في يده عصاه، وعقال حصانه الأبيض الذي وقف ينظر القادم مع صاحبه.

- *«أنت!»*.

قال قحطان، وهو ينظر له متعجبًا، فاقترب ناصر منه خطوة.

- «أنا».

- «ما وراءك؟».

- «منفعة لكلينا».

ضيق قحطان عينيه في غير تصديق وهو ينظر إلى ناصر، وقال:

- «وما يمكن لرجل مثلك أن ينفع به، وهو مطلوب للقتل؟».

- «أعرض عليك يا سيد عابر، أن يدخل قومك إرم، ويسكنوا حي آل شديد».

بهت قحطان، رفع عينيه إلى عيني ناصر فرأى صدقه، تذكر حلم أبيه القديم مع عبد الأعلم، واستحضر أخبار قتل أهل الجبل لعاد بالأيام الماضية. تكلم فخرج صوته مبحوحًا:

- «أنت من قتل رجال شديد، وعوص بالوادي!».

- «أنا من قتل النسر، أما من قتل الرجال، فهؤلاء...».

قالها، وهو يشعل النار في عصاه، ويرفعها عاليًا، فتستجيب لها عشرات الأنوار فوق توبار، تابعها قحطان ذاهلًا، وهي تكثر بامتداد قمته، ومن باب خيمته خرجت خديج، وقد ارتدت ثوبها المطرز القديم، رآها ناصر فارتعشت شفتاه لحظة، وخفض شعلة النار بينما تقول: «أهلًا يا ابن عم».

التفت إليها قحطان منتبهًا، حرك جسده ببطء غير محسوس ليمنع ناصر من النظر إليها، لكن الأخير انتبه لحركته فخفض رأسه، وهو يغمز شعلته في الرمل لتنطفئ، وهز رأسه مخفيًا تأثره في الظلام.

- «مرحبًا بابنة سيدنا».

- «ناوله يا قحطان».

قالت خديج وهي تضع في يد زوجها صحنًا من عجين التمر والعسل، أخذه منها، ولم يعطه ناصرًا، بل سأله:

- «أتعهد إليَّ أمام خديج يا ناصر أن أساعدك بالرجال والطعام والخيل فندخل كلنا إرم؟».

هز الرجل رأسه مؤمنًا، فقال قحطان:

- «ندخل كحي من أحيائكم، لا كخدم».

- *«أعهد إليك بذلك يا قحطان»*.

- *«يشهد إيل على ذلك»*.

- *«وتشهد بغاء وصداء وصمود»*.

ببطء مد قحطان يده بالصحن إلى ناصر، فأمسك الأخير به، ورفع عينيه إليه فرأى شبح ابتسامة يلمع على وجهه، ابتسامة بلا خوف، فابتسم له، ولمرة أخيرة لمح خديجًا فامتلأت مقلتاه بدمع أخفاه بأن زاد في تبسمه شاذا حصانه، مقربًا إياه منها، وهو يقول:

- *«ليس عندي ما أكافئك به على طعامك إلا هذه المهرة، هي لك»*.

اقتربت منها خديج، لمست أنفها وهي تقربها شادة عقالها، وسألت وهي تلمس خد المهرة مترفقة:

- *«ألها اسم؟»*.

- *«اسمها سماء»*.

قال ناصر وهو يتحرك مغادرًا، تتابعه أعينهما، حتى دفع قحطان زوجه إلى الداخل، وفي عقله تعتمل ألف فكرة وهو يستحضر ذلك الشعور المسعور بالقتل الذي تملكه ساعة عراكه مع الكلب عند الباب الأوسط، فينتشي..

ألا يمكن أن يكون هلاك شداد على يده؟!

***

شخشخ الحصى في يد سكون، وهو يهزها لاهيًا، وعقله سارح في رؤيا رآها.

كان قد نام، وعقله مشغول بما أخبره به ابن أخيه عن تحالفه مع الصعاليك للقضاء على شداد وآله، فرأى في منامه نسرًا عملاقًا يحلق في سماء إرم فاردًا جناحين عظيمين، ومن مخالبه تتساقط نسائل لحم ضحاياه. إلى جواره حلقت حمامة بيضاء بلا خوف، اقتربت منه، مست ريش جناحيه، نظر لها النسر بغضب، حاول أن يضربها بجناحه أو يصل إليها بمخالبه لكنها فرت بيسر، دارت في دوائر ضيقة لا يقدر أن يجاريها فيها، ثم التفت بسرعة واقتربت منه مرة ثانية تتحرش به من جديد، فصاح غاضبًا!

فجأة ارتجت السماء بصوت يقول: «بُعدًا للنسر، فإني قد مللته»، فهتفت آلاف الأصوات من كل مكان «سمعنا، سمعنا»، وانبلج نور كاسح من بين السحاب أعمى النسر فصار يضرب بجناحيه في الهواء متألمًا، واقتربت منه الحمامة كما لم تفعل من قبل حتى حاذته، ودفعت

منقارها بأوسط صدره فنقرت موضع قلبه!

تصلب النسر وفقد قدرته على الطيران وسقط مرتطمًا بصخور توبار.

رآه سكون، وهو ينهار على الصخر، أسفل الجبل، وقد أصبح عجين لحم لا يمكن أن يُميز منه شيئًا.

كانت تلك رؤياه، أوّلها خيرًا، سينتصر قحطان والصعاليك على ملك عاد، إلا أنه منذ استيقظ، وهو يشعر برجفة مشؤومة، مضطرب لسبب لا يعرفه، وحتى حين بدأ يدعو إيل من أجل نصرة قحطان وجد الكلمات تخرج من فمه متلعثمة.

مد يده يضع الحصى على الأرض فوجده قد ابتل بدمع من عينيه لم يشعر أنه سال، رفع سبابته إلى السماء كما يفعل حين يذكر إيل، فاهتزت كل الحصوات أمام عينيه المندهشتين، ثم تحركت من مواضعها، تقاربت، اصطدمت بصوت خافت وهي تتراص، واتضح شكل يُبنى من الحصى لبيت حجري صغير في شكل مكعب!

ما إن انتظم بناؤه حتى سكن الحصى.

ابتلع سكون ماء حلقه، وهو ينظر إليه غير قادر على النطق.

هي إشارة من إيل إليه، لكنه لا يستطيع أن يفهمها..

أتكون إشارة على دخول عابر إرم، وبنائهم لدورهم هناك؟

لا يعرف.

ومن مدخل الكهف رفرفت حمامة بيضاء، وهي تدخل مقاربة سقفه، دارت بسرعة، وضجيج كعادة الطير بالأماكن المغلقة، صوت جناحيها تضاعف مرات، وهي تقترب، وسكون يتابعها حتى حطت إلى جوار الحصى، فسكنت! همس الرجل بخشية مرتجفة:

- *سبحانك!*

وغير بعيد، عند مضارب آل عابر، كان قحطان يتجهز من أجل الليلة الكبيرة.

الليلة ليلة الجمعة، سيكون القتال.

ناصر، ومن معه يتجهزون مثله، إشارة البدء ستكون شعلات النار فوق الجبل.

عند الفجر سيدخل ناصر والصعاليك إرم من باب العمود الشمالي المحطم، الذي سيقودهم مباشرة إلى حي شديد الأكبر الذي ضم إليه حي آل مخلص، ويدخلها قحطان، وآل عابر من

الباب الأوسط لينضموا إلى المتعاونين من آل غانم، ويحاصروا آل عوص بديارهم، بينما سيخرج آل الضحاك إلى الجهة الجنوبية من حي شديد ليحكموا حصاره، ويمنعوا هرب رجاله.

لم يجد قحطان إلى النوم سبيلًا، فخرج من الخيمة السوداء ممسكًا بفأسه، يتفحص نصلها، ويسنها.

لم يكن قد استعمله يومًا مع غير حيوان أو سوق الشجر، والآن يعرف أنه بعد قليل غارزه في اللحم الحي لأعدائه.

تنهد، وأنفاسه تتثاقل..

شعر بالظمأ لكن لم يرد أن يطعم أو يشرب أي شيء قبل القتال، وكماء بارد جاءه صوت خديج، وهي تقترب من خلفه:

- *«خائف؟»*.

التفت إليها بكله، نظر حوله، لا أحد يراه سواها، هز رأسه ببطء، وهمس أن نعم.

جلست إلى جواره، أتته ريحها طيبة، هادئة مثلها، مدت يدها فأمسكت بيده، وبرفق وضعتها بين كفيها قائلة:

- *«أنت الرجل الأول يا قحطان»*.

نظر إليها في غير فهم فقالت وهي تنظر إلى عينيه مباشرة:

- *«دائمًا هناك الرجل الأول، ذلك الذي تبدأ به الأشياء، جدنا الذي هبط من السماء، وبدأ رحلتنا على الأرض، حفيده الناجي بألواح الخشب من الفيضان، وعاد الذي بدأ هذه المدينة من صخرة كانت في موضع معبد بغاء. كلهم بدأ وحده، كلهم كان خائفًا مثلك، ولكنه لم يكن خوارًا، كلهم بدأ عملًا لم يسبقهم إليه أحد..*

وأنت، أنت يا قحطان، رجل عابر الأول، قدرك أن يبدأ بك هذا الأمر بعد أن خاف كل رجل آخر بأجيال من عابر أن يُدخل أهله إلى إرم، وما إن تبدأ حتى يتبعك كل قومك، بل يضحوا بحياتهم من أجلك».

ابتسم للمرة الأولى بذلك اليوم مستحسنًا ما قالته، أطبق أصابعه على يدها، فشعر بقلبه يخفق.

- *«سننجب بعد أن ندخل إرم»*.

- «*نعم، ستكون لنا ذرية، أعرف ذلك*».

أجابته بصدق.

- «*كيف تعرفين؟*».

ترددت لحظة ثم أجابت:

- «*أشعر به في قلبي، وكأنه الوحي*».

بهت لحظات ثم قال:

- «*ليتني أشعر به مثلك*».

دمعت وهي تربت على كتفه.

وبدعوة غامضة التفت قحطان إلى الجبل.

فرأى سلسلة نار!

همس بدهشة:

- «*الآن!*».

التفتت خديج إلى حيث ينظر فانقبض قلبها، وهي ترى المشاعل، كأرواح جبلية تشتعل.

«يدأ الأمر»، قال قحطان، ومن دون وداع جرى إلى خيمة عمه خالد ليجمع الرجال.

أسرع المقاتلون من الخيام، كل يحمل ما يمكن أن يقتل به؛ فؤوسا وحجارة نبال وعصيًا غليظة وأغصان أشجار غرزت فيها أنياب مفترسات.

لدهشته رأى قحطان التعطش للقتل في أعين كثيرين! هؤلاء الذين لم يحاربوا يومًا يبدون الآن كوحوش جائعة، وكأن حب القتل مزروع فيهم من يوم ولدوا.

اخترقوا الظلام بأرض الوادي الذي يفصلهم عن إرم، تقدمهم على صهوة سماء، تراءى أمامهم السور، ورفع قحطان عينيه إلى توبار، لا بد أن ناصر ومن معه قد وصلوا الآن إلى باب العمود، لكنه وجد مشاعل النار لا تزال في مواقعها..

تباطأ، نهج، وهو يحدق باتجاهها.

هناك شيء خاطئ..

تلك المشاعل، خط النار، كان يتحرك من إرم إلى الجبل، وليس من الجبل لإرم كما يفترض

به.

ثم العدد..

كل هؤلاء الرجال الذين يحملونها، من أين أتوا؟ لا يمكن أن يكون كل هؤلاء من الصعاليك.
رفع ذراعه للرجال أن توقفوا.

التفت إلى عمه خالد، وقال آمرًا: «ابقوا هنا، أطفئوا المشاعل، وإياكم أن يتحرك أي رجل منكم حتى أعود بالخبر».

وانطلق بسماء، ضرب على ظهرها فأسرعت باتجاه توبار.

توتر، وهو يقترب من الجبل، النار تتحرك بسرعة فوقه، هذه ليست نار تأهب، أو مسير، بل نار حرب..

كركر بطنه من فرط قلقه، وقد بدأ يسمع صرخات الرجال.

نزل من فوق فرسه، تركها عند سفح الجبل، وصعد متسلقًا.

حاذر أن يظهر منه شيء وهو يصعد، فاختار أن يحتمي بصخور ضخمة حتى يصل إليهم.

لا ينفك يسمع الصراخ..

التوسل الباكي، واللعن..

ومناجاة الآلهة..

وصل إلى القمة، استلقى على بطنه، ونظر.

انسحق قلبه داخل صدره، وهو يرى المذبحة!

شداد ورجاله فوق رؤوس الصعاليك، يُعملون رماحهم وفؤوسهم وسكاكينهم فيهم.

يحملون الرجال من الأيدي والأقدام، ويلقونهم من حافة الجبل.

قد أضرمت النار في الخيام القليلة والجثث، وصلته جذوة احتراقها حيث هو مع رائحة لحم مشوي، وبين الجثث رأى شدادًا يحمل مطرقته العملاقة، وفوق رأسه تطير نسوره.

يثبت إزميلًا في يافوخ رجل، ثم يطرق بالمطرقة غارزًا إياه في جمجمته..

والتفت نسر إلى قحطان فكشفه، رفرف طائرًا نحوه بصوت مقزز، ولم يتراجع قحطان، إنما تراجع مختبئًا خلف صخرة، وعض شفتيه، وهو يلهث هامسًا: «تعال، تعال إليّ»،

وباللحظة التالية وجد النسر فوقه فأمسك به من مخالبه وشده إليه، وبسرعة رفع فأسه إلى بطن الطائر العملاق، وبقره فانفجر بصوت دسم، وانبلجت منه أمعاؤها في دفقة واحدة، والنسر ينهار عند قدميه، فيدعس رأسه حتى سمع صوت طقطقة العظم فيها، وغرز يده في بطنه فاستخرج أمعاءه القذرة والوسخ يتساقط منها، وخرج من خلف الصخرة ينظر شدادًا حتى إذا كان في أقرب موضع إليه، ألقاها عليه.

صفعت الأمعاء وجه شداد، هز رأسه بهوس مبعدًا إياها ثم اشتم رائحة نسره وسط رائحة الخراء الذي غطى وجهه، فتوقف بذعر وهو يمسح الوسخ عن نفسه، ورفع رأسه إلى السماء يعد نسوره وكانت لا تزال تحلق فوقه فوجدها خمسًا! أعاد عدها، ثم صرخ بغضب مجنون، وهو يتلفت حوله بحثًا عن الفاعل.

وغير بعيد كان قحطان فوق سماء، راجعًا إلى قومه.

وانطلقت سماء كأنها استشعرت المصيبة القادمة مثله، صوت أنفاسها أعلى من ضرب حوافرها على الأرض في طريقها إلى المضارب، ومن خلفها رجال عابر راكبين وراكضين بعد أن أنبأهم قحطان بما يحدث.

الآن فقط ميز قحطان أن الرجل الذي كان رأسه يُدق هو ناصر، في لحظته الأخيرة نظر له بعين عاجزة، ثم انفجر مخه.

كان قحطان أول من وصل المضارب، كل عابر كانت مستيقظة بانتظار الأخبار، صاح من فوره:

- «*الهرب، الهرب.. النجاة، النجاة*».

وفي لمح البصر تعالت أصوات النياح، والصراخ الهلع، وضج المكان بالهرج، والكل يجري بحثًا عن أولاده، يلملم متاعه، وتعلقت امرأة بإزار قحطان تسأله عما حدث فصرخ فيها أنه لا وقت إلا للهرب الآن.

استقبل خيمته السوداء، قفز من فوق سماء، دخلها فوجد خديجًا تنظر إليه بوجه ممتقع ففهم أنها قد خمنت ما حدث، وتكلم بصوت مبحوح:

- «*قومي فاجمعي ما تستطيعين*».

من دون كلمة وقفت، خفضت رأسها، وهي تغطي وجهها بيدها باكية، تجاهلها وأسرع يجمع إرثه من أبيه؛ عصاه، وعباءته، وإزاره الذي ارتداه مرة واحدة بليلة عرس، أما أهم ذلك الإرث فكان خاتمه وعليه وسم آل عابر القديم، قيل أنه وسم نوح نفسه، نظر إليه، ثم ارتداه

بنصر يده اليمنى. مسحت خديج وجهها، ثم بدأت تلملم حاجاتها، رآها وهي تضع رقعتيها بحقيبتها، حبرها الذي صنعته بنفسها من الدم، وأصباغ الورد..

تأملها.. تبدو الرقاع والأحبار ورموز الكلمات التي تضعها وكأنها أعظم ما بحياتها.

ولما انتهت سارت إلى منتصف الخيمة، عند الموضع الذي دفن فيه عبد الأعلم، جلست عنده، ثم سجدت فوقه فاردة ذراعيها، وجبهتها على الطين الذي دأبت على تعطيره كل يوم منذ دفن فيه. انتبه قحطان، ووقف ينظر لها، وقد لان قلبه..

قبلت تربة أبيها مترفقة، وهمست:

- *«وداعًا أبي»*.

ومن بعيد وصل المضارب صراخ مقتفي أثر تركه قحطان خلفه ليعلمه باقتراب شداد فعرف أن ملك عاد قد أمسك به! شد خديجًا وقال آمرًا: «الآن»، لكنها قالت والدموع لا تزال في عينيها: «سكينة!»، ففطن للمرة الأولى أنه في غمرة ذعره قد نسي أمه!

وتداعت المضارب في لحظات..

الخيام تهدمت بأيدي رجالها أنفسهم الذين حاولوا لملمتها وفشلوا، متاع الناس مبعثر، بقايا نار التدفئة، الأطفال في كل مكان يصرخون..

لن ينسى قحطان منظرها ذاك حتى يموت، كل عالمه، وعالم قومه كان واهنًا كأوراق أشجار صفراء سقطت حتى من قبل أن يشتد الخريف.

سأل نفسه، أكان يمكن أن يحدث هذا في إرم؟! أن تنقض في لحظات! محال.

عادت خديج، وفي يدها سكينة التي غلب غضبها خوفها، وجهها محمرّ انفعالًا، حملها من دون كلمات فوق سماء، وقفزت خديج خلفها، وصاح في قومه، وهو يشد لجام الفرس: «هلموا ورائي».

غاظه أن بعضهم لم يطعه، ونادى على عمه خالد، وابنته من ورائه، فأسرع نحوه شادًا ناقة مسنة..

نادى على الناس مرة أخيرة، كان أكثرهم لا يزال منشغلًا بجهازه وعياله، لكنه لم ينتظر، وانطلق من فوره وهو يلمح على مسافة الغبار التي لا بد أن خيل شداد ورجاله هو ما يحدثه.

التفت إلى المضارب مرة أخيرة، ثم انطلق إلى شق توبار حيث وادي ضحاء.

كانت المرة الأولى التي يتحرك فيها آل عابر جماعة خارج مضاربهم التي استقروا بها منذ

عهد الأجداد، وساد صمت مشفوع ببكاء الأسى، ممتدّ بين السماء والأرض كصلاة من دون كلمات.

صخر الجبل العظيم يقترب، رائحته ماء صخري خشن، مشوا حتى دخلوا الشق، داسوا في ماء ضحل من أثر المطر الذي لا ينقطع، واحمر وجه قحطان كأنه يحترق حين تذكر أنه نسي أن يضع ما جمعه من إرث أبيه على ظهر حصانه في ذروة انشغاله بالهرب، فلم يعد معه إلا خاتمه.. كره شدادًا كما لم يكرهه من قبل، وضغط بيده على ظهر سماء، وهو يعض شفتيه حتى صهلت مستاءة.

فجأة، وصلتهم أصوات الصراخ المعذب، والعويل من المضارب وقد دخلها شداد معملًا فيها الذبح، فكان هذا آخر ما بقي من ذكراها للأبد.

ثم انفتحت الأرض أمامهم باتساع عظيم، وفيها قبور عاد الهادئة إلا من صوت الريح.

«أين نذهب؟»، سألت سكينة فالتفت إليها ابنها، ميز في عين خديج أنها خمنت، فقال: «جبال الجن»، سمعه عمه فصاح فيه: «أجننت؟!»، فقاطعه قحطان:

- «*هو الموضع الوحيد الذي لن يدخله شداد*».

وشعر بغصة غضب تحتشد في صدره من إهانة عمه له أمام امرأته وأمه، لكنه كتمها.

هكذا اقتحم الحشد المهاجر القبور، لم ينزلوا عن عيرهم كعادة عاد عند قبورها، إلا امرأته التي نزلت ومشت، وحيت قبر أخيها لما جاورته، ومن بعده قبر أمها. تسارعت دقات قلبه خوفًا من أن يسمع إجابة منه لكنه لم يتلق إلا الصمت بينما يعبر بين شواهد الأضرحة حتى وصلوا إلى فوهات البراكين العتيقة التي تميز مقابر الجن.

توترت الخيل، وتباطأ الناس، لكن قحطان شد عقال سماء، وتابع مسيره، وببطء تكونت سحابة غبار حملتها الريح إليهم، خبيثة الرائحة، ثقيلة كغمامة ممطرة، صاحت النسوة تضرعًا إلى إيل أن يحميهن، وبكى أطفال وزُضع، وبدأ صوت صفير منذر يعلو، ذكره بأصوات نسور شداد، بينما أسرع خالد مقتربًا من ابن أخيه، وقال:

- «*حذار يا قحطان، سنهلك إن اقتربنا*».

- «*أخبرني إذن كيف أنقذ هؤلاء يا عم؟*».

أجابه قحطان مغضبًا، واستمر في مسيره، ثم شدته سماء للخلف رافضة المتابعة..

وسقط رجل عن بعيره، اندق عنقه في الأرض فهلك في لحظة، صرخت امرأته! ثم علا

الصراخ في الجماعة كلها.

التفت إليهم، سمع الكلمة المخيفة تتكرر: «الجن»، ومع اختلال نظامهم بالرعب تفرقت ماشية كثيرة هربًا، وارتطمت الخيل المذعورة بالنوق فسقط راكبوها، وسمع صوت تحطم العظام.

وترك قحطان عقال سماء، نادته خديج فلم يلتفت لها، مشى إلى الوادي رغم أنه يكاد لا يبصر شيئًا من الغبرة، دمعت عيناه من الرائحة لكنه تذكر الآن أين اشتمها من قبل، وصاح:

- *«أيها الحارث بن مطيف، أنا قحطان بن عابر، أنا من وهبك حياتك بعد أن قدر عليك».*

واشتد الدخان، بدأ يرى فيه أعينًا حمراء، وخيالات مشؤومة، وسمع صوت صراخ زوجته وأمه فعرف أن أيد العبث وصلت إليهما فصاح ثانية:

- *«أنا قحطان بن عابر أيها الحارث.. العهد، العهد».*

فجأة انقطعت اللمسات العابثة عن أجساد الناس، واختفت الخيالات المخيفة، وتوقف الصفير بينما تنقشع الغمامة الدخانية، ومن الوادي المحرم ظهر رجل طويل يتبختر في ثوب أبيض لم يُر مثله من قبل، ولو في أثرياء إرم.

مسح قحطان العرق عن جبهته، ومشى مقتربًا من القادم، كان ليبدو رجلًا كاملًا لولا بعض الغرابة في شكله..

غرابة وحشية الخلق، عينان طويلتان، بينهما مسافة أكبر من أي شخص آخر، أنف مختل النظام، أصابع يدٍ يمنى تزيد واحدةً أو اثنتين، وقياسات جسد غير متناسقة.

ركز الغريب عينيه على قحطان حتى وقف أمامه.

لم يتكلم، فتكلم قحطان، وهو يحاول أن يخفي رعشة يده.

- *«أنت الحارث؟».*

- *«لم أظن أنك ستلجأ إليّ بهذه السرعة!».*

- *«أحتاج حمايتك».*

- *«من ذبح شداد؟».*

- *«نعم».*

- *«ولم تركت جل قومك له؟».*

التفت قحطان خلفه ينظر من هرب معه فرأى أقل من ربع آل عابر، ولم تكن قد جاءته فرصة ليتفحصهم حتى الآن.

بصوت مبحوح سأل الجني: «كم قتل؟».

«الجميع»، أجابه الحارث بهدوء.

اتسعت عينا قحطان، وهو يرفع رأسه كاتمًا انفعاله، فتابع الحارث:

- *«كان عهدي إليك أنت، وليس لهؤلاء».*

- *«لا نجاة لي دونهم أيها الحارث».*

- *«وما يهمني إن هلكوا أو هلكت؟ تحدثني كأني من أحتاجك!».*

سكت قحطان، ورفع الحارث عينيه عنه يتفحص القادمين طويلًا ثم سأل:

- *«كيف تريدني أن أحميكم؟».*

- *«أدخلني الوادي».*

- *«تقيم بأرضي!».*

- *«نعم».*

- *«لأن شداذًا لن يدخلها!».*

هز قحطان رأسه، فقال الحارث: «صدقت وإن كنت من ذرية كاذبين، فلا يدخل هذه الأرض رجل إلا بأمري».

ثم اقترب من قحطان خطوات حتى ملأت رائحته أنفه، كتم قحطان أنفاسه، فهمس الحارث: «افتح أنفك، فإن هذه الرائحة ستلازمكم هنا»، وتابع: «سأدخلك، وأدخلهم، فإن عمري الذي أبقيته يساوي أضعاف أمثالكم».

زفر قحطان بارتياح، لكن الحارث قاطعه قائلًا: «اسمع شرط دخولكم أرضي، لا تسكنوا الوادي، إنما تسكنون الجبل، لا تسيروا رافعي رؤوسكم إلا بإذن منا، تضعون أنصبتنا من ذبائحكم بلحمها، فنأكل العظم أولًا ثم تجمعون ما بقي من لحم بعد أن ننتهي وليس قبل ذلك، لا نتبعكم أبدًا في الطعام».

وسكت لحظة وهو ينظر إلى عيني قحطان، ثم قال:

- *«وأن يعظم أمرنا في أنفسكم فلا تتكلمون عنا إلا بخير».*

سكت قحطان، أمسك لحيته بين أصابعه متدبرًا، حتى قال الحارث:

- *«أجب أو انصرف»*.

رمقه بحذر، وقال:

- *«موافق عليّ شرطك»*.

- *«هذا حسن، والآن اسجد لي»*.

- *«أسجد!»*.

- *«نعم، تسجد لسيدك، وسيد قومك. أنا أحق بسجودك هذا من شداد»*.

كتم قحطان غضبه، وإن نضحت عيناه به وقد احمرتا غضبًا، ثنى ركبتيه، وانحنى ساجدًا أمام الحارث، فتعالى صوت ضحكات عابثة من ناحية الجبل لم تلبث أن اختفت لما قال الحارث: «ادخلوا الجبل بسلام».

وتوقف قحطان، رفع عينيه إليه فلم يجد شيئًا إلا شؤم السجدة في نفسه.

أدمت تلك السجدة عزته، وستدميها عمرًا من بعد.

ورفع يده في هدوء مشيرًا لقومه أن تقدموا.

***

هكذا بدأت عابر جديدة بالجبل، بعيدة عن علم وبطش شداد الذي طاف الأرض مهلكًا أقوامًا، جالبًا العبيد والكنوز، بانيًا القصور العالية التي بارزت قمة توبار في العلو.

وتوسعت المدينة، فامتد البناء خارج سورها العتيق حتى شمل مضارب عابر القديمة، وأمر شداد فجعل السوق، ومراعي آل غانم، والورش خارج السور، ثم بدأ بناء سور جديد دار حول المدينة الكبرى شاملًا المضارب والأحياء الجديدة.

وفي ربيع العام التالي، بدأ بناء مدينة جديدة بالموضع الذي سَبح فيه للمرة الأولى وفقد عصاه واستردها.

ورضيت عاد عن ملكها، فخمدت الثورة بعد مذبحة الصعاليك بالجبل، وقتل كثيرون من آل الضحاك وغانم، وفشى المال من ماشية وعبيد وذهب فاغتنى أكثر عاد، وارتدوا ثوب العزة تامًا يتبعون شدادًا، الملك الذي لم تشهد عاد مثله من قبل.

وطارد مشهد المضارب القديمة قحطان، فكان يراها في كوابيسه تحترق، وتتحطم في

لحظات قبل أن يصل إليها شداد، كأن لم تكن، ماحية معها آثار أجيال من عابر سبقتهم، وتمخض ألمه عن فكرة شغلت تفكيره، وهي بناء مساكن من حجارة فوق الجبل بدل الخيام!

ولم تفارقه الكآبة التي أصبحت سمته، تراها في تعبيرات وجهه، وطول صمته، وزهده في الاستئناس بالناس.

وبسرعة اكتسبت خديج سمعة طيبة، ومكانة مبجلة في عابر، كحكيمة ذات رأي سديد، وصديقة مخلصة لكثير من النسوة.

وفي إحدى المرات، بطريقه عائدًا من رحلة صيد خلف جبل الجن، حاملًا غزالًا صغيرًا على ظهره، اعترضت إساف ابنة عمه خالد طريقه فحياها دون أن يتوقف، لكنها حدقت به، ثم اقتربت منه ماسة ذراعه فشعر بسخونة مفاجئة، وتوقف مكانه رافعًا عينيه إليها.

كانت جميلة، ربما تكون أجمل فتيات آل عابر، جسدها نافر متناسق، في تعابيرها لمسة لؤم أو إغواء، مثيرة في الحالتين. مباشرة نظرت إلى عينيه وقالت: «لا يجب لمثلك ألا تكون له ذرية».

تسمر مكانه متعجبًا من جرأتها، فتابعت، وهي تقترب أكثر:

- *«يا سيد آل عابر، انظر إلى نفسك، لم تنجب عشيرتنا رجلًا بمثل قوتك».*

ثم اقتربت حتى مس صدرها ذراعه، وهمست:

- *«وانظر إليّ يا قحطان».*

تراجع للخلف، وهو يشعر بالنار في جسده، ابتسمت، وهي تلحظ احمرار وجنتيه، وعجزه عن الكلام.

- *«خيمة عمك قريبة، سيكون سعيدًا بك، إن تجرأت أن تأخذني».*

تلك الظهيرة، حين دخل إلى خيمته، وجد خديجًا تنقش في رقعتها، ابتسمت لما رأته، وقال هو متحاشيًا النظر إليها:

- *«غزال بالخارج».*

- *«صفيت دمه؟».*

سألت باهتمام، فهز رأسه، وهو يمد يده بإناء حجري امتلأ دمًا من أجل الكتابة، تناولته ووضعته بحرص إلى جوار رقعتها، وقالت:

- *«سخنت ماءً من أجل قدميك».*

- *«كيف عرفتِ موعد عودتي؟».*

- *«شعرت به».*

قالت ببساطة، وهي تساعده على فك إزاره المتسخ.

- *«أتعلم يا قحطان، أفكر أن أجمع أبناء عابر، وأعلمهم لهجة عاد، كلماتهم، وأغانيهم، وربما أعلمهم كذلك رموز الكلمات».*

- *«أي رموز؟».*

سألها، وهو يجلس على مصطبة حجرية ماذّا قدميه.

أسرعت إلى رقاعها وانتقت واحدة نقشت عليها رموزًا لم ير مثلها من قبل.

ميز الرقعة سريعًا، لأن رسوم خديج جاورت الرموز القديمة التي كانت عليها حين وجداها، رقعة رمل.

أشارت إلى أحد رموزها، وكان يشبه ثعبانًا مقلوبًا له رأسان وقالت: «هذا رمز صوت آآ»، ثم وضعت إصبعها على دائرة تامة، وتابعت: «أما هذا فصوت عا»، تابعها وهي تتلو الأصوات عليه، ولم يعقب.. سكتت، وأعادت رقعتها إلى موضعها، حملت طست الماء، وجلست عند قدميه، فبدأت بيمينه تغسلها.

- *«لم تريدين أن يتعلم أبناء عابر لغة قومك؟».*

قالت، وهي تشطف أصابعه بالماء، وتضغط بقوة أسفلها، وعلى وجهها ابتسامة حالمة:

- *«وفرة الكلمات والمعاني، هنا تطلقون الاسم الواحد على أشياء كثيرة، ولا يمكن أن تعبروا عما تشعرون به، لأنه لا اسم لكثير من ألمكم. ألا ترى الرجل يشير إلى قلبه حين يشعر بشيء لا يمكنه وصفه؟ كما أنه لا أغاني هنا».*

ابتسم لها، وهمس:

- *«لا تزالين أنتِ هي أنت. تحبين إطلاق الأسماء على الأشياء».*

رفعت عينيها إليه مبتسمة والماء ينقط من قدميه بين يديها..

سألها:

- *«فما اسم ما أشعر به منذ جئنا إلى هنا؟».*

أجابته من فورها دون أن تنظر إليه:

- *«الوحشة»*.

ابتلع ماء حلقه، بدت له الكلمة تامة في وصف ما يشعر به. سكت لحظات ثم قال بلا مواربة: «أريد ذرية يا خديج».

شحب وجهها، همست بصوت مبحوح كالمعتذرة:

- *«تقول أمك أنها تصلي لايل من أجل ذلك»*.

«لا يا خديج»، همس وهو يكمل: «سأتزوج مرة أخرى».

***

لم يقم قحطان غرسًا، ولم يولم، أغاظ ذلك عمه خالدًا لكنه وافق بالنهاية.

وجعل قحطان لإساف خيمةً جديدة من وبر جمل محمر، تبركًا بما كانت عليه خيمة أبيه.

لم تبارك أمه زواجه، ولم يرها يوم عرسه، أما إساف فقد دعت إلى خيمتها الجديدة كل صواحبها، وقدمت لهن الحلوى، والماء المحلى بالعسل الجبلي، فعلا الغناء والرقص في الخيمة وما حولها.

وحيدة، جلست خديج، أمامها الرقاع، وقد فردتها كلها، تمس بإصبعها دم الغزال دون أن ترسم به..

كانت أنفاسها ثقيلة، وقلبها مهمومًا، وكأن فوقه جبل الجن بأحجاره السوداء.

نظرت إلى رقعة رمل، وصوت اللهو يصل إليها من الخارج.

وجدت نفسها تقارن بين رموز تلك الرقعة، وبين ما جعلته رموزًا لأصوات عاد، فاندهشت وهي تلحظ للمرة الأولى أن بعض رموزها تماثل بعض ما نُقش على الرقعة القديمة، ثم نبض قلبها بعنف واكتشاف هائل يضيء عقلها بما يشبه الوحي!

قال لها عقلها، أو قلبها، بأنه إن كان هناك من خلق الكلام فلا بد أنه الرب نفسه، ولأنه جعل كل الناس يتكلمون بنفس الطريقة، باللسان بعد أن يفكر العقل، فلا بد أنه إله واحد، لأنه لو كانوا آلهة عدة لجعل كلٌ منهم لنفسه فريقًا من الناس يتحدث بطريقة تختلف عن الآخرين، وبغير الفم، كل إله سيحب أن يُبدع، ويُظهر قدرته بشكل مختلف عن غيره.

لكن كل ولد الإنسان، من بدو وعاد وعابر، يتكلمون بنفس الطريقة..

«إله واحد!»، همست بانفعال، وهي ترفع عينيها عن الرقعة، وانفجرت ضحكات نسوة بالخارج، أما هي فقد خفضت رأسها مبتسمة، وهي تنفجر في بكاء المعرفة.

وجاءها صوت إساف عند بابها، تناديها قائلة: «أدخل يا ملعونة!».

فأسرعت تمسح دمعها في كمي ثوبها، ووقفت مستجمعة أنفاسها، ثم فردت ظهرها، ورفعت رأسها مجيبة بصوت لا أثر للبكاء فيه:

«ادخلي يا إساف».

أزاحت إساف ستر خيمتها، كانت ترتدي ثوبًا مصبوغًا بالأحمر والأصفر، وقد تركت شعرها حاسرًا، وتحنت برسوم نباتية من أطراف أصابعها حتى ما خفي تحت ملابسها.

«ما هذه؟»، سألت، وهي تنظر للرقاع بلهجة ساخرة، أرادت خديج أن تجيبها بما يقطع عبثها، لكنها حارت في الإجابة كطفلة تكلم بالغًا، سكتت، أما إساف فرفعت عينيها إليها، وقالت:

- *«حزينة يا خديج!».*

لم تجبها، فاقتربت منها، وتابعت:

- *«ألا تتساءلين، خاصة الليلة، عن زواجك من قحطان أيتها الملعونة؟ ألا ترين أنه كان خطأ؟».*

أبعدت خديج عينيها عنها، للحظة فكرت في سبها، لكنها لم ترد أن تغضب قحطان ليلة عرسه، وتابعت إساف:

- *«لم لا ترجعين إلى إرم؟ فإني لن أدع قحطان يقربك بعد اليوم».*

- *«إساف!»، فتحت عينيها بذعر، والتفتت إلى مدخل الخيمة فوجدت سكينة الغاضبة عندها. بهتت، وتلجلجت، وهي تقول: «كنت أواسي الملعونة».*

- *«وحق إيل لا ملعون إلا أنت».*

قالت سكينة، وهي تتقدم داخل الخيمة، وتمسك بذراعها، ساحبة إياها للخارج فصرخت:

- *«أنت توجعينني!».*

- *«لو رأيتك في هذه الخيمة ثانية، لأحرقن قدمك هذه حتى تعجزي عن الوصول إليها من بعد».*

رفعت إساف عينيها إلى حماتها، وقالت بشراسة:

- *«أنا قريبتك، وليست هي».*

- *«هي ابنتي. فحذار أن تقربيها».*

ختمت سكينة، وهي تدفع إساف خارجًا، وتشد قماش الخيمة من ورائها.

وقفت لحظات، ثم التفتت إلى خديج، وفي عينيها دمع محبوس، فاقتربت من حماتها، ومسحت على كتفها، فهمست لها سكينة:

- *«أنت بخير!».*

- *«أنا بخير ما دُمتِ كذلك يا أم».*

احتضنتها المرأة، بكتا معًا.

وللحظة شعرت خديج بمواساة علوية.

وكأن قلبها قد سقط في يد الإله الواحد الذي اكتشفته.

***

بأحد أحياء المدينة، خرج شاب يُسمى هودًا، وكان أول من سُمي بهذا الاسم في إرم، أسمر، قسيم الوجه، له عينان عميقتان بهما حزن ونبل أصيل، يطوف بالسوقين الجديد والقديم، داعيًا عادًا إلى عبادة رب جديد يقول إنه أقدم من كل شيء مخلوق، وأنه يوحى إليه كي يبعث برسالته إلى قومه، ويمتنع ومن معه من أصحابه عن دخول المعابد، أو الاحتفال بساحاتها. حذرت كاهنة بغاء شدادًا منه، لكن الأخير رأى فيه طرفة غريبة لا خوف منها، فتركه كأحد تحف مدينته.

مرت على خروجه أعوام، لم ينجب فيها قحطان بعد زواجه من إساف، فأصبح حديث أولاد عابر في النحس والعجز، وتأرجحت إساف بين نوبات حب مجنون، ونوبات غضب هادر وكأنها ممسوسة، فكره عشرتها، وانتابه حنين شبحي إلى أيامه الأولى الهادئة برفقة خديج لكنه كان يصد ذلك الحنين بكراهية استخلصها من كراهته لقومها، وانقطع عن زيارتها إلا فيما ندر تجنبًا لإغضاب إساف.

لكنه اجتهد في حكم عابر، فسعدوا به، ولأن مشهد المضارب وهي تنهدم مثل بيت عنكبوت لم يتركه في كوابيسه، فقد اقترح أن تبنى بيوت عابر من حجارة.

لم تكن الفكرة غريبة على قومه، وقد جاوروا إرم أحقابًا، لكنهم لم يتخيلوا أن يقوموا

بمثلها.

وبدأ البناء الأول.

أراده قحطان صغيرًا، وقال إنه لن يُسكن، إنما سيكون معبدًا للإله إيل، ومثالًا لما يبنى بعده.

هكذا قص الرجال الأحجار من الجبل، ورصها آخرون متجاورة لتكون قاعدة البناء الجديد، وجعلوا بينها الطين، وتركوها لتجف.

وباليوم التالي، حين ذهب قحطان يتفقد البناء، وجد الأحجار مبعثرة، كأن لم تكن بالأمس!

وتكرر الأمر مرات، كل ليلة يترك البناء، وفي الصبح يكون قد تهدم.

حقق في الأمر، ولما تيقن أن أحدًا من عابر لم يفعلها، قال لنفسه: «هذا عبث جن».

وفي ليلة شتوية باردة، أسفل الجبل، عند قبور الجن، جلس وحده وقد استدفأ بنار منتظرًا بصبر، حتى اقترب الفجر فأقبل الحارث في ثوبه نفسه، وجلس عنده، والنار تلقي بظلالها عليه، فتصبغ وجهه بلونها.

- *«لا تريدنا أن نبني؟»*.

سأل قحطان، وهو يمد ذراعه بأغصان رطبة في النار.

- *«لا تزال أبتر يا قحطان»*.

قال الحارث ساخرًا، فرفع قحطان رأسه إليه بغضب، بينما تابع الجني:

- *«لم يكن العهد بيننا على ذلك»*.

- *«لم تُبِحه، ولم تمنعه»*.

- *«كل ما لم أنصص عليه بعهدنا ممنوع يا مقطوع النسل»*.

زفر قحطان، حاول أن يتمالك نفسه لكنه تمنى لو حطم رأس الجني، هز رأسه، وهو يعتدل ليقوم قائلًا:

- *«فهمت»*.

بهدوء قال الحارث: «اجلس!»، فكاد قحطان يتجاهله، فتابع الآخر:

- *«إياك أن تنصرف من مجلسي دون إذني».*

جلس قحطان كاتمًا غيظه، فقال الحارث:

- *«مثل عهدنا السابق يا قحطان، هناك شرط إن أردت بناء مساكن من حجر».*

تابعه قحطان بعينين ثابتتين.

- *«كل بناء حجري بجبلنا، يحق لنا دخوله، زيارة أهله، والمكوث فيه».*

«لا!»، قال قحطان بحزم، فرفع الجني يده أن انتظر، وتابع:

- *«إن سمح لنا أهله بفعل ذلك».*

رمقه قحطان، وهو يستوعب قوله، بدا معقولًا، لن يدخل الجن دارًا إلا بإذن من صاحبها، وسأله ليتأكد:

- *«لن تدخلوا بيتًا لنا إلا بإذن من صاحب ذلك البيت، هذا ما تعهد به؟».*

- *«نعم».*

- *«فإن أبى صاحب البيت؟».*

- *«لا ندخله».*

تأمله لحظات، وبصوت مبحوح سأله:

- *«إلام ترمي أيها الحارث؟».*

هز الآخر كتفيه، وقال ببساطة:

- *«حسن الصحبة يا ابن نوح».*

- *«بيننا وبينكم!».*

- *«بيننا وبينكم».*

- *«إذًا أدخلنا دوركم أيضًا».*

- *«لن تتحملوا دخولها».*

- *«إن تعاهدنا تتركني أبني من غد؟».*

- *«نعم».*

- *«والمعبد! ليس له صاحب»*.

- *«لن تبني معبدًا على الجبل، فقط الدور من أجلكم»*.

نظر قحطان إلى الجبل متدبرًا، ثم قال: «لنتعاهد على ذلك».

ابتسم الجني قائلًا: «نتعاهد الليلة، وتبنون غدًا».

هز قحطان رأسه موافقًا.

وابتسم الحارث للمرة الأولى، وهو يقول: «غدًا، أرسل هدية إلى زوجتك».

مستنكرًا قال قحطان: «هديةً إلى إساف!».

«خديج»، أجاب الجني بجدية، وانطفأت النار بينهما فعم الظلام.

***

من قبور الجن خرج شاب لم يُر من هو أجمل منه، له أجساد عاد المبهرة، شعره طويل؛ بُني ذو حُمرة مثل لحاء أشجار السرو، مضفر كالنساء، أنفه دقيق، ولحيته ذهبية خفيفة، لا يرتدي إلا إزارًا أبيض، صعد الجبل، وهو ينشد أبياتًا متناغمة تنتهي أواخر كلماتها بأصوات متشابهة لها نفس اللحن فيما سيعرف بعد ذلك في قرية عابر بالشِعر.

التفت حوله النساء والأطفال أولًا، منبهرين بشكله وشِعره رغم أنه كان بلهجة عاد، أما هو فلم يخاطب أحدًا، فقط أنشد، وهو يمشي كالمسحور بين الناس.

إلى خيمة خديج سار والناس من خلفه، يسألونه عن أهله، عن اسمه، عن مقصده فلا يجيب.

وبينما كانت وحدها في خيمتها تهمس بحروفها المكتوبة على الرقعة محاولة قراءتها، لمحت ظل رجل على قماشها فوقفت منتصبة، وكان قحطان قد انقطع عن زيارتها منذ زمن، ثم فتح الغريب بابها القماشي، ودخل فصرخت وهو يقف كالمندهش ينظر إليها، لكن شعورًا باطنيًا لجمها، وهي تبادله النظرات، وهو يقول هامسًا:

- *«أعرف هذا الصوت..*

كنت أسمعه وأنا مقبور».

تسارعت أنفاس أخته، وعيناها تزرفان الدمع، وقالت بصوت باكٍ:

- *«رمل!»*.

وتسامعت كل عابر بالقصة الساحرة للميت العائد، وفي الظهيرة وجدت خديج قحطان يدخل خيمتها، فعدلت ثوبها، وقلبها يدق بقوة وهي تنظر له يجلس دون أن يخلع عباءته.

تفحصته للمرة الأولى منذ أشهر، لم يعد هو، نحل كثيرًا، وبدهشة رقيقة ميزت شعرات شائبة في جوانب لحيته، كانت أكبر منه سنًا لكن شعرها فاحم السواد بلا شيب.

مدت يدها له بقدح لبن تناوله منها. هز رأسه شاكرًا، صمت قليلًا ثم سأل دون أن ينظر إليها:

- *«تتكلم عابر عن عودة أخيك»*.

هزت رأسها، وهمست:

- *«كان هنا هذا الصباح»*.

- *«أهو رمل حقًا؟»*.

- *«نعم»*.

- *«من دون كل عابر، أعرف أنه كان هناك أمر عجيب عند قبره، لا أزال أذكر ذلك اليوم معك، لكني لا أفهم كيف يقوم حيًا من موته»*.

وقفت غير بعيد عنه، وقالت:

- *«لم يمت»*.

رفع إليها عينين حائرتين، للحظة ميزت فيه قحطان القديم، الشاب الجميل الذي يسمع لها كطفل.

- *«لم يمت بذلك العهد، إنما سحره الجن حتى دُفن، ثم تعهدوه بالرعاية، وعلموه لغتنا، وما ينطق به من شِعر. لم أسمع رجلًا من عاد يتكلم لغتنا مثله»*.

- *«ما الشعر؟»*.

- *«كلام له نغم، كأنه غناء القلب»*.

- *«فهو غناء إذًا!»*.

- *«ليس دائمًا»*.

- *«كيف؟»*.

- *«يستدعي الغناء صوتًا رقيقًا ولحنًا كي يؤثر في السامع، أما الشعر فقوته الكلمة فقط»*.

خفض زوجها رأسه متفكرًا، هذه إذن الهدية التي تحدث عنها الحارث ليلة أمس، سأل نفسه: لم أخذوه، ولم يعيدونه الآن؟

جاءته الإجابة من خديج التي طالما استطاعت قراءة ما يفكر فيه من دون أن ينطقه.

- *«قال لي رمل، أنهم أخذوه من أجل أن تكون بداية صداقة بين الجن والإنس. أرادوه أن يكون منا ومنهم، وكانوا يطمعون أن يعيدوه إلى إرم قبل موت أبي، فيحكمها من بعده، ويكون بداية عهد وفاق الجن وعاد. واليوم يعيدونه لأن ملكهم أخبرهم أن تلك الصداقة ستحدث من دونه»*.

امتقع وجه قحطان وهو ينظر لها، بدا خائفًا.

ومن الخارج وصل إليهم صوت رمل ينشد شعرًا للأحبة. أرهف قحطان سمعه، ثم انصلح حال وجهه وهو يهمس قائلًا:

- *«ما أجمل هذا الكلام!»*.

ولمح بعض رقاع زوجته، فأشار إليها سائلًا:

- *«ألا زلت تفعلين هذا؟»*.

هزت رأسها بنعم، وقالت:

- *«ليتك تُعلم الناس كلام عاد، وكتابتي»*.

فقال، وهو يناولها القدح متوقفًا:

- *«لا حاجة لهم بهذا.. ألا ترين فيما انشغلوا؟»*.

- *«تقصد البناء!»*.

- *«نعم، وقريبًا أبني دارًا لك أيضًا»*.

- *«لا أريد واحدة، أنا راضية هنا»*.

تأملها بصمت، رأى أنها تتحاشى النظر إليه الآن فأشفق عليها، هو نفسه يبغض أن يرى وجهه، لم يفعل منذ وقت طويل، سألها مترفقًا:

- *«كيف أنت يا خديج؟»*.

أجابته بصوت خافت، وهي تحاول أن تخفي صوت دقات قلبها: «بخير، لا تتركني أمك».

ودون أن تلتفت إليه، وجدت نفسها تضعف، وتسأله: «وأنت كيف أنت؟».

لم يجبها، فقط عدل عباءته حول جسده الناحل، وخرج بلا كلمات.

***

تعد «زهرة» محظوظة إذا ما قورنت بأي من فتيات آل عابر.

فقد تزوجت بأحد أعظم رجالها، خالد عم قحطان، ومثيله في القوة، وذلك أن الرجل الذي ماتت زوجه منذ زمن، أراد أن يتخذ زوجة شابة فاختارها.

ولأن خالدًا مولع بالبناء، فقد بنى لها دارًا فسيحة، رغم ما عرف عنه من بخله، عدها الناس أكبر بيت بالقرية.

أحزنها كثرة انشغاله، وعودته المتأخرة بعد مغيب الشمس، وطبعه الحاد ساعات غضبه، لكنها عاشت معه حياة هادئة.

وفي يوم دافئ خلعت ثوبها لترتدي سترة جديدة تزور بها أمها، فسمعت صوتًا يهمس بصوت حالم:

- «*ما أجملك!*».

تجمدت من الخوف، ثم أسرعت تستر نفسها بالثوب، وهي تتلفت حولها بحثًا عن صاحب الصوت، فسمعته يقول من جديد:

- «*لم أرَ إنسية بهذا الجمال. دعي عنك ثوبك*».

كانت الآن ترتجف ذعرًا، قالت بصوت مرتجف:

- «*من أنت؟ أين أنت؟*».

فأجابها الصوت:

- «*أنا الولهان، إن أمرتني جثوت تحت قدميك، وإن أمرتني خرجت*».

هتفت، وهي تنتحب:

- «*نعم! اخرج الآن*».

«حسنًا»، أجابها وتابع:

- *«سأخرج، ولن أعود، فقط اقبلي هذه مني».*

شعرت زهرة بسخونة في يدها، فتحتها لتجد بها قلادة مبهرة صنعت من ذهب شديد الصفرة، كأنه شمس صغيرة، قطعها منقوشة بطلاسم غير مفهومة لكنها ساحرة، وفي أوسطها كرة عقيق أخضر!

تسمرت عيناها عليها بينما كانت لا تزال تقول:

- *«اخرج، اخرج أرجوك».*

لم يجب، ولم تسمع صوتًا، طافت بيتها بحثًا عنه، كرهت اتساعه الآن، ولما لم تجد أحدًا عادت إلى غرفتها، وجلست على حصيرها تنظر إلى القلادة مأخوذة بجمالها. وجدت نفسها تتساءل، «كيف سأريها لخالد، ألن يأخذها مني؟».

هكذا غادر الجني لكن شيئًا غريبًا بقي بعده..

ذلك الشعور..

الشعور بأن ولهانَ هناك.. متيم، ينتظر، يمتدح جمالها دون أن يلمسه، ويهديها أجمل شيء صنعته يد إنسان أو جني.

تمنت لو استطاعت أن تريها للجميع فيسحرون بها مثلما فعلت، لكنها خبأتها إلى حين.

وسألت نفسها، كيف يبدو ذلك الولهان؟ ولم لا تتكلم معه؟ ألم يستمد قحطان سلطته من علاقته بكبير الجن؟

وفي أمسية غاب فيها خالد مرافقًا ابن أخيه برحلة صيد استمرت أيامًا، وجدت نفسها تهمس بين خوف وإقدام وكأنها تسأل:

- *«يا ولهان!».*

وحضر ولهان.

ولم تكن قصته مع زهرة هي الوحيدة، إنما طاف ذكور الجن على نساء عابر، حاصروهن بالحيل، والفسق، فضربت الشهوة الماجنة الدور الحجرية للقرية.

كان التلاقي بين صنفي الخلق يتم في الأحلام، ورؤى اليقظة، مفعمًا بالفُجر والخلاعة، كتمته النساء عن أزواجهن، بل وعن بعضهن، واستمتعن به، لكن كثيرات تكلمن عنه بخوف التقوى، ففشت القصة بين الناس، وتعالت الشكاوى من الرجال من تأوهات نسائهم، وهن نائمات، وغناؤهن أبيات الشعر الماجنة، وهروب بعضهن تاركاتٍ دورهن إلى كهوف جبل الجن

بحثًا عن المتعة الشبحية الدائمة.

ودخل ذاك الأمر في جملة الهموم التي حملها قحطان، لكنه ظل بلا تفسير.

كان الرجال يَرِدون عليه فيهمسون له شاكين زوجاتهم، بمن فيهم عمه خالد الذي فكر بأن يرسل امرأته الجديدة إلى دار أهلها، لكن قحطان لم يستطع أن يواجه، أو يعالج أمرًا لا يراه، ولا يفهمه.

ودخل داره ذات صباح يغتسل من طين أغرقه بينما كان يعمل مع الرجال في حفر بئر قريبة من سفح الجبل، فسمع صوت إساف تتأوه من خلف جدار غرفتهما.

ابتلع ماء حلقه، والعرق يحتشد على جبهته، وضع يده مستندًا على الحائط، وتقدم نحو الغرفة، فرآها تتلوى في فرشتهما بنشوة غامرة، كامل ثوبها عليها، لكن رائحة عطرها وصلت إليه.

لم ير أحدًا معها!

اقترب، وهي لا تدري به حتى وقف عند رأسها فسمعها تهمس لشيء لا يراه: «أنت رَجُلي»، ثم سمع صوتًا ذكوريًا غريبًا عنه، كأن به بحة عواء ذئبي، يقول متروئيًا: «حاذري فقد جاء فحلك».

فتحت عينين متعبتين فوجدت قحطان عندها، وكأنه الموت ينظر إليها مباشرة، فانزاحت عن فرشتها مذعورة، وهي تتلمس صدرها كأنها تتأكد من وجود ثوبها، وتلمس قحطان موضع سكينه حتى ارتاحت يده على مقبضه، ثم قال بصوت كالفحيح:

- *«ما كان ما رأيت؟»*.

نظرت إليه راجية وقالت متلعثمة:

- *«وماذا رأيت؟»*.

أجاب غاضبًا:

- *«تكلمي بالحق يا امرأة قبل أن أنحر عنقك»*.

فأجابته متحدية، وقد عادت إلى طبعها القديم:

- *لم تر شيئًا، ألا تراني مستورة؟! تحاسبني على حلم؟»*.

قال، وهو يقترب منها بينما تقف منتصبة:

- «*ما كان حلقا، سمعت صوت الرجل*».

- «*أنت تخرف*».

قالت، وهي تهم بمغادرة غرفتها، وفي لحظة كان قحطان عندها، دافعا إياها إلى الحائط الحجري، فترتطم به صارخة بينما يطبق على عنقها بيده الغليظة، ووجهه يشتعل بالغضب.

رُفعت إساف عن الأرض بذراعه وهي تختنق، وهمس:

- «*أقسم أن أضع سكيني بعنقك الآن إن لم تتكلمي بالحق*».

حاولت أن تفتح فمها فلم يخرج منه إلا لعاب، شعرت بخاتم أبيه في يده يخنق أوسط رقبتها، وأرسلت يديها إلى وجهه تخمشه مثل هرة محاصرة، فقذف بها إلى ركن الغرفة. سقطت مرتطمة بإناء بوله، وهي تشهق أنفاسا متلاحقة. وقف فوق رأسها، وفي يده سكينه فرفعت يدها محتمية، وصرخت: «الجن!».

تسارعت أنفاسه، وللحظة تمنى لو يجلس قبل أن يسقط، لكنه عاد يأمرها:

- «*أخبريني بكل شيء*».

بكت، وهي تنثني على نفسها من ألم جسدها، وقالت:

- «*لست وحدي، دخل الجن كل بيت من حجر بالجبل يا قحطان*».

- «*وماذا فعل بالنساء؟*».

- «*رافقهن*».

صاح غاضبًا:

- «*ما يعني رافقهن؟*».

- «*يعني عاشرهن*».

صاحت محطمة، وغرقت في بكائها.

وانسحق قحطان، شعر كأن روحه تنسحب منه، تراجع خطوة، ويده تشتد على مقبضه، صرخت، وهي ترى نهايتها في عينيه، اقترب منها ببطء، وقد نوى.

«دعني»، صرخت بفزع، «أطلقني لأبي».

- «*ليس بعد ما فعلت*».

قال بهدوء، وهو يمسك بصدر ثوبها ساحبًا إياها، ثم يدفعها على وجهها إلى الأرض ليذبح، فصرخت مرة أخيرة:

- *«تقتلني يا قحطان! وقد أنقذتك والملعونة زوجتك من قبل!»*.

توقف لحظة فتابعت بسرعة:

- *«أنا.. أنا من دفع يلوذ من فوق برج بغاء بعدما رآكما تعبران السور على ظهر نوقكما. أغويته بالمجيء إلى المعبد ليلًا، وقتلته كي لا يخبر عبد الأعلم فيقتلها، ويقتلك.. والآن.. الآن يا قحطان، يا ابن عمي، تريد أن تقتلني من أجل حلم مع جني؟ ألم تكن أنت من جئت بنا إليهم؟»*.

سحب يده عنها، أفلتها بعد أن تمزق ثوبها بيده، تأملها لحظات، ثم وضع سكينه في غمده، وقال:

- *«غادري الآن، لستِ زوجًا لي من الساعة، وإن عدت يا إساف إلى هذه الدار، قتلتك»*.

وفي ذاك اليوم، نزل قحطان من الجبل إلى الوادي، سار حتى وصل الخرائب حيث يُلقي السيل بالحجارة، والأشجار الميتة، والعظام، وباقي القرى المنهدمة، نادى على الحارث وانتظر.

انتظر طويلًا، حتى رآهم، جمعٌ مشؤوم يقترب منه، يتقدمهم الحارث في شكله الآدمي الغريب.

التفوا حوله، بينما اقترب منه الحارث، وانتصب أمامه، وهو يقول ساخرًا:

- *«ما أكثر ما تطلبني يا قحطان!»*.

- *«أنت من ألجأني إلى هذا أيها الحارث»*.

ابتسم، وقال عابثًا:

- *«ولم؟ هل حدث ما تكرهه؟»*.

- *«ألا تعلم؟»*.

- *«أحب أن أسمعها منك»*.

قال الحارث ثم أضاف ضاحكًا: «تجعلني أشعر بفحولتي».

صمت قحطان، وهو ينظر إلى وجه الجني متفحصًا، فتغير وجه الحارث وكأنما أصبح

داكنا، وقال:

- *«ما يمنع أن تستمتع نساء عابر بذكورنا؟ ألسنا جيرة واحدة؟»*.

ضحك من حوله، فقال قحطان غاضبًا:

- *«ما دامت هذه جيرتك، فاجلب لنا نساءكم نمتعهن وأنا ضمين لك ألا يشتكين»*.

اربد وجه الحارث. اقترب برأسه من قحطان كاشفًا عن أسنان صفراء صغيرة، فقال قحطان دون أن يتراجع:

- *«لا تبدو لي أسنانك مثل أسناننا بعد، لا أزال أرى فيها أنياب الكلب الذي خنقته، وهو يأكل الجيفة حتى بال على نفسه»*.

ضُربت عمامة قحطان فسقطت، ثم تلقفته أيدي الرجال من حوله، خلعوا عنه عباءته، ثم رفعوها مغطين بها رأسه، وصفعته يد على عنقه، وأخرى على قفاه، وثالثة على مؤخرته، بينما تلمست أصابع عابثة مواضع حشمته، قبل أن يُدفع فيسقط على الأرض عند قدمي الحارث الذي نظر إليه محتقرًا، وقال:

- *«إياك يا صنيعة الطين، يا خطأ الرب، أن تذكر أسيادك بسوء»*.

تراجع قحطان، وهو يفك عباءته عن رأسه قائلًا، وهو ينهج:

- *«أنت تخون العهد أيها الحارث»*.

- *«لم أخن عهدي أيها الوسخ، تذكر أنك التجأت إلي لتقيم خيام قومك بأرضي، لكني لا أنفك أراك، وقومك تبنون الدور بالصخر، وتعيشون بجبلي كأنكم تملكونه»*.

وانحنى إلى الأرض حتى لامس أنفه أنف قحطان، فشعر الأخير أنه على وشك التقيؤ من ريحه، ورأى أنه ينظر في كتلة سوداء غير مفهومة غير الشكل القديم الذي اعتاد عليه:

- *«نعم، سينكح رجالنا نساءكم، وسنفعل بكم ما نريد، هن يدعوننا إلى دورهن، ونحن نلبي»*.

ثم وقف معتدلًا، وبصق على قحطان، وقال خاتمًا:

- *«ما أخزاك! قل لي، من يجيرك مني الآن؟»*.

للحظة كاد قحطان يقول «إيل»، لكنه صمت، والجمع يغادر.

كان مجيء سكون باليوم التالي، ملتحفًا بجلد نمر أسود، وقد استطال شعره حتى لامس

منتصف ظهره، وتخلله بعض شيب.

سار إلى دار ابن أخيه مباشرة، وحين جالسه، سأله:

- «متى؟».

- «متى ماذا؟».

- «متى تقاتل الجن؟».

تأمل قحطان عمه من دون كلمات، ثم قال هامسًا، وهو يقرب فمه من أذن عمه:

- «أذلك ممكن؟».

فهز الأخير رأسه بنعم، وهو يبتسم.

***

لا يُعرف تحديدًا ما الذي بدأ به آل عابر نضالهم ضد الجن.

قيل أن أوله كان إشعال النار في خرائب الجبل حيث ينامون، وقيل بل كان العبث بقبور صبيحة أول ما بدأ به قتالهم.

قال آخرون إنه بدأ بمنع رمل من العودة إليهم، وكان يبيت كل ليلة في خرائبهم، وهو عهده لهم حين أطلقوه.

وقيل أيضًا إن القتال بدأ لما أمر قحطان كل آل عابر أن يتبولوا على عظام ما يأكلونه، ويمسحوا به خراهم، وروث بهائمهم.

لكن حُمى مواجهة الجن انبعثت في قلوب الرجال، وألفت الأشعار؛ أداة الجن في هجائهم، وعلا سبهم في طرقات القرية، بل إن الناس غيروا اسم الجبل نفسه فسموه «جبل قحطان»، عوضًا عن جبل الجن، وتناوب الرجال والعجائز وأشراف النساء على حراسة النساء الأخرى أثناء نومهن، وأيقظوهن حين كانت تبدأ الخيالات الماجنة.

طافت خديج بدور آل عابر، فكانت ثرى، وهي تعلم الأطفال لهجة قومها، ورموز الكتابة التي قيل أنها تحمي من أثر الجن، كما حصنت البيوت بصلوات للإله الواحد، فكانت تلك الصلوات تحمي الدور من زيارة الجن لها، وتلتها على الماء، ثم رشت به الأبواب والجدران، فتناقل الناس أن كل دار رُشت بذلك الماء كانت حصينة.

ومثلما نصحه عمه سكون، أمر قحطان أن يتوقف البناء إلى حين، وأن يُصنع السلاح من

منتصف ظهره، وتخلله بعض شيب.

سار إلى دار ابن أخيه مباشرة، وحين جالسه، سأله:

- *«متى؟»*.

- *«متى ماذا؟»*.

- *«متى تقاتل الجن؟»*.

تأمل قحطان عمه من دون كلمات، ثم قال هامسًا، وهو يقرب فمه من أذن عمه:

- *«أذلك ممكن؟»*.

فهز الأخير رأسه بنعم، وهو يبتسم.

***

لا يُعرف تحديدًا ما الذي بدأ به آل عابر نضالهم ضد الجن.

قيل أن أوله كان إشعال النار في خرائب الجبل حيث ينامون، وقيل بل كان العبث بقبور صبيحة أول ما بدأ به قتالهم.

قال آخرون إنه بدأ بمنع رمل من العودة إليهم، وكان يبيت كل ليلة في خرائبهم، وهو عهده لهم حين أطلقوه.

وقيل أيضًا إن القتال بدأ لما أمر قحطان كل آل عابر أن يتبولوا على عظام ما يأكلونه، ويمسحوا به خراهم، وروث بهائمهم.

لكن حُمى مواجهة الجن انبعثت في قلوب الرجال، وألفت الأشعار؛ أداة الجن في هجائهم، وعلا سبهم في طرقات القرية، بل إن الناس غيروا اسم الجبل نفسه فسموه «جبل قحطان»، عوضًا عن جبل الجن، وتناوب الرجال والعجائز وأشراف النساء على حراسة النساء الأخرى أثناء نومهن، وأيقظوهن حين كانت تبدأ الخيالات الماجنة.

طافت خديج بدور آل عابر، فكانت ثرى، وهي تعلم الأطفال لهجة قومها، ورموز الكتابة التي قيل أنها تحمي من أثر الجن، كما حصنت البيوت بصلوات للإله الواحد، فكانت تلك الصلوات تحمي الدور من زيارة الجن لها، وتلتها على الماء، ثم رشت به الأبواب والجدران، فتناقل الناس أن كل دار رُشت بذلك الماء كانت حصينة.

ومثلما نصحه عمه سكون، أمر قحطان أن يتوقف البناء إلى حين، وأن يُصنع السلاح من

فؤوس وعصي ونبال وأقواس وسهام وخناجر، ثم خرج قحطان بنفسه إلى نصب أعفبروت، أقدس بقعة عند الجن بمنتصف الوادي الواصل بين قبورهم والجبل، فبال عليه، وأضرم فيه النار، ومن خلفه رجاله يحرسونه، فصرخ صوت سمعه كل إنسان بالجبل:

- «*صبحكم بكرة قتال لم تروا مثله!*».

فصاح قحطان مجيبًا بصوت لا خوف فيه:

- «*صبحكم، ومساكم يا لاعقي خرانا*».

وانطلق من فوره إلى خيمة خديج، وكان قد نقل رملًا إليها، وأمرها وأمه ألا تفلتاه. دخلها، فوجده ينظر إلى رقعتها، وأخته تسمي له الأصوات المكتوبة فيها، ورأى أنه قد سمن، فقال لها:

- «*ما أسرع أن يصل خيرك إلى جسد من تعولين!*».

ابتسمت لحظة، وأجابت:

- «*كان هازلًا، فوجب علي أن أحسن إطعامه*».

- «*نعم*».

قال قحطان، وهو يتقدم إلى رمل، ويجلس أمامه، واضعًا يديه على ركبتي الشاب.

- «*سنقاتل الجن غدًا، فأخبرني كل ما تعرف عنهم*».

- «*لديك سلاح؟*».

سأله رمل، فهز قحطان رأسه أن نعم.

- «*هذا حسن.. اعلم أن الجن روح نارية لا يمكن أن تصل إليهم، لكنهم بتلك الحال لا يصلون إليك أيضًا، فإن أرادوا قتالًا وجب عليهم أن يتمثلوا بنا، وإن فعلوا، جرى عليهم ما يجري علينا*».

بلهفة قال قحطان:

- «*يمكن قتلهم إذًا!*».

- «*نعم، كأنهم رجال منا*».

- «*وسلاحهم يا رمل!*».

- *«كسلاحنا، إن وُجِد».*

غمغم قحطان مستحسنًا ما يسمعه، لكن رملًا تابع:

- *«ما يجب أن تخشاه منهم، ليس عددهم، ولا عدتهم، إنما الخوف نفسه».*

- *«أي خوف؟».*

- *«الخوف الذي سيكون داخل صدر كل رجل منكم حين تواجهونهم، خوف الكوابيس المظلم الذي يوقظنا فزعى. إن جعلوه في روح كل واحد منكم يوم المعركة فقد خسرتموها. وصدقني، يستطيع الحارث أن يضعه في قلوب الرجال بسحره. ومن دخله ذاك الخوف لن يقوى على حمل السلاح، ولا حتى الفرار، سيقتل وهو ذاهل».*

تأملت خديج أخاها، بينما سأله زوجها:

- *«وكيف أتغلب على ذلك الخوف؟».*

هز الفتى رأسه، وهمس:

- *«لا أعرف».*

ولما غادر قحطان مجلسهم، التفتت خديج إلى أخيها، وسألته وهي تنظر في عينيه:

- *«أكنت خائفًا عندهم يا رمل؟».*

تفادى النظر إليها، وهمس:

- *«تعلمت الشعر بسببهم، الشعر مرآة الألم يا أخت».*

شعرت بغصة في حلقها، مدت يدها تربت على كف أخيها، فوجدتها باردة.

وعند الفجر، خرج قحطان قبل الجميع إلى حافة الجبل متأملًا الوادي من تحته.

لم يكن هناك أثر لهم حتى تلك اللحظة.

وكأنه يحلم سمع صوت غناء خافتا يصل إليه من أماكن بعيدة لا يراها، إنشاد هامس، بلغة كأنها لغته لكنه لا يفهمها.

تخللت لحيته نفحات ريح باردة، استأنس لها، ثم انتشرت في الفراغ أمامه نقاط ضوء خافتة لا تلبث أن تنطفئ ليظهر غيرها، تابعها دون خوف، مأخوذًا بسحرها، حتى سمع صوتًا يتكلم داخله أو من الخارج.

«قاتل، والملائكة معك».

همس مأخوذًا بما يحدث: «من يتكلم؟»، فلم يجبه إلا صوت الريح، ورأى بعيدًا في أعماق الوادي ندف ثلج تتساقط بهدوء كأنها تغسله استعدادًا للمعركة.

والتمعت السماء بنور مُزرق، ثم انبلجت السحب عن الشمس فإذا هي بيضاء كالفضة، ومرة أخيرة سمع قحطان الصوت يقول:

- *«اضرب يا أبا يعرب».*

***

سجد سكون هامسًا بكلمات لم يسمعها غيره، تابعته خديج، وهي تدعو ربها الذي اتبعته من خلال الحروف، شدت على رمحها بقوة، وهي تتلمس شعر سماء الأبيض، وتداعب خطمها، فأصدرت الفرس صوتًا لطيفًا، وهي تثني عنقها برفق، وأمامهم كان قحطان، لا يستره إلا إزاره الأسود، لا قميص، ولا عمامة، في يده شعلة نار، وفي الأخرى فأسه، ومن خلفهم رجال آل عابر، وبعض نسائهم، قد تسلحوا ما استطاعوا، صبغوا وجوههم بالطين، ينشدون هجاءً، ويتكابر داخلهم شعور مبهر بالقوة، شعور لم توجد في لغتهم كلمة تصفه، فعلمتهم خديج أن اسم ذلك الشعور هو «النفرة»، وهو فعل هجومي للدفاع عن الأهل، أو القبيلة، يصحبه شعور بالعزة والمنعة والعظمة، إذ تنظر حولك فترى عشرات الرجال، كلهم من أهلك، تاريخكم واحد، وقد حُكيت لكم نفس القصص من جداتكم، وجربتم نفس الألم، والآن تريدون خلعه بقتل عدوكم.

ضرب قحطان ظهر جمله فانطلق إلى الوادي، عبره سريعًا إلى قبور صبيحة، فأشعل فيها النار بشعلته، وبسرعة تعالى الدخان من القبور حتى وصل إليهم ريحه.

تكاثف الدخان خالقًا سحابة سوداء سرعان ما انكشفت عن جيش الجن.

كُثرٌ رجاله، أشكالهم فيها غرابة لا تخطئها عين إنسي، أغلبهم بلا سلاح، لا خيل ولا دواب.. ولا ثياب. عراة تمامًا حتى سوءاتهم مكشوفة.

من عندهم خرج صوت ضحك عابث.

«اليوم تخرجون من وادينا»، صاح صائح منهم وهو يتقافز مبديًا سوأته، فأجابه رجل من عابر:

- *«الوادي والجبل لنا».*

تعرقت جبهة قحطان، وهو ينظر إليهم يصطفون، ومن خلفه ميز أصوات دواب خائفة، وهمهمة رجال، جمله نفسه اضطرب، وتحركت سماء في موضعها، فربتت خديج على عنقها، وهي تحدثها بكلمات لم يسمعها أحد، فهدأت، وهي تصهل.

بدأ جيش العراة يتقدم باتجاهه، فانتصب قحطان ماسحًا عرقه، بصق على قبور الجن، ورفع يده مشيرًا بإصبعه ثم انطلق راجعًا إلى رجاله يأمرهم أن يستعدوا.

التف حوله خديج وخالد وسكون، أما رمل فقد تُرك بالجبل مع جماعة رجال لحماية النساء والأطفال.

اقتربت منه خديج، وهو ينظر إلى القادمين، وجوفه يحترق بخوف غامض.

«هيه يا قحطان، في سبيل عابر وأبنائه»، التفت إليها، ما أجمل عينيها، همس لنفسه، ثم هز رأسه، ورفع فأسه عاليًا ليراه الجميع، وضرب جمله بقدمه صائحًا:

- *«اقتلوا في سبيل عابر وأبنائه»*.

وانطلق..

تضرب الريح وجهه، وصدره العاري، يصرخ بعزم ما فيه، الخوف على وجهه يتحول إلى رغبة مشتعلة في الذبح، غضب كاسح لطالما غرف به في لحظات جنونه، انسلخ عن كل ما حوله، غاب عنه الجميع، كل ما يراه الآن هو اقتراب جيش العدو منه، وبداية الدم الذي يتحرق شوقًا ليسفكه.

كان أقرب الجن إليه قد تمثل في شكل شاب بلا أعضاءٍ ذكورية كأنها ممسوحة، أدهشه منظره لكنه في اللحظة التالية كان قد غرز فأسه في أوسط رأسه فسمع تحطم جمجمته، وتفجر الدم في وجهه فصرخ منتشيًا:

- *«نعم!»*.

كان أسرع من تابعه خديج، ضربت برمحها يمنة ويسرة، سماء تضرب معها، رافسة بحوافرها الجن من حولهم، وحامية صاحبتها بعنقها، وجسدها كلما اقترب منها جني، أما خالد فقد وضع ثوبه بين أسنانه ضاغطًا، وقفز عن حصانه الفحل بين الحشد ضاربًا بعصاه وخانقًا بيده، ومن خلفه سكون يضرب بعصًا من حديد مصقول وجوه القوم وأعناقهم.

لكن جيش الجن توزع بين رجال عابر، غرزوا أظافرهم الطويلة في الأعين، فجروا الرؤوس بالحجارة المدببة، احتضنوا الرجال عاضين وجوههم، قاطعين ما يصلون إليه من لحمهم؛ أنفًا كان، أو قفًا، أذنًا، أو عينًا، أو جميعهم.

صرخ رجال عابر ألمًا وخوفًا، وتراجعوا أمام الهجمة الوحشية.

كان قتل الجن للإنس غير مسبوق، حتى المفترس من الحيوان لا يفعلْ فعلهم، أمام عيني قحطان التف رأس رجل من قومه حول نفسه، وعظام رقبته تتكسر بصوت جنوني كاد يفقده صوابه، حتى أضحى وجهه في ظهره، وسقط على الأرض ساكنًا، ورأت خديج أغصان الشجر تُحشر في تجاويف أعين الناس بأيد الجن حتى تصل إلى تلافيف أمخاخهم.

تفجر الذعر بين آل عابر، بينما ضج الوادي بضحكات الجن، وصراخهم الوحشي، وارتفعت عن الأرض سحائب سود منعت الرؤية، وزكمت الأنوف.

وحول قحطان وخديج انتشر الموت، وتساقط الرجال، وبدأ الناس يفرون نحو الجبل، فوقف سكون يدفعهم للعودة للقتال، وشُوهد خالد، وهو غارق في دمه رافعًا خنجرًا نحاسيًا يضرب به المهاجمين، ومكان أُذنه تجويف فارغ ينزف.

ومن أطراف قبور صبيحة ظهر الحارث عملاقًا، أضخم من عادٍ أنفسهم، ممسكًا بإزميل من ذهب، يجري به نحو قحطان، وعلى وجهه ابتسامة متوعدة.

صرخت خديج:

- *«أيها الخالق! الغوث!»*.

هنا جاء صوت أزيز غاضب تبعته آلاف البقع المضيئة التي انتشرت في ساحة القتال، تذكرها قحطان من فوره، وهو يعتدل محاولًا قتل خوفه من الحارث الذي يقترب منه. لمح في عين الحارث دهشةً لحظية من تلك البقع، وكأنه الخوف.

كانت مثل شموس صغيرة، أو ندف ثلج صفراء، بسببها خرست الضحكات، وتباطأ الجن، وزال الخوف أو كاد، تاركًا صفاءً عجيبًا في كل رجل لم يفر من آل عابر، وأمطرت السماء فراكمت الدخان وانجلت الرؤية، وسمع صوت قتلى الجن يئنون، وببطء عاد رجال عابر إلى ما بدأوا به قتالهم، وانقشع خوفهم، وضرب قحطان جمله منطلقًا إلى الحارث فجرى بطريقة خرقاء جعلت قحطان يتمنى أن لو كان تحته فرس. تصاعد ذعره من عملقة الحارث لكنه لم يتوقف، ثم وقف على ظهر جمله منتصبًا، وقفز نحوه.

بتلك اللحظة الممتدة، شعر بأنه محمول على أيد لا يراها، تناثرت حوله الأضواء الصغيرة؛ ألف قمر، غرق في تفاصيلها وهي ترقص حوله كأنها تحيي نضاله وتحرسه، وفي اللحظة التالية كان ينقض على رأس الحارث بكلتا يديه مسقطًا إياه.

وانفلت إزميل الجني من يده، فانقض عليه قحطان، تلقفه بسرعة والحارث ينتفض تحته

ليزيحه، وبحركة مسعورة أمسك قحطان بحجر ضخم فرفعه عاليًا، وهو يثبت الإزميل في رأس الحارث بين عينيه، ثم يهوي بالحجر فيسمع صوت اختراق عظمه مثل تناثر الحصى، والإزميل ينغرز فيها حتى يستقر. وللحظة هيئ له أنه سمع صوت الحارث مرة أخيرة يصرخ:

- *«لأقتلن ذريتك!»*.

ثم انتفض جسد ملك الجن، أمام الجمع من إنس وجنة، وظل يرتجف قبل أن يسيل بوله أسفله.

بلا خوف حمله قحطان على ذراعيه، ورفعه عاليًا، وهو يصيح بهم لينظروا إليه.

انتشى أولاد عابر بنزعة قتل لا يمكن إيقافها، فاكتسحوا جيش العرايا، ولم يخلفوا منه أحدًا حتى أنهم قتلوا من لجأ من الجن بشقوق الجبل، وما وراءه، وعند البرك.

والتفت قحطان إلى خديج فرآها فوق سماء، تتلمس شعرها الناعم، وتبتسم له كما لم تفعل منذ زمن بعيد.

***

أصبح جبل الجن ووادي عبقر وقبور صبيحة والخرائب ملكًا لعابر.

مساحة من الأرض أكبر من إرم، انمحى فيها أثر الجن لكنه ترك أثرًا في نفس قحطان..

طالت فترات صمته حتى عُرف به، انتشرت تجاعيد دقيقة حول عينيه، وأطراف فمه، مع خط غائر بطول جبهته عرضيًا صنعه طول التفكر، وانتشر الشيب بوتيرة أسرع بمفارق شعره ولحيته.

كانت إساف قد لحقت ببيت أبيها خالد الذي حاول كثيرًا أن يعيدها إلى زوجها لكنه أبى، ثم ترك لها داره الحجرية، فاستقرت بها وحدها، بينما اتخذ لنفسه خيمة جديدة قريبًا من خيام أمه وخديج.

كانتا تسمعانه يصرخ بالكوابيس، يصحو متعبًا كأن لم ينم، بل إنه ترك خيمته أكثر من مرة بعد أن ضاق بحلم أو شعر بوحشة، وأتى خيمة خديج، فنام فيها من دون كلمة، بطرفها البعيد مستأنسًا بصوت أنفاسها.

وفي ليلة مطيرة لم ينقطع البرق عنها دخل خيمتها، وكانت على وشك أن تنام، ففتحت عينيها تتابعه دون أن يلحظ، ورأته يزيح قماشها ويده ترتعش! تعلقت عيناها بتلك اليد، وانثنت شفتاها إشفاقًا حين رأت أن تلك الرعشة التي تكاد تكون غير ملحوظة مستمرة.

قامت من مرقدها، واقتربت منه بسرعة تساعده على خلع العباءة الثقيلة.

كانت غارقة بالماء! سألت نفسها كم ظل تحت المطر، ألذلك يرتجف؟

أنفاسه بطيئة، لا يتكلم، ولا ينظر إليها، كأنه رجل انهزم في كل معاركه، وهي وحدها تعلم أنه انتصر فيها كلها.

في كل لحظة بقربه الآن كان حب جارف يتفجر بقلبها، حب نادر جُمع فيه صِنفا الأمومة والعشق. شعرت بجسدها يرتجف من أجله.

وبمعجزة تحول صوت المطر بالخارج إلى تراتيل لم يسمعها سواها، ومدت يدها تلمس كتفه، وهي تديره إليها، فتنهد خافضًا رأسه بضعف، لمست ذقنه، ورفعت وجهه إليها، فتح عينيه على عينيها، فابتسمت له.

وفي لحظة استثنائية سرت بينما رحمة غير محدودة، وقرب لا مثيل له حتى بين التوائم، وبانبهار رأيا نفسيهما، وقد عادا صغيرين يمتطيان أسنمة جمالهما، والريح تعبث بأغطية رؤوسهما، واتسعت عينا قحطان، وهو يرى خديجًا على حقيقتها..

شديدة الجمال..

لم تكبر ملامحها، ولا عامًا واحدًا، كل العالم في عينيها، وعيناها تنظران له كله، وتسلل نور القمر من قَطع صغير بسقف خيمتها ساقطًا على وجهها، فاندهش قحطان، وهو يفهم للمرة الأولى أن لون عينيها لم يكن أبدًا أسود، بل هو لون أقرب إلى لون العسل الداكن.

همس:

- *«أنتِ الجَمال»*.

فأجابته:

- *«وأنت خير رجل»*.

بكى بين يديها حين قالت ذلك، ثم ترك نفسه لها، فاحتضنته.

تلك الليلة، كانت عشر سنوات قد مرت على زواجهما.

وإذ نظرت خديج إلى ما كنت تخطه على رقعتها، وهي تحتضنه، فإنها رأت حروفًا كانت قد كتبتها بغير ترتيب، لأصوات الكاف والهاء والعين والصاد، همست مبتسمة في غير فهم..

- *«كهيعص!»*.

بعدها بأقل من ثلاثين يومًا عرفت خديج أنها حبلى.

***

أقامت سكينة بخيمة خديج بعد حملها.

بالبدء كانت تزورها لتطمئن عليها، وتساعدها في الطبخ، وكانت خديج منذ تزوجت قحطان تطبخ لها معهما حتى حين تركها من أجل إساف، ثم زادت فترات مكوثها معها مع تقدم الحمل، واشتداد أمره، حتى سألتها خديج أن تبقى معها دائمًا، فأمرت ابنها أن يحمل صندوق ثيابها، ووضعته إلى جوار رقاع خديج.

أما قحطان فقد تخلق بولادة جديدة، فلم ينقطع عن العمل في بناء قريته، وخرج في حملات مستكشفًا كل ما حول الوادي، وما وراء الجبل، محاذرًا أن يتقاطع مسيره بعاد، فكان التفاح والتين والبلح الرطب مما رجع به إلى قومه، ثم وصل البحر فعاد منه بالسمك بعد أن جففه، والسلطعون والأصداف الملونة ونجمات البحر.

وشعرت عابر للمرة الأولى، أن العالم ينفتح لهم، ويفيض بخيرٍ غير محدود، فكثرت الدور، وزادت الماشية.

وبإعجاب، تابعت سكينة خديجًا وهي تعتني بجنينها من قبل أن يولد، رأتها وهي تغني له، ويداها تتلمس بطنها، تكلمه بلغتها، ولغة عابر.

تخبره بكل شيء تفعله بصوت دافئ مُعلِّم.

وكالمسحورة شاركتها ذلك، بأن حكت له القصص التي توارثتها من الجدات القدامى.

ورغم ألمها، تمالكت خديج نفسها، فلم تُسمع باكية أو مشتكية، شحب وجهها، لكن وزنها زاد، وزادها ذلك وقارًا فوق جمالها، فتبدت في أجمل هيئة لها منذ وُلدت لولا ضعفها البادي.

وزارتها إساف مرة واحدة، وفي يدها طبق سمك مملح عاد به خالد من رحلته الأخيرة مع قحطان، لم تجلس قط، فقط وقفت تتأملها ثم قالت:

- *«ما أشد ما كبر بطنك»*.

ابتسمت خديج متحرجة، وقالت وهي تشير إلى فَرشة عندها:

- *«ألا تجلسين؟»*.

فأجابتها:

- *«لا أطيق رائحة حبرك»*.

ثم سألت، وهي تشير إلى بطنها:

- *«ستلدين قريبًا؟»*.

فأجابتها سكينة بسرعة:

- *«كيف لها أن تعرف؟!»*.

رمقتها إساف لحظات، ثم التفتت إلى خديج ثانية، وقالت:

- *«تظنينه ذكرًا أو أنثى؟»*.

- *«أنّى لها أن تعرف يا إساف؟!»*.

قالت سكينة بنفاد صبر، فسكتت إساف، وتحرجت خديج من ذلك الصمت، حتى وضعت إساف الصحن أمامها، وهي تقول:

- *«أعيدي الصحن بعد أن تطعمي ما فيه، أو أرسلي قحطان به»*.

وانصرفت مسرعة.

ما إن غادرت حتى أشارت سكينة إلى الصحن قائلة:

- *«لا تمسيه»، وتابعت: «لننتظر حتى ينزل الظلام ثم نلقيه في الخارج»*.

هزت خديج رأسها متفهمة، فاقتربت منها سكينة حتى جلست عندها، ربتت على ركبتها، صمتت لحظات وهي تنظر إليها كأنها تريد أن تتكلم، فهمست لها خديج:

- *«ما بك يا أمي؟»*.

قالت سكينة، وهي تنظر إليها:

- *«أعرف أنه ذكر»*.

- *«حقًا؟»*.

سألتها خديج فرحة.

- *«رأيته في منامي، لم يخلق إيل أجمل منه، وجهه أبيض كالقمر، مشرب بحمرة، شعره كأنه وهج الشمس، يلف رأسه كالأسد أو كالنار، يتكلم وهو في مهده بلغتنا، ولغتكم، صوته كصوت كهنة بغاء، عميق آسر، كجده سكون أو عابر حين كانت تصيبه الحكمة»*.

دمعت عينا خديج، صدر منها صوت تنهد لطيف، وهي تبتسم، ثم سألت سكينة:

- «هل *رأيتني* معه؟».

فاجأها السؤال، ببطء أجابتها:

- «نعم».

فهزت خديج رأسها راضية، وهي تلمس كف سكينة التي كانت تسأل نفسها بتلك اللحظة، «أين كانت خديج بذلك الحلم؟!».

أما قحطان فكان يسأل سؤالًا آخر.

كان قد وصل برجاله إلى البحر بعد مسيرة عشرين يومًا، وما إن اقترب من رمل الشاطئ حتى وجد فيه آثار رجال وبهائم.

نزل من على فرسه، سحبها وراءه، وهو يتفحص الآثار. كانت لخراف، وحوافر جياد، وجمال، وبينها تتناثر آثار أقدام أرجلٍ بشرية ضخمة.

«عاد»، همس لنفسه.

أمر رجاله بالاختباء خلف بروز جبلي غير بعيد، ترك عمه سكونًا عليهم، وانطلق مع خالد إلى الشاطئ محتميًا بالسواتر الصخرية وهناك رآهم من بعيد.

خيامهم المتجاورة، متعاظمة حسب مكانة أصحابها، منها البسيط ومنها المزخرف، ما صنع من وبر الإبل، وما كان من جلد الثيران، وفي أوسطها خيمة عظمى، سوداء، زخرفت بنقش لنسر ذهبي، وحوله زخارف نباتية.

قال خالد لابن أخيه: «شداد!»، ومن خلف الخيام رأوا مرابط إبل وخيل وماشية، وصناديق طعام ملؤها الفاكهة والتمر، وأواني وصحونًا نحاسية.

«انظر»، همس خالد مشيرًا إلى البحر، فرأى قحطان رجال عاد ونساءهم متجاورين يلهون بالماء، وبينما كان الرجال عراة إلا مما يستر العورة، كانت نساؤهم مغطيات حتى شعورهن. تحركت رغبة حارة في جسده، وهو يتابع النسوة وقد التصقت ثيابهن بأجسادهن الضخمة، سرعان ما أخمدها، وهو يبحث عن شداد وسطهم فلا يراه.

تسارعت أنفاسه، وتعالت دقات قلبه والفكرة تختمر في عقله..

شده خالد من ذراعه، وهو يقول:

- *«لنرجع أرضنا قبل أن ينتبهوا لنا»*.

هز قحطان رأسه رافضًا، وهو يتلمس فأسه المعلقة خلف ظهره عائدًا إلى الرجال، وعمه يجري خلفه:

- *«ماذا تفعل يا قحطان؟»*.

- *«أستعد»*.

- *«تستعد لماذا؟!»*.

- *«سفك الدم»*.

أجابه، وهو يشير للرجال فأمسك عمه بقميصه من ظهره موقفًا إياه، وسأله:

- *«تريد قتالهم؟!»*.

- *«لا تفعل ذلك ثانية يا عم»*.

قال قحطان، وهو ينزع يده عنه مترفقًا، والتفت إلى قومه وهو يبتعد عنه، فصاح فيهم:

- *«يا آل عابر!»*.

صمت الجميع، وانتبهوا إلى قوله:

- *«من منكم يريد أن يعود إلى داره ببعض سمك وصدف؟ ومن منكم يريد جمالًا وخيلًا وكسوة وآنية؟»*.

أخذ نفسًا وهو يرى نظرات الرجال الفضولية، ثم تابع:

- *«على الشاطئ، شداد وأهله. عراة، لا سلاح في أيديهم، ولا خيل تحتهم، لا يقدرون حتى على حماية نسائهم وعيالهم من بطشكم، فمن منكم يريد ما في أيديهم؟»*.

تصايح رجال، وأصيب الجمع بعدوى حماسة قائده، وفي وسطهم صاح رجل مسن:

- *«كل عاد هناك يا ولدي؟»*.

فأجابه قحطان:

- *«لا، لكن فيهم نسرهم شداد، إن قتلناه ورجاله، فلن نخاف منهم أبدًا، ولن يخرجوا إلينا أبدًا، وسنرعى بالمرج الأخضر عند أسوارهم، ونبني بمضاربنا القديمة مدينة لنا، بعد أن نخرج عظام من قتلوا على أيديهم يوم المذبحة، ونصنع لهم قبورًا كقبور عاد، بل أعظم»*.

وصمت لحظات ثم قال بصوت حذر:

- *«بل إني أقول، أنه إن قتل شداد سندخل إرم عن قريب»*.

وارتفع صوت السلاح!

المعدن والخشب والرماح وهي تتأهب بحماسة للقتال.

وتحرك الجيش العابري، بلا ضجيج، متجنبًا الغبرة، مقتربًا قدر المستطاع من خيام القوم، وعند الخيام رفع شاب مقيم على الشواء رأسه فتجمد، وهو يرقب الحشد مذعورًا، ثم التفت إلى القوم صائحًا لكن رمحًا اخترق صدره قبل أن يسمعه أحد.

ولما اقتربوا أكثر نبحت كلاب الحراسة فتلفت رجال عاد وهم بعد في الماء فرأوهم!

صرخ قحطان: «اقتلوا!».

وانطلق فوق حصانه نحو الخيام.

رفع فأسه عاليًا حتى شعر أنها تلامس السحاب، وفقد شعوره بالفرس من تحته كأنهما جسد واحد، وقابل أولهم وكان صبيًا لم يتجاوز الخامسة عشر بحال، راكبًا فرسًا أسود، وفي يده رمح طويل دفعه إلى رأس قحطان، فانحنى سريعًا، وضرب بفأسه بطن الصبي الذي سقط صارخًا من فوق فرسه.

تصايح الرجال، وهم يجرون من البحر نحو خيامهم للتسلح، بينما تقدم رجل من آل عابر، وفي يده مشعل دسه في الخيام محرقًا، وهو يصيح:

«احترقي يا بغاء!».

فأجابته امرأة منهم: «تمجدي يا بغاء! والعني البدو»، فشدها رجل من عابر من الخلف ملقيًا بها أرضًا، ووضع سكينه في عنقها يقطعه!

كان رجاله كالضباع الجائعة، تدور بأطراف الشاطئ، محرقة الخيام، ساحبة النسوة، مهلكة كل ما يقف بطريقها، لا خوف في أعينهم، كيف وقد قاتلوا الجن وذبحوه! دفع قحطان بذراعين قويتين رجلًا من عاد ملقيًا إياه في إناء طهي يغلي حساؤه فصرخ الرجل محترقًا، وحطم رأس آخر بفأسه فخر الرجل وقوسه بين يديه متناثرة سهامه على الأرض، ورفع قحطان رأسه ينظر إلى المعركة حوله للحظة..

كانت عاد قد خرجت من الماء، انتشرت بين رجاله فحدث التحام القتل، وللمرة الأولى فطن إلى فرق الحجم والقوة بين قومه وبينهم وفكر بقلق أنه حين هجم كان يفكر بجسده

هو، وليس بأجساد عابر الصغيرة، وبعين غاضبة لمح أحد رجاله، وهو ينزع بيده ثوب امرأة من عاد كاشفًا صدرها، وآخر ينحر رقبة طفل غير مسلح بلا رحمة، وغير بعيد رأى عمه خالدًا بطلًا! يقاتل بلا توقف، ولا يقتل إلا الرجال، مبتعدًا عن كل امرأة وشيخ كأنه لا يراهم، فهز رأسه راضيًا وهو يضرب بقدمه بطن الحصان منطلقًا إلى خيمة شداد.

وفي لحظة شعر كأن جبلًا ارتطم بصدره، ووجد نفسه يسقط عن حصانه، وقد جمده ألم حارق بموضع الضربة التي تلقاها، وفتح عينيه مذعوزًا، وهو يرتطم بالأرض ورائحة عود مبهرة تدخل أنفه فرأى شدادًا فوقه عاريًا من كل شيء إلا إزارًا قصيرًا يستر عورته، وفي يده عصاه!

صرخ باسمه وفزع ينتشر في جسده.

«مُهلكك، ومُهلك قومك»، أجابه الملك، وهو يرفع قدمه ثم يدوس وجهه فتتكسر أسنان قحطان في فمه، ويسقط بعضها في حلقه خانقًا. رفع شداد قدمه، وداسه من جديد فسمع قحطان صوت تحطم أنفه، وصرخ من الألم والغضب.

وضرب الملك بطنه فبصق دمًا من فمه بينما وقف فوقه رافعًا عصاه.

رآها، وهي تنزل كبرق، ميز عشرات المسامير التي زُرعت فيها، عرف أنها ستخترق جمجمته الآن فيموت كما مات ناصر قبله تحت قدمي الملك الذي لا يُقهر.

وكمعجزة انكسرت العصا في طريقها إلى رأسه، رأى خشبها الداكن وهو يتناثر في الهواء، وعمه خالد وقد انكسرت خشبة فأسه التي وضعها في طريق العصا! صرخ شداد في دهشة وهو يرفع ما بقي من العصا أمام وجهه، ودفع خالد برأسه في بطن شداد، فتراجع الأخير بجذعه للخلف دون أن يتحرك من فوق قحطان، وحمل خالدًا بيديه مُلقيًا إياه بعيدًا، وبسرعة حفزها ذعره، شد قحطان خنجره من غمده، ورفع رأسه فرأى بعينين تشتعلان غضبًا ذكر شداد وهو يتدلى بين فخذيه، فرفع يده شاذًا خصيتيه، وقطع كيسه، وهو يصيح: «فلتخنث عادًا»، فتدلت العروق الدامية وصرخ شداد بفزع، وهو يضع يديه بين فخذيه غير مصدق! ومن تحته انسلخ قحطان بسرعة ثم هجم بخنجره من جديد، فوجد نسرًا يضرب وجهه خامشًا عينيه ولحم رأسه، تفوح منه أخبث رائحة تنفسها يومًا. تراجع للخلف، وهو يصيح بغضب محاولًا إبعاده قبل أن يعميه.

وتراجع شداد، وهو ينظر حوله..

سمع أنين الجرحى، رأى عديد رجاله قتلى، النساء تصرخ، والماشية تقاد إلى ما خلف الجبل كي لا يصلوا إليها، والدم ينزف من بين قدميه ملوثًا الرمل تحته..

نهج محتارًا، ثم صرخ برجاله: «تراجعوا.. تراجعوا إلى إرم»، وقفز على أقرب الخيل إليه ثم فر هاربًا، ومن فوقه حلقت نسوره.

***

سِيقت النساء والأطفال أسرى، وحُملت الغنائم تحت مطر مستمر بطريق العودة إلى جبل قحطان، ورغم انتصارهم، وما تحصلوا عليه فإن صمتًا قلقًا خيم على المسيرة بعد أن علموا أن شدادًا استطاع النجاة مع كثيرين من رجاله، فأمر خالد رجالًا ثقاتٍ أن يرقبوا الطريق، ويتأكدوا من أن شدادًا لا يتبعهم، وشق قحطان عليهم في المسير فلم يدعهم يرتاحون إلا ساعات قليلة للنوم، وأمرهم أن يطعموا فوق ظهور دوابهم.

والحق أن استعجال قحطان للوصول لم يكن مرجعه خوفه من شداد، قدر ما كان تلهفه على العودة لخديج التي اقترب موعد ولادتها، وكان قد تركها وقد مضت أغلب أيام حملها، فلا بد أنها على وشك أن تضع الآن.

وغابت الشمس وأشرقت مرات عديدة، وهم في طريقهم إلى قريتهم، تحتجزهم أرض طينية، ومجاري سيول، فلم يصلوا إلى الجبل إلا بعد أسابيع.

رأوه والمغيب يسدل أنواره الحمراء عليه، فالتفت قحطان إلى عمه خالد وقال وهو يشد لجام حصانه: «كن مع الرجال والأسرى حتى تأتي القرية، وسأسبقك إلى هناك».

هز عمه رأسه متفهمًا، وضرب قحطان رقبة حصانه صائحًا فيه أن أسرع، فانطلق نحو الجبل.

دخل القرية بعد الغروب، كانت هادئة، تلك عادتها منذ قتال الجن الذي خلف صدمة لم تزل آثارها بعد في أنفس كثير من النساء، واطمأن قحطان أن أهلها بخير وهو يمر بنار التدفئة، ويشتم روائح الطعام، ويسمع كلام النسوة مبعثرًا من وراء جدران الدور.

وصل إلى الخيمة، كانت مضاءة بقنديل تفلت نوره من بين ثنايا مدخلها، نزل من على حصانه، وقف أمام الحطب المشتعل أمامها للتدفئة، وخطا مقتربًا ثم سمع صوت بكاء الرضيع.

ونبض قلبه بعنف، وقف ينظر في الظلام مرهفًا السمع.

كان الصوت رقيقًا جميلًا، لم يميز إن كان لذكر أو أنثى، لكنه ميز صوت امرأة تغني من أجله، كأنه صوت امرأته، أو أمه..

دخل خيمته متقطع الأنفاس، تجمد لما رأى الرضيع بين ذراعي سكينة، وكان يبكي لكنه توقف حين رآه، وتركزت عيناه على أبيه، فشعر الأخير بدفء عجيب مطمئن، ورغبة محمومة في الدعاء لإيل شكرًا، وهو يغرق في تفاصيل المولود.

شعره أسود فاحم كشعر أمه، ليس غزيزًا وهي عادة كل مولود، لكنه أكثر غزارة من أي مولود رآه قحطان لعابر بسنه هذه، أنفه دقيق أشم، وصفحة وجهه بيضاء مشربة بحمرة لطيفة، ليس سمينًا كباقي الرضع لكن جسمه متناسق.

كان أجمل مخلوق رآه قحطان!

تجمد مكانه متهيبًا فقالت أمه وهي تبتسم:

- *تعال، واحمل ولدك.*

همهم بكلمات لم تسمعها، وابتسم، مد ذراعيه يحمل الرضيع فوضعته سكينة برفق بينهما، ثم تلاقت أعينهما للمرة الأولى..

لم تكونا سوداوين كعيني أبيه، ولا بلون عيني أمه، إنما كانتا ذات لون غريب، رماديتين، كفضة معتقة! نظر قحطان إلى سكينة بخوف أن يكون الرضيع أعمى، لكنها ابتسمت قائلة: «اطمئن، يرى جيدًا».

- «*ما أعجب لونهما!*».

- «*يقال إن عيني نوح كانتا كذلك*».

ورفع الرضيع يده في الهواء، قرب قحطان وجهه منه، فلمسته بدفء لطيف والصغير يفتح عينيه مستوعبًا وجه أبيه وهو يناغي فأفلت دمع من قحطان.

- «*أسمته أمه يعرب*».

«يعرب؟»، قال قحطان، وقد بدا له الاسم مألوفًا لكنه لم يستطع أن يذكر أين سمعه، همس:

- «*يا له من اسم!*».

وتلفت حوله ثم نظر إلى أمه، وهو يهز رأسه قائلًا: «أين هي؟».

رفعت سكينة رأسها ترنو إليه، قرأ كل شيء في عينيها لكنه وجد نفسه يقول مبهوتًا مرة ثانية، وجسده يرتجف، «أين خديج؟»، فقامت سكينة، وقالت وهي تأخذ يعرب منه: «حذار أن تُسقط الولد».

امتقع وجهه، احتشد فيه الدم. شعر كأن وجنتيه تنبضان بقلب خاص بهما، وسأل بصوت محشرج:

- *«متى؟»*.

- *«وهي تلده»*.

أجابت سكينة، وهي تشيح بوجهها عنه.

- *«هل رأته؟»*.

- *«رأته، وابتسمت له، ونادته باسمه»*.

دفن لحيته في صدره صامتًا، سمع صوت ابنه كأنه يضاحكه، نظر إليه دون أن يرفع رأسه، بدت عيناه الرماديتان شديدتي الذكاء.

- *«أخبري النسوة، كل نساء عابر، أني قاتل كل من تتحدث عن موتها وهي تلده، لن يعرف هذا الطفل ذلك أبدًا»*.

- *«نِعم الرأي»*.

همست سكينة.

- *«أين دفنتموها؟»*.

قالت، وهي تغالب دمعًا مكتومًا فخرج صوتها مختنقًا:

- *«جعلنا لها قبرًا عند الجرف المطل على الوادي، ونصب أخوها رمل فوقه صخرة عظيمة كعادة عاد»*.

«نعم»، قال قحطان، ثم التفت مغادرًا الخيمة متبوعًا بنظرات أمه الباكية.

مشى من فوره إلى الجرف..

كان الليل قد خيم، ومن بعيد وصلت إليه صيحات النسوة المبتهجة بعودة رجالهن، وما غنموه.

ترك كل هذا خلفه، وهو يبحث عن موضع دفنها.

ورأى سماء وحدها، وقد أراحت رأسها على صخرة ضخمة. كانت قد هزلت.

اقترب حتى جاورها، وضع يده على ظهرها، فأصدرت صوت حمحمة حزينة وهي تهز

رأسها. نزل على ركبته عند القبر..

وضع يده على صخرتها، ولمسها بوجهه..

أغلق عينيه، فبكى دمعًا ساخنًا.

شعر أنه أكبر من عمره بعشرين سنة أو أكثر.

والحق أنه سيشيخ منذ هذه اللحظة بسرعة مدهشة، وسينحل جسده، ويشيب شعره كله، وتتغير ملامحه الشابة إلى ملامح كهل سئم الحياة حتى ليبدو للناظر أكبر من عميه.

لكنه سيتزوج مرات، ومرات حتى يُضرب به المثل في كثرة الولد.

وجاء رمل فوقف إلى جواره، وهو يرثي أخته بشعر رقيق حفظه قحطان من المرة الأولى، كلمة كلمة، وكان يتلوه كل ليلة قبل نومه، تسمعه زوجاته الجدد، وأبناؤه، ويعرب.

كانت تلك وقفته الأولى على قبر زوجه، وتلتها وقفة مع كل غروب شمس، وكأنها صلاة.

وحين عاد إلى حيث الأسرى ليفصل بينهم، رأى هرجًا وفحشًا، ولمح أحد رجاله يتلمس جسد إحدى نسوة عادٍ غصبًا، وهي تتباعد عنه باكية، فأسرع إليه، ومن دون كلمة شد ذراعه إليه فاردًا إياها، والرجل ينظر إليه مندهشًا، ثم سحب عصاه الغليظة، رفعها عاليًا ثم هوى بها على أوسط ذراعه فسمع كل رجل وامرأة صوت تكسر العظم، وصرخ الرجل كالممسوس من الألم، فدفعه قحطان وانتصب واقفًا، وقال:

- «*فليجرؤ أحدكم أن يمد يده إلى إحداهن بغير إذن*».

سكت الجميع، فتابع:

- «*أنا أبوهن من اليوم، من أراد إحداهن فعليه أن يتزوجها كما تتزوج نساؤنا، وعيالها سيكونون عياله*».

شمعت همهمة من جانب نساء عاد، أهملها، وهو يختم:

- «*أما ما غنمنا غيرهن، فسأقسمه بينكم بالحق*».

تجرأ شاب فصاح:

- «*أليست النساء مغنمًا؟*».

فضربه خالد أسفل بطنه، وهو يصيح منذرًا:

- «*أطِع قحطان*».

والتفت قحطان إلى النسوة من عاد، كن في حالة مزرية لكن قوله طمأن أكثرهن، فانتبهن له وهو يسأل:

- *«أيكن كانت صاحبة خديج بنت عبد الأعلم بالأيام الخوالي؟»*.

سكتن لحظات، ثم خرجت امرأة من بين النسوة، لها وجه قد لفحته الشمس، شعرها طويل جدًا، وعليها ثوب منقوش بالأزرق، قد أصابه الكثير من غبرة السفر، وطين المطر.

- *«كنت صاحبتها قبل أن يقتلها شداد»*.

أشار لها أن اقتربي، فمشت خطوات بينما التفت إلى النسوة خلفها وسأل:

- *«هل تكذب هذه المرأة؟»*.

«لا»، أجبن، وقالت إحداهن:

- *«دائمًا كانت سحر مع خديج»*.

فقال، وهو يلتفت إلى موضع خيمته:

- *«تعالي معي»*.

انسلت من بين النسوة تتبعه، وبعينين حائرتين تابعت القرية، ببنيانها الحجري، وخيامها، والآبار الموزعة فيها، ولما اقتربا من الحافة نظرت فرأت أسفلها الوادي والأضرحة البعيدة، فهمست بخوف: «نحن على جبل الجن!».

«لم يعد هناك جن»، أجابها قحطان متابعًا مسيره فسألته:

- *«ماذا حل به؟»*.

- *«ذبحناه»*.

تأملته لحظات ثم سألت:

- *«من أي أحياء عاد أنت؟»*.

هز رأسه قائلًا:

- *«أنا من عابر»*.

- *«لا تبدو مثلهم!»*.

ابتسم ساخرًا، وقال:

- *«أنا كبيرهم».*

نظرت في عينيه، وسألته ثانية:

- *«لن تعيدنا إلى إرم؟».*

فرك قحطان جبهته محاولًا تخفيف ألم نابض في رأسه، وأجاب:

- *«لن تعود أيكن إلى هناك. أخبري صويحباتك أني قاتل كل امرأة أو طفل يحاول نزول هذا الجبل».*

والتفت عنها متابعًا مسيره حتى وصلا الخيمة فتوترت المرأة، وهمست لنفسها: «رائحتها!».

سمعها قحطان فخفق قلبه، وهو يلتفت إلى سائلًا:

- *«رائحة ماذا؟».*

- *«خديج».*

همست وهي تبتلع ماء حلقها، وعيناها تركزان على الخيمة، وبدهشة لمحت الدمع يحتشد في عيني قحطان المحمرتين، فقالت بتردد:

- *«خديج حية! لم يقتلها شداد!».*

- *«لم يقتلها، لكنها ماتت».*

والتفت عنها قائلًا وهو يدخل الخيمة، وهي من خلفه:

- *«كانت زوجي».*

وتوقفت سكينة منتبهة، والرضيع بين ذراعيها، تسمرت أمامها الشابة، وهي تنظر إليه، التفتت إلى قحطان، وسألت:

«ابنها؟»، فهز رأسه أن نعم، اقتربت من سكينة خطوات، ومدت يديها إليه، فحدقت فيها، دون أن تتحرك حتى قالت بلهجة ودودة:

- *«ناوليني إياه يا أم».*

وببطء حذر وضعته بين ذراعي المرأة التي همست:

- *«ما أجمل ما خلقت بغاء!».*

- *«لا تنطقي هذا الاسم هنا»*.

قالت سكينة معترضة، فرفعت الشابة عينيها إليها، ثم هزت رأسها موافقة، ودفع يعرب إبهامه داسًا إياه في فتحة أنف المرأة، فتراجعت خطوة، وعطست، ففتح الصغير عينيه بدهشة والرذاذ يغمر وجهه، وعطس بصوت لطيف ورذاذه يتناثر على وجه حاملته، فضحكت!

وضحك يعرب..

وابتسم قحطان، وبصوت هادئ سأل:

- *«اسمك سَحر؟»*.

التفتت إليه، عيناها واسعتان بهما انبعاج ساحر عند الأطراف، وشفتاها لهما لون أسمر مليح، ولها سنتان أماميتان كبيرتان، تظهران كلما تكلمت أو ابتسمت فتزدناها جمالًا.. هزت رأسها أن نعم.

والتفت قحطان إلى أمه ليخبرها أنها ستساعدها في رعاية يعرب، فوجدها تنظر إلى الصغير بين يدي المرأة، وكأن بها غيرة.

***

سيذكر كل حي بجبل قحطان مأتم خديج، وستتناقل الأجيال قصته، معيدين صياغتها، ومُزيدين عليها وقائع جديدة.

والقصة الحقيقية أن قحطان أمر بتلك الليلة أن تجلب كل ولدة لماشية أو ناقة أو طير إلا الخيل، فتجمعت عنده صغار أبقار لطيفة تدور حول بعضها محاولة ألا تقع، وحملان ذات فرو أبيض وبني وأسود نادر، حجمها أصغر من حجم كلب، وصيصان صفراء لا تكف عن الضجيج والنقر في الصخر منقبةً عن الحَب، وثلاثة وعشرون صغير ناقة لهم رؤوس يكسوها الفرو، وأعين جميلة واسعة.

ثم ساق أمهاتها وأوقفهم غير بعيد عنها.

سمع الجميع أصوات النداء المستغيثة للصغار، وأصوات المواساة اللطيفة من أمهاتها، حاولوا أن يتلاقوا لكن قحطان أمر رجاله بفصلهم، وإبقائهم على مسافة قريبة.

لف حجاب خديج الأحمر حول رأسه كأنه عمامة، ارتدى عباءة أبيه السوداء، وأخرج سكينًا عظيمًا مما غنم من قتال شداد.

ثم دخل وسط صغار البهائم، فأمسك رأس أقرب الحملان إليه، ورفعه وأمه تنظر إليه، ثم

نحره! نفر الدم من الرقبة مبقعًا فرو الحمل الأبيض، ومن حوله.

من جهة النعاج صدر صوت ثغاء عال، استمع إليه قحطان مغلقًا عينيه لحظات، قبل أن يتناول رأس جمل كان يحاول الفرار مذعوزا، ويضع السكين في عنقه ويقطع.

واستمر هذا العمل قريبًا من الفجر..

ولما انتهى، كانت عباءته وعمامته وإزاره وذراعاه ووجهه وأقدامه مغطاة بالدم.

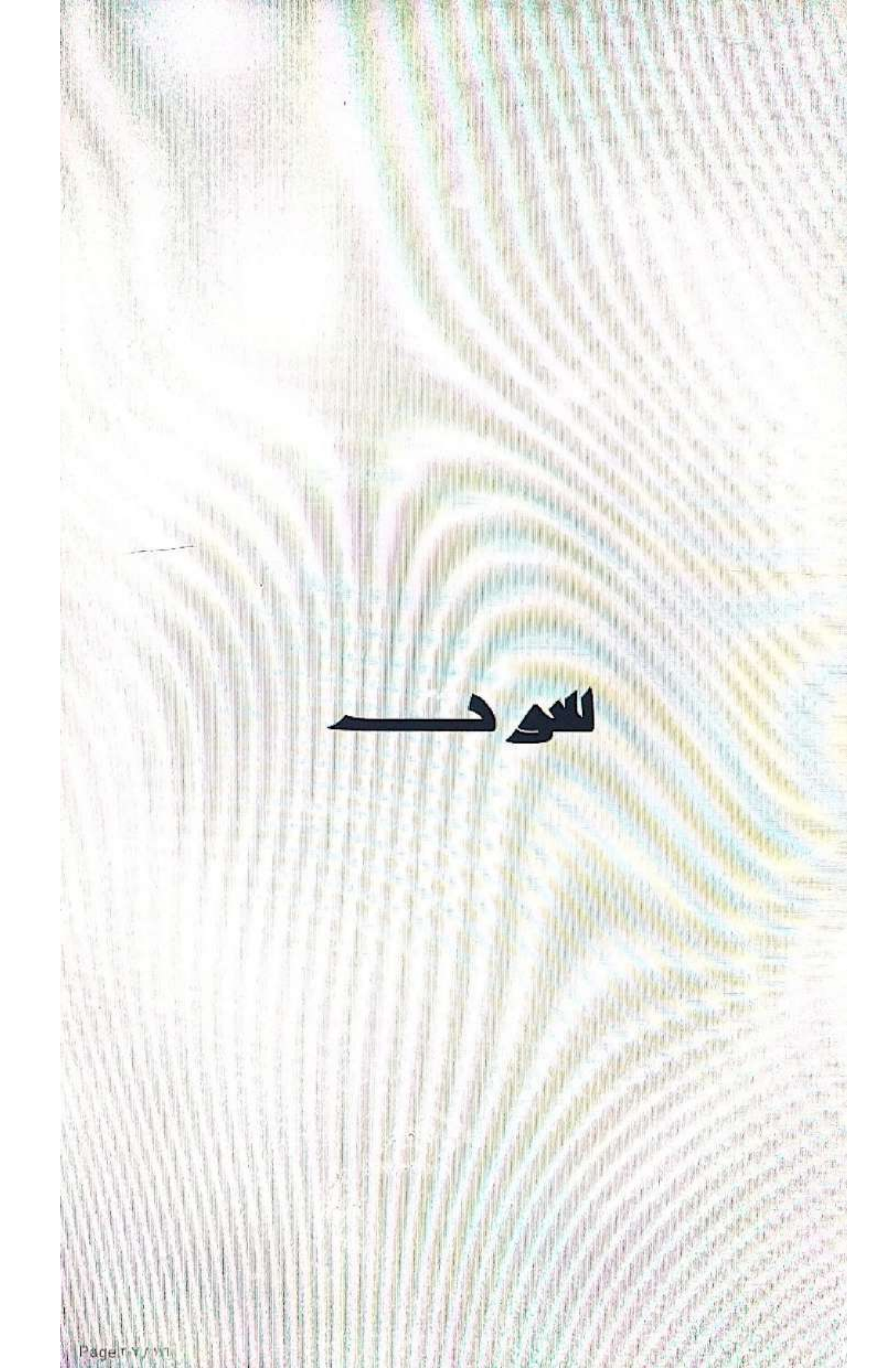
وتُركت البهائم لتقترب من صغارها المذبوحة، وقحطان يقف منتظرًا بينما يمسح الدم عن وجهه، وأهل القرية ينظرون إليه، وفيهم سحر وأمه بصمت تام..

وناحت الحيوانات، تداخل الثغاء والنعيق والهدير والخوار، كأنه بكاء كوني وحشي، فرفع رأسه راضيًا، وهو يستجمع أنفاسه، ثم صاح في الناس:

- «*هكذا يكون عزاء خديج*».

ورمى سكينه، وهو يبتعد عن كل هذا نازلًا الجبل.

وباتت عابر على شر حال منذ وصلت إلى هذا الجبل، أو ربما منذ كانت.


سود

في كل صباح يطوف يعرب ببيوت القرية الحجرية، وما بقي من قليل خيامها، مستنشقًا رائحة الصخر في هواء الجبل البارد، مناديًا على اسم كل طفل أمام داره، جامعًا إياهم من أجل اللعب.

عمره ثماني سنوات، لكنه أكبر من كل أقرانه حجمًا وعقلًا، ولا يضاهيه في البنية القوية إلا قليل من ذرية عاد من نساء السبي اللاتي تزوجن برجال عابر، وإن لم يكونوا في رجاحة عقله.

بعمره هذا، كان أفصح أهل القرية، فتكلم بلهجتي عاد وعابر، بل وفق بينهما في كلمات، وتراكيب اختلقها اختلاقًا، وكان خاله رمل قد أثرى لغته بالشعر، يأخذه معه بجولاته بأنحاء الجبل، وكهوفه، مرتلًا أبياته، حتى تعلمه يعرب منه، كما تعلم استعمال الأعشاب في العلاج من جده سكون، والقتال بالسلاح من جده خالد.

ليلًا، تراه مجاوزًا أباه قحطان بمجالس الرجال، صامتًا لا يتحدث، ولا يحدث جلبة خلافًا للأطفال من عمره، فلم يشتك منه الرجال، بل استحسنوا وجوده بمجالسهم، وأنسوا له.

أما سحر، فكانت أمه..

تتناوب عليه بالرعاية مع جدته سكينة، وكان التفاهم بينهما كافيًا لأن تكون خلافاتهما نادرة، واتفقت المرأتان على أن تخبراه أن سحر أخت أمه، وأن خديجًا ماتت من مرض ألم بها بعد ولادته بعام، وأنها ربته ذاك العام، وعلمته لغتها، وكانت أسعد الناس به، فنشأ يعرب مطمئنًا بهما رغم حزنه على فقد أمه التي لم يبق من أثرها إلا صندوق صنعته لها سكينة وسحر، من خشب أشجار اللوز التي جلبها سيل إلى الخرائب. وضعوا فيه أغراضها، ومنعوا يعرب أن يعبث به أو يفتحه.

وسأل سحر مرة، وهو يريح رأسه على حجرها بينما تمشط شعره:

- *«يا خالة، أين ذهبت أمي بعد موتها؟»*.

سكتت سحر لحظات وإن لم تتوقف يدها عن مداعبة شعره الأسود ثم قالت:

- *«أين تظنها ذهبت يا يعرب؟»*.

هز رأسه تعبيرًا عن عدم درايته، فعادت تسأله:

- *«إلى أين تظن أننا سنذهب إن مِتنا؟»*.

فكر قليلًا ثم أجاب:

- *«أشعر أني لن أموت أبدًا».*

ابتسمت المرأة، وقالت:

- *«هذا جيد، لأننا لا نموت حقًا، فقط نغمض أعيننا لحظة، ثم نفتحها من بعد لنجد أنفسنا في أرض جديدة».*

- *«أمي تعيش في تلك الأرض؟».*

- *«نعم».*

- *«أهو مكان حسن؟».*

- *«مكان ساحر».*

أجابته، فقال ضاحكًا: «مثل اسمك»، فضحكت وهي تحتضنه، وقالت:

- *«ما أشد ولعك بالأسماء!».*

دفعها عنه وهو ينظر لها مبتسمًا، وسألها:

- *«لم لا تتزوجين أبي؟».*

دهشت من سؤاله، احمر وجهها، وهمست:

- *«ألا تسأله هو؟».*

وقد فعل..

دخل على أبيه مجلسه بتلك الليلة فجلس جواره هادئًا، كان الرجال يتهامسون بينما قحطان صامت، فلمس يعرب فخذه ورفع رأسه إليه، فاقترب أبوه منه بوجهه، اشتم رائحة العود الزكية تفوح من لحيته، وسأله هامسًا:

- *«لم لا تتزوج خالتي سحر يا أبي؟».*

تنبه جده خالد للسؤال، ورفع عينيه إلى قحطان متفحصًا، لكن الأخير لم يجبه، فقط ربت على رأسه مترفقًا.

كان قحطان قد تزوج بتسع من نساء عابر بعد موت خديج، ولم يتزوج بواحدة من آل عاد الذين أسرهم بعد قتاله مع شداد، وأنجب ذرية عظيمة تحاكت بها كل عابر، لكن هذا الصغير كان أقربهم إلى قلبه.

أما شداد، فقد تابع قتاله بالبلاد بحثًا عن مخصيه، هاجم في كل اتجاه حول إرم إلا اتجاه جبل الجن الذي يخشاه مثل قومه، فأهلك البدو، وسكان القرى القريبة والبعيدة، وأرسل قادته إلى بلاد البحر البعيدة فتملكوها، وأرسلوا له كنوزها، واتسعت على يده حدود إرم فأكلت كل ما حولها، وهُدم السور تمامًا، وأعيد بناؤه على اتساع أكبر مُدخلًا فيه الوادي كله، ثم اكتشف سر صناعة أعمدة العقيق الحمراء بنفسه بوحي شيطاني غامض، فهدم سور إرم مرة أخيرة، وجعل يصنع الأعمدة، وينصبها في كل أرض يدخلها، علامة تملكه لها، ولا يجرؤ غير عاد على دخول أرض معمدة.

وفشى أمر هود في إرم، فتبعه خلق من آل غانم والضحاك، بل وشديد وعوص، غير أن شداذا منعه من الحديث في الأسواق، واستضعف أتباعه، وضيق عليهم، وبدا وكأن موعده معه قريب.

وفي ظهيرة حارة تتبع يعرب وأقرانه أرنبًا تداخلت في فروه أطياف الألوان من الأصفر حتى الأسود، فبدا أجمل من أي أرنب شاهدوه من قبل، لكنه قفز سريعًا مفلتًا من أيديهم حتى وصل سفح الجبل، ودخل وادي عبقر، فتوقف الأطفال إلا يعرب، وكان أهلهم قد حذروهم مرات مغبة الابتعاد عن سفح الجبل، فنادوا على صاحبهم أن غد، لكنه تجاهلهم وهو يتبعه، مغنيًا أبيات خاله من شعر الشجاعة، ودخل قبور صبيحة حتى عبرها، ثم جرى خلف أرنبه مجاوزًا فوهات البراكين، ومنها دار خلفه حول أضرحة عادٍ والعماليق، وهنا داخلته رهبة لم يفهم سببها.

أخيرًا وصل إلى أرنبه المتعب، فانحنى وهو لا يزال يجري، وحمله من قدميه الخلفيتين رافعًا إياه وهو يقول منتصرًا:

«أمسكت بك!»، ثم اعتدل فوجد نفسه ينظر مباشرة إلى صدر رجل عملاق تفوح منه رائحة طيب ثقيلة، ويلبس قلادة ذهبية كبيرة حول عنقه. رفع رأسه إليه مستطلعًا فرأى ملامح لا يعرفها، وكان يعرف جُل الرجال في قريته، وقال الرجل، وهو يتفحصه:

- *«هذا صيد حسن!»*.

هز يعرب رأسه موافقًا، فسأله الرجل:

- *«ابن من أنت؟ وما جاء بك إلى هنا وحدك؟»*.

- *«ابن قحطان، وقد جئت متتبعًا هذا الأرنب»*.

هز الرأس رأسه متعجبًا، وهو يقترب منه قائلًا:

- «*أخبرني باسمك كاملًا*».

- «*اسمي يعرب بن قحطان بن عابر، ألا يكفيك ذلك؟*».

انفتحت عينا الرجل بشراسة، وأمسك بذراع الطفل يسأله:

- «*من أين مجيئك؟!*».

- «*من جبل قحطان*».

قال يعرب، وهو ينظر إلى يد الرجل حول ذراعه، فعاد يسأله:

- «*أي جبل هذا؟*».

فالتفت يعرب باتجاه الجبل، وأشار إليه قائلًا:

- «*ذاك الجبل. اترك ذراعي!*».

لم يفلته الرجل، إنما أحكم إمساكه، وهو يسأله:

- «*تقول إنكم تسكنون ذاك الجبل!*».

- «*نعم! الآن أفلتني*».

- «*والجن! تعيشون معه؟*».

صاح يعرب، وهو يحاول أن يتلفت من بين يدي الرجل:

- «*لم يعد هناك جن*».

من فوره لف الرجل ذراعه اليمنى حول عنق يعرب، ساحبًا إياه، فانفلت الأرنب من بين يدي الصغير، وصرخ يعرب في الرجل مهددًا ليتركه، فرفعه الرجل أمام وجهه، وصفعه صفعة ألجمته.

وتصاعد الدم حارقًا إلى وجنتي الطفل، احتشد الدمع في عينيه حتى كاد يسيل لكنه منعه كي لا يبدو مثل النساء كما علمته سكينة، وضيق عينيه محدقًا في وجه صافعه، كأنه يحفظه للأبد.

ودخلا الشق فاشتم يعرب رائحة ماء عطن، وخدشت قدميه أغصانٌ متناثرة، فشعر بحكة لم يستطع أن يوقفها والرجل يسحبه.

ثم انجلت الظلمة، ورأى جداول الماء الضيقة، وهي تجري من قمة الجبل حتى منابع النهر،

فتساءل محتارًا لم لا يُجلب الماء من هنا للقرية بدلًا من ماء الآبار؟!

وانكشفت أمامه إرم..

مهيبة، فاتنة..

تتلألأ أعمدتها القديمة والجديدة بأشعة الشمس، تتناطح فيها قمم القصور، وطلوع النخيل، وأشجار التوت التي جلبها شداد من الجنوب، وبغاء فوق برجها تنظر للأسفل كأنها تعتنى بالجميع. دخلا السوق فتعالى الصخب، وأذهله أن يسمع فيه لغة خالته سحر فقط من دون لهجة عابر، ورأى الجياد المسرجة، والإبل بأعداد لم يمكنه إحصاؤها، والأواني الفخارية المتراصة، وأوعية النحاس المذهبة، والأسلحة من عصي ورماح ونبال وأقواس وسهام وفؤوس وخناجر، ثم الحلي، والكساء، وكثير من عبيد البدو وإمائهم.

اتسعت عيناه تستوعبان ما يراه، هدأ بين يدي الرجل وهو يغرق في التفاصيل، أدهشه أن يرى الناس جميعًا بهذه الأطوال، مرتدين الملابس المطرزة التي تختلف عن المسوح التي ترتديها عابر.

من قريب وصلته أصوات الموسيقى والغناء من المعابد، وتباطأت خطواته، وهو ينظر كيف يمر النهر بأوسط المدينة متلألئًا، فضرب الرجل مؤخرة رأسه، وهو يقول: «كف عن التلفت».

سارا باتجاه قصر عظيم، لم يعرف أنه كان يومًا ما قصر جده عبد الأعلم، وكان على حاله إلا النقوش التي حفرت على أحجاره لنسور، وحيات تلتف حول بعضها في دوائر متداخلة، والقبة الذهبية التى جُعلت أعلاه، وفوقها يدور نسران دون أن يبتعدا عن القصر.

أحكم الرجل أصابعه حول ذراع يعرب حتى آلمه، واقترب من حارس عند البوابة الخشبية المطعمة بالعاج، وقال له:

- *«أريد أن أرى شدادًا».*

- *«فيم تريده؟».*

سأله الحارس، وهو ينظر إلى يعرب.

- *«في هذا الصبي».*

- *«ما به؟».*

- *«قُل لشداد أنه سيدله على ملجأ آل عابر».*

تجهم الحارس، وهو ينظر للرجل، ثم أشار بيده إلى زميله ليحل مكانه، وأشار للرجل أن

يتبعه.

دخلا إلى حديقة واسعة، فرأى يعرب الإسطبلات الملكية حيث كانت أجمل وأضخم خيل رآها، وحولها الخدم يقدمون لها الحشائش، ويمسحون ظهورها، أمامها ساحة خضراء كجنة، تتسابق فيها بعض تلك الجياد، وعلى ظهورها صبيان وصبايا، ثم دخلا إلى بهو واسع من بوابة مذهبة بالكامل، محفور فيها نقوش بتلات زهرية، وفي الداخل كانت حوائط البهو مزينة بتماثيل متراصة، ورسوم متتابعة، رسم لرجل يصرع رجلًا آخر، رجل يصارع أسدًا، ورجل يسحب خلفه حيوانًا عظيم القرون لم يعرف يعرب أنه بقر وحشي، وآخر لرجل يقف على ظهر جمله، ثم أثار انتباهه رسم لرجل يحتضن امرأة عارية، فشعر بضغطة أسفل بطنه استعذبها مع غرابتها.

وببطء شديد بدأ يتذكر أطراف حديث سمعها من قبل بمجلس أبيه عن عاد وشداد وإرم.. عن الانتقام المؤجل والحروب القديمة والمذبحة، فتحولت دهشته مما يراه إلى فزع فشى داخله، وهو يفهم ما عناه آسره حين قال للحارس أنه عرف مكان آلِ عابر، واشتعل بطنه بإعصار حارق، وقد فهم ما هو على المحك.

ألم يخبر الرجل فعلًا بكل شيء ساعة أمسك به بالوادي؟ حتى إن سكت الآن فقد عرفوا ما يكفيهم حتى يصلوا إلى أهله.

رفع عينيه إلى الرجل مرة أخرى، ملابسه ثقيلة مصبوغة بالأحمر، يلف حزامًا جلديًا أسود وسطه، وقد علق فيه خنجره، وحول يده قلادة من ذهب قد لونت أطرافها بصبغ أزرق، وزعت فيها أحجار من ياقوت.

أمام بابٍ قد زين بنقش لنسر مهاجم وقف الحارس، والتفت إلى الرجل وهو يقول:

- «*استعد لتلقى الملك*».

فانتصب فارذا قامته، وشعر يعرب برجفة في يده، والحارس يدفع بكلتا يديه الباب فينقسم النسر المفترس المنقوش من أوسطه، بينما تنفتح أمامهم صالة رخامية واسعة بدت كأنها بلا نهاية، تتوزع فيها مجالس خشبية لرفاق شداد ومجلسه، وبنهايتها تمثال صمود الذي وقف عنده جده يومًا ما، وهو ينظر جثة ابن أخيه يلوذ.

رمى يعرب بنفسه على الرجل ساحبًا خنجره من غمده فصاح الرجل كعادة الكبار مع الصغار، «تأدب أيها الصغير!»، لكن يعرب أحكم قبضته على مقبض الخنجر متذكرًا تعاليم جده خالد، ثم دفعه بأقصى ما استطاع في بطن الرجل أعلى حزامه فاخترقه، ثم أدار الخنجر حافرًا في لحمه والرجل يصرخ غير مصدق، ويسقط على ركبتيه منهزمًا فيشد يعرب

معه للأسفل، فيسحب الأخير الخنجر بصعوبة، ويغرزه بتجويف عيني الرجل حتى نهايته.

وسقط جثةً هامدة..

بال يعرب على نفسه، وهو يراه ممددًا أسفل قدميه.

واضطرب المجلس، أزيحت الكراسي، سقطت الأقداح بما فيها، وعلت صيحات الرجال، وبسرعة سحب الحارس الخنجر من رأس الرجل، فرفع يعرب إليه عينين تائهتين، وهو يرى الملك وقد قام من مجلسه، مقتربًا منه بسرعة، ومن خلفه نسره، يمشي متأرجحًا، وصوت مقزز يتبعه من أطراف مخالبه التي تخمش الأرضية تحته.

«ما هذا؟!»، قال شداد، ونسره يقترب من الجثة، يصعد فوق صدر الميت، وينقر رأسه كأنما يوقظه.

«آآآ... هذا الرجل...»، قال الحارس بصوت مرتبك، تقطعت أنفاسه، فشهق وعاد يكرر:

- «*هذا الرجل كان يقول إن الطفل يعرف موضع آل عابر*».

التفت شداد إلى يعرب، وعيناه تتسعان انفعالًا.. على خلاف من حوله، لم يكن له لحية، أو شارب، جسده ممتلئ كجسد امرأة، وثوبه الملون لا يضاهيه في ألوانه ثوب أي رجل آخر.

أحاط وجه يعرب بيد واحدة، ضغط خديه وقربه منه سائلًا:

- «*أحقٌ ما قاله أيها القاتل الصغير؟*».

تسارعت أنفاس يعرب، نظر للأرضية أسفله في خوف، شعر أنه لم يعد قادرًا على الوقوف، ورأى الشوكة الخشبية التي شعر بها وهو يعبر الشق وقد انغرزت بين إصبعين من أصابع قدمه مخلفة جرحًا لم يتجلط دمه بعد.

سمع صوت قطع، فالتفت ليرى النسر، وقد نشب منقاره في لحم الميت، فلف شداد رأسه لينظر إليه من جديد، وقال:

- «*سألتك فأجب*».

واضطرب بؤبؤ عين يعرب وهو ينظر للملك ولا يجيب، فضرب شداد أنفه بقبضته بغلظة. نزف أنف الصغير وبكى..

- «*أتفهم ما أقول أيها الجرو؟ أم إنك تتحدث لغتهم الوضيعة؟*».

أغلق يعرب عينيه، فتلقى صفعة جعلت أذنيه تصفران بجنون، وجاءه صوت زعيق شداد:

- *«إياك ألا تنظر لي وأنا أحدثك»*.

ففتح يعرب عينين تبكيان، ودهمته رائحة بهيمية وشداد يرفع النسر إلى وجهه، فيراه يفتح منقاره ويغلقه ببطء كالمتلذذ وبقايا لحم الرجل لا تزال بفمه.

- *«لا يزال نسري هذا جائعًا يا صاحب البول، وإخوته أكثر جوعًا منه. سيفضلون طعم اللحم الطري لصبي صغير على لحم هذه الجيفة، فتكلم وإلا أطلقتهم عليك»*.

بذاك الوقت، على جبل قحطان، كان الصغار قد رجعوا لذويهم، وأمام خيمتها وقفت سحر تنتظر صغيرها الذي لم يعد، فسألت عنه أخاه يقطان لكنه لم يعرف أين هو، ثم سألت صبية آخرين أجابوها أنهم لم يروه، وانقضى المغيب، وغلفت الظلمة كل شيء والحال كذلك لا يزال، فلم تطق صبرًا وانطلقت إلى مجلس أبيه والبوم ينعق بطريقها. دخلت عليه فتوقف الرجال عن الحديث وهي تقترب من قحطان.

- *«لم يرجع يعرب»*.

نظر إليها في غير فهم، فقالت:

- *«لم يتأخر عني من قبل حتى غروب الشمس»*.

تململ قحطان في جلسته، وهو يختلس نظرات إلى من حوله، وقهقه خالد قائلًا:

- *«كذلك النساء»*.

- *«يا قحطان، أرجوك افعل شيئًا، قلبي يحدثني أنه ليس بخير»*.

كانت المرة الأولى التي يراها فيها على تلك الحال، فهز رأسه في غير اقتناع لكنه التفت إلى أحد الشباب، وقال:

- *«أحضر لي رفاقه جميعًا أسألهم عنه»*.

والتفت إلى سحر آمرًا:

- *«عودي لخيمتك حتى آتيك به»*.

- *«لا أفعل حتى أطمئن»*.

قالت فضحك خالد من جديد، وهو يربت على فخذ قحطان قائلًا:

- *«هون عليك، ودعها حتى يرتاح قلبها»*.

فالتفت قحطان إلى عمه، واغتاظ من مرآه يتأمل المرأة..

وإذ سأل عنه رفاقه، بدأ قحطان ينفعل بالخوف.

قالوا إنهم خرجوا للهو بسفح الجبل، ثم لمح يعرب أرنبًا فريدًا فاتبعه حتى وادي عبقر والقبور، حتى اختفى بين أضرحة العماليق.

همس خالد بقلق: «عاد..».

خفض قحطان رأسه يفكر، فاقترب منه وقال:

- *«لا بد أن بعض عاد قد أمسك الفتى»*.

فقال سكون، ولم يكن مجلسه بعيدًا عنهم:

- *«يجب أن نعيده إذًا»*.

التفت إليه خالد متحفزًا وهو يقول:

- *«تريد أن تدخل إرم! ماذا إن كان الصغير قد دلهم على قريتنا ولا يلبث شداد أن يأتينا ليلًا»*.

فقال رمل بلهجة الواثق:

- *«لن يخبرهم يعرب بشيء»*.

فأجابه خالد، وكان يبغضه:

- *«وما يدريك أنت؟ أم أن الجن أخبرك؟»*.

- *«أعرف يعرب أكثر منك يا صاحب الأذن الواحدة»*.

هب خالد غاضبًا، فقال قحطان بهدوء:

- *«اجلس يا عمي»*.

وكاد خالد يتكلم فأسرع قحطان يقول:

- *«واسكت»*.

ثم نظر إلى رمل وقال، وسحر تنظر إليه:

- *«سأخرج لأبحث عنه، فهل أنت معي؟»*.

هز رمل رأسه أن نعم ويده تتلمس خنجره في حركة لا إرادية، فوقف قحطان ولملم

عباءته حول جسده، وقال لعمه سكون:

- *«لا ينام أحد من الرجال يا عمي، وليتسلح الكل تحسبًا. لا أحسب يعرب يتكلم إن أخذوه، لكني لا أعرف إلى أي مدى يمكن أن يعذب شداد رجلًا، وأرسل خير رجالنا فليترقبوا أطراف الوادي من ناحية إرم».*

سأله سكون:

- *«ألا نتجهز للرحيل أيضًا؟».*

هز قحطان رأسه، وقال:

- *«لا يمكن. إن عرف شداد فسيكون الأمل الوحيد في النجاة منه هو قتاله، أما إن فررنا فما أسرع أن يصل إلينا».*

وتعالت الهمهمات بالمجلس بينما اقترب خالد من ابن أخيه وسأله بجرأة أمام الجميع:

- *«مالك لا تؤمرني على هؤلاء؟ لم سكون؟».*

فأجابه قحطان، وهو ينظر إلى عينيه مباشرة، وكانتا محمرتين غضبًا:

- *«يا خالد.. أنت اليوم رجل مذعور، ومثلك ليس خليقًا بأن يقود الرجال».*

امتقع وجه عمه، ونادى رجل على قحطان قائلًا:

- *«ألا نخرج معك؟».*

وصاح آخر:

- *«والله لسنا نخافهم، ويعرب أخونا».*

ثم تصاعدت صيحات متشجعة، فابتسم قحطان، وهو يمسك بذراع عمه سكون ويقول:

- *«كما قلت لكم، ليس يعرب بالمخبر بمكاننا، وذهابي مع رمل متسترين بليل خير من ذهابنا جميعًا».*

ثم نظر إلى سكون، بدا أصغر منه عمرًا، ظل على حاله من الجمال، فقط شاب بعض شعره، وقال:

- *«وهذا عمي سكون، وهو خيرنا كما خبرتم، إن لم أعد، فاسمعوا له وحده، وأطيعوا».*

ثم أشار إلى رمل الذي تبعه، ومن ورائهما سحر.

واختار أن يكون خروجه في اشتداد الظلمة، فوق سماء.

وضع يده على رقبتها رابتًا كما كانت تفعل خديج.

حمحمت الفرس مستأنسة به، كان قد بدأ يشك بحملها إذ كانت ترفض اقتراب الذكور منها منذ أسابيع، قال لها:

- «*أعلم أنك متعبة، ولكني لا آمن أن أذهب بغيرك يا سماء*».

قربت رأسها منه فمسح على شعرها، ومن خلفه جاءت سحر، وهمست:

- «*سأذهب معك*».

لم يلتفت لها، فقط قال:

- «*تريدين العودة إلى أهلك يا سحر؟*».

- «*أريد أن أعيد يعرب إلى الجبل*».

- «*مقامك هنا خير لنا*».

اقتربت منه وقالت:

- «*يا قحطان، أنت رجل لم يدخل إرم منذ عشرين عامًا، وأنا امرأة تعرف كل تفاصيل المدينة.. أعرف موضع السجن الذي أقامه شداد، وأماكن الأحياء والدور، كما أني منهم، لن يشك في أحد إن رآني أمشي بين دورهم*».

هز رأسه، وقال:

- «*سيخبرهم ثوبك أنك لست منهم*».

- «*سأغيره*».

قالتها وهي تسرع إلى خيمتها، فالتفت قحطان عنها إلى الوادي الهادئ، ولم تلبث إلا قليلًا حتى خرجت إليه وقالت:

- «*انظر إليّ*».

ترك حصانه، والتفت لها بجسده..

وانفتح فمه قليلًا وهو يراها في ثوبها الأبيض الذي أسرت فيه، جسدها لا يزال غضًا كأنها لا تكبر، وثوبها لا يزال على بهائه القديم. دق قلبه لحظة كأنه اشتهاها، لكنه أسرع يغض

بصره، وابتلع ماء حلقه وهو يفكر في عرضها.

- *«قولها حق يا قحطان»*.

قال رمل، وهو يقترب ساحبًا ناقته.

- *«إن كنت من عاد، فإني لم أدخل إرم منذ طفولتي، ولا أذكر عنها إلا أطياف الماضي. هي أعلمنا بها فخذها معنا»*.

ارتقى قحطان سماء، ثم مد ذراعه إليها وقال:

- *«اصعدي خلفي»*.

نظرت ليده، وقالت:

- *«لا أفعل! لا تحل لي»*.

ابتسم رمل، بينما قال قحطان:

- *«لا أتركك وحدك فوق دابة، فتنفخ بغاء في أنفك، فتهربي منا، فإن أردت المجيء كوني قريبًا منا»*.

- *«لست زوجًا لك لأركب معك دابتك»*.

تأملها لحظات..

ثم قال:

- *«إن عدنا بيعرب يا سحر، أتزوجك»*.

ورفع رمل عينيه إليه مندهشًا..

وارتعشت شفتا سحر لحظة..

ثم مدت يدها ملتقطة يده كطفلة مع أبيها، حتى جلست خلفه على سماء..

وانطلق ثلاثتهم في الظلام..

كان المنحدر خطيرًا حين تعتم الرؤية لكن سماء كانت تعرفه، وخلفها كانت ناقة رمل تتبعها خطوة بخطوة.

ومن موضع قريب من قبر خديج، وقف سكون يتابعهم، وهم يعبرون وادي عبقر، ثم المقابر إلى الشق..

فلما غابوا، سمع دعوات سكينة إلى إله خديج الواحد أن ينقذهم.

***

اعتصرت برودة قلب قحطان، وهو يدخل إرم مع رفيقيه..

كانت أعمدة جديدة قد انتصبت، رآها تلمع في الظلام بنور أحمر رقيق، والمشاكي العملاقة قد وزعت في الطرقات، تضيء نيرانها المدينة العظيمة مظهرة قصورها، ودورها، والمعابد.

همست سحر:

- *«شد ما تغيرت إرم في بضع سنين»*.

«أين السور؟»، سألها بحيرة فقالت:

- *«أحسب أن شدادًا قد هدمه، كان هنا حين غادرنا إلى البحر»*.

ودخلوا ما كان حيًا لآل مخلص، لكنه زال إلا القصر، وبقية من دورٍ جعلها شداد سجنًا ومخازن سلاح وحبوب وورشًا.

وتتابعت أمام أعينهم تماثيل بغاء وصداء وصمود والنسور، فلم تخل منها ساحة، أو تقاطع طرق، وسأل رمل:

«أين سنجده؟»، فالتفت قحطان إلى سحر، رأى قحطان عينيها دامعتين فتأثر، وقالت هي بهدوء:

- *«لنبدأ بالدور التي جعلها شداد سجنًا، فإنها قريبة»*.

مروا بمحاذاة دور مغلقة لا أثر للحياة فيها، وعلى باب كل منها نقش نسر صغير كأنه ختم، فقالت سحر:

- *«هذه ورش الذهب والفضة والسلاح، أرادها شداد أن تكون قريبة من قصره»*.

عدها قحطان فكانت أكثر من ثلاثين، كل منها في مساحة بيت صغير، وبعضها في حجم عدة دور، أكثرها له أكثر من طابق، بعضها وصل خمسًا، من ورائها توقفوا، وقد ميزوا ظلالًا، وسمعوا شذرات حديث خافت، وحسيس نار.

اختبأوا خلف أقرب الورش، وقام قحطان، فتسلقها لينظر من علٍ، فرأى أربعة رجال مسلحين، وقد جلسوا حول نار يشوون ذرة، ويتسامرون أمام دار قد سدت نوافذها بالحجر.

دق قلبه وهو ينظر تلك الدار، كأنها سجن، سقفها مرتفع لا يعلوه برج حمام، ولا قباب مزخرفة، أو أعمدة كباقي الدور بهذا الحي الملكي، فقط سقف معروش من عروق النخل.

بسرعة نزل إلى رمل وسحر وحكى لهما فقالت:

- *«دعني أسألهم»*.

- *«تسألينهم!»*.

- *«نعم، أسألهم. امرأة من عاد تمشي وتسأل حرسها عن أمر»*.

تردد قحطان وهو ينظر إليها، تلمّس ظهر سماء وهو يفكر، فاقتربت منه سحر وهمست، وعيناها ترنوان إليه:

- *«ألم تعدني أن أكون زوجك؟»*.

- *«نعم»*.

- *«أتخون امرأة من عاد زوجها؟»*.

«لا»، همس بصدق.

- *«ففيم خوفك؟»*.

هكذا غادرتهما، مشت باتجاه الرجال، رفعوا رؤوسهم إليها، وكفوا عن السمر، لم يبد أن أحدًا عرفها.

كان وهج النار يلتمع على وجهها فيزيد جماله وهي تسألهم:

- *«ألم يرَ أحدكم طفلة صغيرة تحمل جوالًا؟ أرسلتها أمي به للسوق، ولم تعد بعد»*.

- *«هل بحثت في السوق؟»*.

سألها أقربهم.

- *«فعلت»*.

فقال آخر:

- *«لعلها خرجت للسوق الجديد»*.

- *«تظن ذلك!»*.

سألته، فهز رأسه بثقة وقال:

- *«نعم، كذا تفعل زوجتي، تقول لي أنه خير من السوق القديم»*.

ابتسمت وهي تشكره، وقبل أن تغادر سألتهم مرة أخيرة كمن تذكرت شيئًا:

- *«فيم مكوثكم هنا؟»*.

فأشار أحدثهم عمرًا إلى الدار وقال:

- *«غلام بني عابر»*.

نبض قلبها بانفعال، وهي تلتفت للدار، ومن جديد سألت:

- *«وما قصته؟»*.

فتح الفتى فمه ليجيبها لكن زميله أوقفه بإشارة من يده، وهو يقول لسحر:

- *«عجلي بالبحث عن أختك قبل أن يشتد الظلام وتشمها الذئاب»*.

همست:

- *«نعم»*.

وحين عادت لتخبر قحطان ورملًا، كان رجل من الحرس قد قام يدور تأكدًا من أنها غادرت، ففتح قحطان باب الورشة وسحبها للداخل مع رمل، ثم سحب سماء وجمل رمل، ودفع الباب ببطء كي لا يحدث صوتًا.

قالت وهي تكافح كي تمنع دمعها:

- *«يعرب بالداخل يا قحطان!»*.

- *«صه! أخفضي صوتك»*.

قال هامسًا، ثم ابتلع ماء حلقه وهو ينظر إلى رمل، وسألها:

- *«ما سلاحهم؟»*.

- *«الفؤوس»*.

أجابت.

- *«فقط الفؤوس!»*.

- *«ألا تكفي؟! رأيت مع اثنين منهم خناجر، لست متأكدة من الباقين»*.

- «هل أخبرهم بمكان قريتنا؟».

عاد يسألها فأجابه رمل هذه المرة:

- «يا قحطان، لو كان أخبرهم لم تكن هذه القرية لتظل نائمة حتى الساعة، ولكان شداد يتجهز للزحف الليلة».

هز قحطان رأسه موافقًا وهو يقول:

- «لعله كما تقول يا رمل».

وتابع:

- «سأصعد أعلى تلك الدار ومعي فأسي، لعلي واجد فجوة في جذوع النخل تلك».

سألته سحر:

- «هذا دخولك، فكيف تخرج منها؟».

فأجابها رمل، وهو يرفع يده وبها لفة خشنة:

- «بالحبال».

- «وأنا! ماذا أصنع؟».

قالت سحر.

- «انتظري هنا، راقبي، وتجهزي بسماء وصاحبتها، وإن حدث شيء تكرهينه فعودي إلى قريتنا وأخبري سكونًا».

وخرج قحطان، بمحاذاة الجدار الخلفي للدار سار ومن خلفه رمل، حذرين أن يقابلا الحارس الجوال، مرهفين السمع، يبحثان عن موضع يصعدان منه لأعلى الدار.

على خلاف الورشة، كانت جدران هذه الدار ناعمة وذلك صَعَّب تسلقها، فاعتمد قحطان على فأسه، يثبتها في الحائط كلما صعد درجة للأعلى محتميًا بجلبة صوت النار، وحديث الرجال.

لكنه كان قد ثقل، ولم يكن قحطان القديم الذي صعد لباب إرم يومًا ليجلب جثة عبد الأعلم، تذكر ذلك اليوم، وهو مستمر في الصعود لاهثًا..

كتمت أنفاسه، وكاد يسقط مرات..

لكنه بالنهاية اعتلى الدار.

أصبح فوق جذوع النخل المتقاطعة، امتلأ بالأمل حين رأى أن هناك كوة يمكن لجسد نحيل أن يعبر من خلالها، لكنه سيحتاج لتوسعتها بفأسه ليفعل، اقترب منها ونظر.

كانت الظلمة مانعة للرؤية، لكنه إذ مدد جسده فوق السطح، وضيق عينيه محاولًا استنباط أي شيء استطاع أن يميز جسد ابنه في وسط الدار، مقيدًا وساكنًا، كأنه نائم جالسًا.

دس نفسه في الفتحة، لم تكفه بحال، أمسك بفأسه وبدأ يباعد بحذر بين الجذوع، واقترب ثانية ليجرب، وتحطم جذع ضعيف تحته فسقط من الأعلى، وارتطم رأسه بأرضية الدار أمام ابنه الذي فتح عينيه جزعًا!

«أبي!»، حاول قحطان أن يجلس معتدلًا، لكن رأسه كان يدور بشدة، والتفت إلى جانبه فتقيأ والدم ينزف من جانب رأسه، وانفتح الباب بسرعة فدخل رجلان، رافعين فؤوسهما، وما إن رأيا قحطان حتى جريا إليه بينما ابنه يصرخ فيه ليفر لكن صفير أذنه، والألم المفجع جعلا ذلك مستحيلًا، وهبط رمل من الأعلى ممسكًا بالحبل الذي ثبته، فضرب بفأسه صدر أقرب المهاجمين، ثم تلقى ضربة بكتفه من الآخر، وبأقصى ما استطاع، ضرب يعرب بقدميه المقيدتين قدمي الحارس فاختل توازنه ساقطًا، فرفع رمل فأسه وشق بها رأسه.

«بقي اثنان»، همس رمل وهو ينظر للباب بحذر، والتفت قحطان إلى ابنه ينظره فرأى أنفه المكسور الذي لا يزال الدم متجلطًا أسفله، وابتسم له.

ودخل الحارسان مسرعين فانقض أحدهما على رمل الذي تراجع وهو يرفع فأسه، واندفع الحارس الآخر إلى قحطان، لكن صخرة ضربت رأسه بقوة من الخلف فالتفت والدم يسيل منه ليرى سحرًا! غرز خنجره ببطنها حتى شعر بتمزق أحشائها على يده، فصرخ قحطان غاضبًا، وشد قدمي الحارس مسقطًا إياه جواره، ثم اعتلاه، جلس فوق صدره، وسحب رأسه للخلف ثم هوى به فوق جبهته، مرة ثم ثانية، وثالثة، حتى أصبحت جمجمة الحارس لدنة، قد تحطمت عظامها، وخمد تمامًا وسائل أبيض لزج يسيل من جانب فمه.

وبدأت يد قحطان ترتعش، كانت بداية الرعشة التي ستلازمه حتى توافيه المنية.

التفت إلى سحر بعين مشفقة مما سترى، فرآها تجر نفسها إلى يعرب، تجلس عنده، تغطي ساقها بثوبها، والدم ينزف من بطنها.

مدت يدها الرقيقة تمسح الدم الجاف عن فم الطفل، وهي تنظر له بعينين صافيتين.

جذبت وجهه إليها، وقبلت جبينه، وهمست له بصوت ضعيف:

- *«يا يعرب.. أنت إرم وكل العالم حولها».*

- *«كيف قلت؟».*

سألها باكيًا، فقالت:

- *«أنت كل شيء عندي».*

والتفت قحطان وهو يشعر أنه على وشك أن يفقد وعيه إلى رمل فوجده ملقًى على جثة مهاجمه، فأس كل منهما مغروسة في صدر الآخر، عيناه مفتوحتان تنظران إلى العالم غير المرئي.

سقط رأس سحر على فخذ يعرب، فزحف قحطان إليها، وهو يمسك بيدها وهمس:

- *«سأعيدك إلى الجبل».*

رأته فابتسمت وهي تترك كفها بيده وهمست:

- *«لا عليك من جسدي، يتولاه أهلي، أما أنت، فأريدك أن تخبر عابرًا أني كنت زوجتك».*

«نعم»، قال قحطان ودمه يسيل.. خلع خاتمه للمرة الأولى منذ ورثه من أبيه..

وضعه بإصبعها وهو ينتحب.

ومن باب الدار دخلت سماء، صهلت بقوة وهي تبصرهم.

وأغمضت سحر عينيها..

همس قحطان للفرس وهو يفقد إحساسه بما حوله والظلمة تتكون حوله..

- *«أعيدينا إلى الجبل».*

فضربت الأرض بحافرها وهي تقترب مسرعة.

***

أمر شداد أن تحرق الجثتين، لكن كل آل غانم، وهم أهل سحر، خرجوا فوق بهائمهم وحاصروا الدار بما فيه مانعين أيًا من رجال الملك أن يقترب منها، فتكوا بالحرس الذين أرسلهم شداد، وهددوا بالمسير إلى قصره وحرقه إن تطاول على جثة ابنتهم، فتراجع شداد للمرة الأولى خوفًا من غضبتهم، وكانوا أكثر إرم عددًا.

وحمل آل غانم جثة سحر وجثة رمل، ولما جُهزت للدفن وجدوا في إصبعها الخاتم، وعليه

وسم آل عابر، فعرف أكثرهم أن ابنتهم كانت زوجة لأحد رجالهم.

ولُفت سحر في ثوب أبيض اختارته لها أمها.

كان الثوب بالأصل ثوب زفاف، مطرزًا بنقوش لزهرة حنك السبع، وغُطي شعرها الغزير بطرحة مزينة بخيوط الذهب، ثم عطرتها بماء الورد الذي كانت تحبه. حملت إلى معبد بغاء فتلت عليها الكاهنة الصلوات، بعدها خرجت المسيرة العظيمة إلى قبور عاد، وحُفرت حفرتها، وبُطنت بالحجارة فأصبحت بحجم غرفة صغيرة وضعت فيها ثم غطتها صخرة عملاقة سهر عليها آلها بالنقش فأصبح قبرها آية في الجمال.

أما رمل فدفن على عجل بأحد قبور آل مخلص المهجورة، فصادف أن كان قبره الجديد هو نفس القبر الذي وضع به أول مرة وهو صغير.

بتلك الليلة حلمت أم سحر أن ابنتها تزف إلى رجل وضيء الوجه، ذي قامة طويلة، سار إليها ومن خلفه كل آل عابر يحملون الدفوف.

وذهب شداد إلى أمه، طرق بابها وهو قلق لا يزال من مخالفة آل غانم لأمره، وتجرؤهم عليه، فتحت له خادمة بدوية نحيلة، أمرها بالانصراف، وهو يغلق الباب من خلفه ناظرًا لأمه باحترام.

كانت ضخمة جدًا، وكأنها ثلاث نساء بجسد واحد عملاق، شعرها أسود فاحم ذو خصلات غليظة يلمع بالزيت رغم أنها قد جاوزت السبعين. تفوح منها رائحة قوية منفرة لا يتحملها إلا من اعتاد عِشرتها.

جلس عندها ثم تمدد، وترك رأسه يستريح على فخذها فابتسمت وهي تتحس شعره سائلة:

- *«ما أهمك؟»*.

- *«أحقًا أنا الملك الذي كنت تأملين أن أكونه يا أم؟»*.

- *«ومن مثلك؟ انظر إلى نفسك يا شداد، كنت ملكًا منذ نعومة أظافرك. هذا قدرك الذي خُلقت له. أن تجعل عادًا أعظم أهل الأرض، وأغناهم، وأكثرهم نفيرًا، وقوة»*.

- *«أشعر أحيانًا أني مكبل بالقيود التي يصنعها الناس من حولي. وكأني أريد أن أفعل ما هو أعظم لكنهم يخذلون»*.

- *«دَع عنك حديث النسوة هذا فأنت رجل، وأخبرني بما حدث فأهمك»*.

رفع رأسه إليها، للحظة رهب أن يخبرها، ثم تكلم لما رآها تحدق فيه بغضب:

- «عصى آل غانم أمري اليوم».

- «سمعت خبرهم».

- «وعلاج ذلك؟».

فكرت ثم قالت:

- «لا تجرب أن تؤذي رجلًا من عاد في نسائه».

- «كنت قريبًا من معرفة منازل بقايا آل عابر».

- «هم قريب، ما دام ابنهم قد وصل إلى قبورنا».

- «قد غزوت كل ما حول إرم ولم أجد لهم أثرًا».

- «لكنك لم تغزُ جبال الجن، ولا صبيحة، ولا الوادي».

- «ومن يجرؤ أن يفعل؟!».

- «فعلها أجدادك من قبل».

- «كيف؟!».

- «قديمًا كانت الأرض كلها ملكًا للجن، فنازعهم الناس عليها حتى ألجأوهم إلى الجبال، والأودية المقفرة، والقبور المهجورة.. فلم لا تفعل ذلك؟».

- «تحسبين أني واجد عابرًا هناك؟».

- «وإن لم تجدهم، أنت بحاجة إلى تلك المعركة».

استقام جالسًا، وحدق في أمه، فتابعت:

- «قد بنيت إرم يا شداد، وغزوت البدو، وأفنيت آل مخلص، وغيرهم، واتبعك الناس في كل ذلك، لكن الناس تتبع ملوكها ما دام أولئك الملوك يأتون بالجديد من الفعل، ويصنعون ما لم يأت به الأولون. أنت تحتاج أن تغزو أرض الجن إن أردت أن يتبعك الناس في قابل السنوات».

تفكر شداد في كلمات أمه، نعم، لا بد من أمر جديد كل بضع سنين من أجل أن يظل خالدًا في هذه المدينة كملك لم تعرف عاد مثله..

- *«أيعبد الجن بغاء مثلنا؟»*.

سأل أمه، فأجابت:

- *«لا، لهم إله قديم يعبدونه»*.

- *«غريب!»*.

همس شداد متفكرًا فسألته أمه: «ما الغريب؟».

- *«ذاك الرجل، هود. يدعو الناس إلى إله يقول إنه قديم»*.

- *«قديم؟»*.

- *«أزلي»*.

صمتت أمه، وهي تلعق شفاها كما تفعل كلما انغمست في التفكير، لمح بين خصلات شعرها قملة صغيرة تنسل مختبئة، فكر أن يمسك بها لكنه تراجع حياءً.

- *«سمعت بهود، لكني لا أعرف إن كان يدعو الناس إلى عبادة بغاء وصمود وصداء مع إلهه»*.

- *«بل يمنع الناس عنهم»*.

- *«وتركته؟!»*.

- *«لم أحسبه شيئًا»*.

- *«وهل اتبعه أحد؟»*.

- *«بعض رجال ونساء»*.

- *«من أي حي؟»*.

- *«الأربعة»*.

- *«وأبقيته؟!»*.

صرخت مستنكرة.

نظر شداد إليها بلا كلمات، وإن بدأ الغضب يلتمع على وجهه الأمرد.

- *«ليكن قتلك له ومن معه دليلًا على بأسك بعد ما كان من آل غانم اليوم»*.

صمت فقالت له:

- *«لا يلبث هذا المتنبئ أن يجمع من حوله ويخرج عليك»*.

هكذا زُلزلت إرم بخبرين..

أولهما، أن رجالها سيسيرون ليلًا تحت إمرة شداد بحثًا عن عابر بأرض الجن، وعلى خلاف ما توقع، تحمست عاد للمسير ولم يهابوه. كانت الدور تعج بالسلاح، والقبيلة في أوج عظمتها، وبدا وكأن الجن نفسه لا يقدر عليها، ثم أن الأمل لم ينقطع أبدًا في العثور على سبايا معركة الشاطئ من بناتهم وأبنائهم وإعادتهم إلى بيوتهن.

أما الخبر الثاني، فكان ما أمر به الملك، أن يقفز كل حي على من اتبع هودًا من أبنائه، فيخيرهم بين العودة إلى دين بغاء أو الذبح، ولم يستثن شداد من ذلك أحدًا حتى أبناء حيه، كما أمر أن يُجلب هود وأهل بيته فيذبحوا في الساحة الحمراء تحت نظر بغاء.

لكن..

لم يُعثر على هود.

ولا على آل بيته.

ولا على أحد من أتباعه.

تواصل البحث عنهم بكل شبر من إرم. كانت دورهم خالية.. لم يأخذوا معهم متاعًا، ولا كسوة، ولا حتى بهائم.

وعزم شداد على الوصول إليهم بعد أن يفرغ من أرض الجن.

وهناك..

بتلك اللحظة..

عند قبر خديج، قريبًا من حافة الجبل، وإلى جوار سماء التي حملته، وحملت يعرب بقيوده، كان قحطان جالسًا.

ترتعش يداه بشدة دون توقف، وببطء ينزف جرح رأسه الذي لم يلتئم، كان قد لفها بعصابة سوداء، سرعان ما ابتلت بالدم.

كان لسانه قد ثقل عن النطق إلا بمشقة، لم يستطع النوم إلا لحظات يغلق فيها عينيه من شدة الألم والحزن.

لكنه انشرح حين لمعت أمامه النقاط البيضاء كنجوم صغيرة من جديد، وكان قد افتقدها منذ معركة الجن، ودمعت عيناه وهو يحاول أن يقول بلسان معوج:

- *«رَسُل إيل»*.

احتضنت وجهه ريح طيبة فأغمض عينيه مستنشقًا، وسمع صوت أجنحة الملائكة، وكلمه أحدها:

- *«شد ما لقيت بعمرك يا قحطان»*.

- *لا تجلب الأيام إلا الألم»*.

قال بصوت متهدج، فسأله:

- *«ما أكثر ما يؤذيك فيها الساعة؟»*.

فتح قحطان عينيه، كان نورٌ يضيء المكان كله كأنه جالس فوق القمر، تبللت عيناه بدمع غزير تركه ينساب، وهمس:

- *«فراق الأحبة، وتجبر عاد»*.

- *«انظر إرم»*.

فرفع قحطان عينيه باتجاهها.

كانت البراكين بالوادي تنفخ الدخان والحمم، والنار تستعر بباطنها..

وفوق إرم كانت سحب ركامية تتخلق، تتقابل وتتداخل والبرق يسري فيها..

وبعينين غير مصدقتين، رأى قحطان ريحًا سوداء تصفر بدويٍّ قاتل وهي تنساب من أسفل الجبل باتجاه المدينة، حاملة معها قبور الجن، وصخور عاد، ونار البراكين، مغطية على كل شيء، يزداد صوت صفيرها كلما سارت وكأنه صراخ كوني!

- *«أما عاد فإنها ستهلك»*.

أردف الصوت:

- *«وأما الأحبة، فقد آن لك أن تأتيهم»*.

مسح قحطان دمعه وهو ينظر إلى المدينة للمرة الأخيرة، أخذ نفسًا عميقًا، ثم هز رأسه بثقة ويداه تتشبثان برمال قبر خديج، وأجاب بصوت ثابت:

- «نعم».

فسقط ميتًا على قبر زوجه تحت بصر سماء.

***

«تعال يا سكون».

قال خالد وهو يفسح الطريق لأخيه مشيرًا إلى الوسائد الخشنة بداره، واضعًا يده على كتفه بود، فدخل سكون متهيبًا.

عادة يحب خالد أن يقابل الرجال بالمجالس، ولا يدعو إلى داره أحدًا.

جلسا متجاورين، ثم نادى على زوجه من أجل الطعام، وسريعًا حضرت زهرة وهي تحمل لحمًا ودسمًا، فشمر خالد عن ذراعه، وهو يقول لأخيه: «كُل».

سرقت الشابة نظرة إلى سكون، لكن الأخير خفض رأسه ينظر إلى الطعام دون أن يمد يده، بينما غمس خالد كل أصابعه في الصحن مستخرجًا قطعة لحم مختلطة بالدهن، ودسها كاملة في فمه.

- *«مالك لا تمد يدك إلى طعامي؟»*.

قال بفم ممتلئ، فأجابه:

- *«لا آكل الضأن يا أخي»*.

- *«عندي لحم طير إن أردت»*.

هز سكون رأسه، وقال:

- *«دع عنك أمر إطعامي»*.

فابتسم خالد وهو يدس يده من جديد في الصحن، وقال:

- *«لا تأكل اللحم، ولا تتزوج النساء، لكنك تحكم المدن؟»*.

- *«فيمَ دعوتني يا خالد؟»*.

رفع خالد عينيه عن الطعام إلى أخيه، وإن استقرت بيده قطعة لحم أخرى ينز منها الدهن.

- *«ألك حاجة في حكم عابر يا سكون؟»*.

أجابه بحذر:

- *«أوصاني قحطان أن أتولاها من بعده»*.

- *«لا، أوصاك أن تتولاها حين ذهب إلى إرم، وقد رجع منها»*.

- *«ألا يعني ذلك أن أخلفه فيها على أي حال؟»*.

لعق خالد بقية دهن أسفل شاربه، وقال:

- *«ما لك وما للحكم؟ ألم تعتزل عابزا بالأيام البعيدة؟ أنت أكثر أهل هذه القرية ترفعًا عنها»*.

- *«تريدني أن أعتزلها ثانية!»*.

- *«تعتزل حكمها، نعم»*.

- *«أتركه لك!»*.

- *«لمن إذًا!»*.

كاد أن يجيبه بأن يعرب هو الوريث الحقيقي، لكنه عرف أنه إن قالها فستكون العداوة بينهما للأبد، فسكت، وببطء دس خالد اللحم بفمه محدقًا بأخيه.

وغادر سكون القرية تلك الليلة.

ثم دعا خالد يعرب إلى طعامه.

أجلسه أمام صحن الدقيق المحلى بالعسل، فمد الصغير يده إليه، وكان أكثر ما يحبه من طعام بينما جده يرقبه بتأن.

كانت أسابيع قد مرت على دمار إرم، وموت قحطان، وكان رجالٌ من عابر قد حاولوا أن يدخلوا المدينة الهالكة فلم يصلوا إليها لأن الأدخنة المتصاعدة من فوهات البراكين وأنهار الحمم الدقيقة، التي حفرت أرض وادي عبقر، منعت أي أحد من الاقتراب من بقايا المدينة.

وكانت سكينة قد انتقلت إلى خيمة يعرب بعد موت سحر وأبيه.

والفتى الصغير، ارتسم في عينيه حزن شبحي دائم بعد عودته التي صُنعت بالدم والفقد.

دخلت إساف مجلس أبيها، والصغير يأكل، فجلست بهدوء وهي تحدق فيه متفحصة.

صدرها يعلو ويهبط بانفعال، وعيناها لا تزالان حمراوين لبكائها الطويل على موت قحطان دون أن يراها أحد.

لم يكن يعرب يعرفها. كانت سكينة وسحر تتجنبان الحديث عنها، وكانت من الأمور المحرم ذكرها عند أبيه.

- *«ليس به أثر من أبيه»*.

رفع يعرب عينيه عن صحنه ينظر إليها فتابعت:

- *«كأنه ليس ابنه»*.

- *«دعي عنك غيرتك يا إساف، واسكتي حتى يطعم»*.

قال خالد معاتبًا، لكنها تابعت:

- *«ما أعظم شؤمك يا يعرب!»*.

حشر الطعام بحلقه، حاول أن يتكلم فتناثر فتات من فمه على الصحن أمام عينيها المشمئزتين.

- *«لست شؤمًا»*.

قال بصوت مخنوق.

- *«قتلت أمك، ولست شؤمًا!»*.

قالت بجذل، فصاح غاضبًا وهو ينتصب واقفًا:

- *«إنما قتلها الرجل من عاد، وليس أنا»*.

- *«لكنك من جلبها إلى هناك، أليس كذلك؟ ثم إني لا أقصد سحرًا يا معوج اللسان، إنما أقصد خديجًا»*.

- *«خديج!»*.

همس يعرب مأخوذًا، وتوقف خالد غَضِبًا، وهو يصيح فيها لاكمًا إياها بين كتفيها: «قومي!».

- *«تضربني من أجله!»*.

قالت إساف، فأجابها والغضب يشتعل في وجهه الأحمر: «من أجل سلاطة لسانك».

- *«وهل كذبت في شيء؟!»*.

«غادري!»، صاح آمرًا، فوقفت المرأة وعينيها على يعرب، وغادرت وهي تهمس له:

- «الوداع يا قاتل أمه وأبيه».

واقترب خالد منه، ربت على كتفه، وقال:

- «دعك منها، واجلس يا يعرب».

أطاعه من دون تفكير وعيناه تنظران إلى بعيد، فقرب منه خالد الصحن ثانية، وقال:

- «أكمل طعامك».

- «شبعت يا جدي».

- «ألم يأمرك أبوك أن تطيعني؟ الآن كُل».

فكر يعرب بحيرة متى أمره أبوه بذلك، وظن أنه لم يفعل، لكنه وضع بعض الدقيق في فمه مكرهًا، مضغ على مهل، وفجأة تقيأ ملوثًا ثوبه، والوسادة من تحته، والصحن بما فيه، ووقف محرجًا وهو يقول معتذرًا: «عفوك يا جدي!» ثم انسحب مغادرًا وخالد يتابعه مشفقًا.

ودخل على ابنته غرفتها فقال معاتبًا:

- «ما لك، وما له؟ ألا تزالين تنقمين على الموتى من أهله؟».

رفعت إساف رأسها إلى أبيها، وقالت بصوت منخفض:

- «ألا تخافه على نفسك يا أبي؟».

- «أخاف يعرب! وفيم أخافه؟!».

- «لا يلبث أن يشب وتشيب أنت، فيطلب ملك أبيه. وهو ليس كأخيك سكون، بل يقاتلك عليه».

- «دعي عنك أوهامك تلك.. لم يحدث أن تصارع رجلان على الحكم في عابر».

- «تصارعت عاد من قبل، وهو منهم».

أجابته بسرعة، فقال أبوها:

- «قد ربيته كابني».

- «وقد أنقذت أباه من عصا شداد من قبل، ثم أراد أن يكون سكون أمير عابر».

فانصرف عنها خالد، وهو يشيح بيده.

ودخل يعرب على جدته متهدمًا، رأسه في الأرض، وكتفاه متهدلان، وعلى ثوبه بقايا قيئه..

كانت لا تزال في حدادها منذ مات قحطان، لكنها قبلته بسعادة إذ رأته، وخلعت عنه ثوبه لتغسله، وطيبته بالعود بعد أن اغتسل ففاحت منه رائحة مشرقة، واحتضنها بقوة هامسًا:

- *«لا أريدك أن تموتي»*.

بهتت من قوله لكنها ربتت على رأسه، وهمست متلطفة:

- *«وما يحملك أن تفكر بموتي؟»*.

سكت، فعادت تقول بمرح:

- *«هل تعلم أني قد عشت العمر الذي عاشته أمي مرتين حتى الآن؟»*.

قال من بين دموعه:

- *«أنا قتلت خديجًا»*.

تجمدت يد سكينة على رأسه، فكأنها أجابته، ورفعت وجهه إليها وهي تسأله:

- *«من قال لك هذا؟»*.

- *«إساف»*.

- *«عند أبيها!»*.

- *«نعم»*.

- *«وما صنع خالد؟»*.

- *«نهرها، وضربها»*.

صمتت سكينة لحظة، ثم قالت:

- *«هذه امرأة تبغضك يا يعرب، وتبغض أمك، فتحاول أن تؤذيك بالحزن، فلا تسمع لقولها»*.

- *«تعنين أني لم أقتل أمي يا جدتي!»*.

- *«لا يا خير عمري! وكيف يقتل الرضيع أمه؟»*.

- *«كيف ماتت إذًا؟»*.

تنهدت سكينة، وقالت:

- «ماتت كما يموت الناس يا يعرب، كما مات زوجي عابر، وبعض أهلي. كما ماتت إرم.. كل شيء يهلك».

- «ولم؟».

ابتسمت لسؤاله، وأجابت:

- «لا أعرف. هذه إرادة إيل.. لكنه سيخلقنا مرة ثانية».

- «قالت لي سحر أنه أعاد خلق أمي بعالم حسن».

- «لم تكذبك خالتك».

رنا إليها بعينيه، فارتجفت وهي ترى عيني خديج فيهما، وسألها:

- «متأكدة!».

فدمعت، وهي تهز رأسها أن نعم.

ثم ربتت على فخذه، وهي تقول:

- «هل تريد أن ترى شيئًا كانت خديج تحبه كثيرًا؟».

«نعم!» قال مستثارًا، فضحكت سكينة، وقامت إلى الصندوق بركن الخيمة، ولم تكن قد مسته منذ وضعت فيه أغراض خديج من ثماني سنوات، ووقف خلفها ينظر. كانت المرة الأولى التي تسمح له فيها جدته أن يقترب من ذلك الصندوق إلى هذا الحد. ثبتت يدها على غطائه لحظات وكأنها تستأذن صاحبته ثم رفعته.

وامتلأت الخيمة برائحة مسك غير معقولة! كأنك تسقط في قلب وردة! حتى أن سكينة ثملت بالرائحة وكادت أن تقع، ومدت يدها تمسك بأولى الرقاع؛ أقدمها، رقعة رمل كما كانت تسميها خديج، أخرجتها بحرص أمام عيني يعرب المفتوحتين على اتساعهما وقالت:

- «وجدت أمك هذه الرقعة عند قبر خالك رمل الذي حبسه الجن فيه. كانت تلك الرموز تغطيها كلها حتى مسحت بعضها، وبدأت ترسم حروفها».

- «ما الحروف؟».

قال مأخوذًا، فأجابت:

- «هي رسوم لكل منها صوت، رنة مخصوصة، إذا تجاورت وقرأنا تلك الأصوات متتابعة، فكأننا نتكلم بكلام مفهوم، وهو المكتوب في الرقعة. كانت أمك تسمي صناعة الحروف

كتابةً، ونطقها قراءةً، وكانت تجلسني إلى جوارها أيام حملها فتشير إلى كل حرف، وتنطق الصوت الذي يمثله».

وأشارت إلى حرف له شكل ثعبان ملتوٍ وبنهايته حدان متقابلان وقالت:

- «*هذا ما يمثل صوت (آ)*».

ثم أشارت إلى دائرة تامة، وقالت: «وهذا صوت «عا»، وازدردت لعابها، وهمست:

- «*غريب! كأني أذكرها جميعًا*».

لمس يعرب الرقعة بإجلال، ارتعشت يده انفعالًا فانقبض صدر سكينة، وشدت على يده بقوة، وهي تقول بصرامة: «إياك أن تسمح لها أن ترتعش ثانية».

هز رأسه مطيعًا ثم مد يده مرة ثانية..

ثابتة فوق الرقعة، تمر على الحروف.

- «*ما هذه؟*».

سأل سكينة.

- «*هذا صوت قا*».

- «*وهذه؟*».

- «*نا*».

- «*ما هذه؟*».

هكذا ظل يسألها عنها حرفًا حرفًا.

وفي سبع ليال حفظها كلها.

كانت أيامًا أمطرت بها السماء بلا توقف، واشتدت فيها الريح فحبست كل رجلٍ بعابر في داره.

ورفع يعرب الرقعة أمام وجهه بينما جدته نائمة بفرشة غير بعيد عنه.

بركنها الأسفل، جهة اليمين، وجد نصًا محكمًا بيد أمه، ذا خط دقيق، تزينه من الأعلى نقشة وردة.

بلل شفاهه بلسانه، ورمشت عيناه انفعالًا، ثم قرأ:

- «أنت يعرب..

أطلعني الواحد على اسمك في الحلم..

أمك ابنة ملك عاد، وأبوك ابن ملك عابر..

خسرت كل شيء حسن بعمري ثم جئت أنت، فشعرت كأن الخالق قد وهبني الأرض كلها..

ستكون خير عاد وعابر يا يعرب..

قاتل بشجاعة مثل أبيك..

واصبر على مُر الحياة مثلي..

وتذكر دائما يا يعرب..

أني أحبك..

منذ كنت بعمرك وأنت تقرأ هذه الرسالة..

لأني حينها وأنا بعد طفلة..

كنت أحلم بطفلي الأول».

نطق ما كتبت، كلمة فكلمة واقفًا وسط خيمته.

أغمض عينيه، فنزل منهما دمع غزير، وسمع من قريب صوت بكاء سكينة.

احتضن الرقعة، قبّلها، مستها دمعة سقطت من عينيه فمسحت بعض الرموز العتيقة، وكأنها تفسح مساحة لشيء جديد يكتب.

***

لم يخف سكون أن يدخل إرم رغم كل السموم المنبعثة من براكينها، والحطام الذي كان يومًا أضرحة قبور، وجثث البهائم، والوحوش، والطير الملقاة على طول طريقه إلى المدينة.

دق قلبه بانفعال وهو يرى الأعمدة محطمة والمعبد من دون بغاء فوقه!

دخل إرم فصدمته الرائحة النتنة.. ارتعد وهو يمشي بحذر فهاله أن يرى الجثث ملقاة في كل مكان بلا نظام وكأنها حصًى ألقته الريح!

كانت جثث الرجال والنساء وأطفالهم ملقاة على الساحة الحمراء، وعلى مصاطب السوق، وفي الإسطبلات، وبمجرى النهر الذي انحسر كثير من مائه، وعلى الأسقف، كما كانت معلقة

بأشكال غير معقولة من الشرفات، وخطاطيف الجزارين، ومن زوايا التماثيل العظيمة.

لا شيء حي هنا، ولا الحشرات..

والموت طاف عابثًا بهذه القبيلة فنوّع أشكال جثثهم..

هناك من انسحق تحت ثقل صخور أبنية محطمة..

ومن سقط من شرفة عالية فاندك رأسه على الأرض وانفلت مخه من عظام جمجمته المحطمة..

ومن مات غرقًا في النهر..

ومن دعسته حوافر البهائم الهاربة..

وقف عند جثة أم تحتضن رضيعها، وقد سقط عليهما خُف بغاء الحجري، فلم يتمالك نفسه وبكى وملأه خوف شديد من الخالق الذي كَرِه هؤلاء فصنع بهم كل ذلك.

هكذا خرج من المدينة مذعورًا من كل شيء حتى من أن يرفع رأسه للسماء داعيًا كما اعتاد، وملأت قلبه حيرة مشؤومة وهو يسأل نفسه، ألم يكن في هذه القرية رجلٌ واحد يستحق رحمة إيل؟!

أسرع لتوبار، تسلق وهو يشعر أن قدميه غير قادرتين أن تحملاه بعد، كل جسده لا يزال يرتجف فرقًا مما رآه، وإذ دخل مغارته رأى داخله رجلًا ممددًا في الموضع الذي اعتاد أن يجلس فيه!

توقف مكانه مرتعبًا من منظر الرجل..

كان شعر لحيته طويلًا جدًا، لم يكن قد شاب كله، وشعر رأسه قد طال حتى قارب أن يغطي عينيه، وهو على ذلك نحيل كأنه جلد على عظم، له عينان واسعتان تنظران مباشرة إليه وهو يقف عند مدخل المغارة متسمرا.

- *«من أنت؟»*.

قال سكون بصوت محشرج، فزاد اتساع عيني الرجل ولم يفتح فمه، وكاد سكون يسقط من ذعر حين رأى ظلًا يقترب منه من الداخل! تراجع للخلف وهو ينظر إليه حتى بينه الضوء القادم من الخارج فرأى فتاة مليحة الوجه لجسدها عنفوان بنات عاد، رفعت يدها إليه وهي تقول محاولة تهدئته:

- *«هَوِّن عليك!»*.

سألها بصوت مرتعش:

- *«من أنتما؟»*.

- «ناجيان من عاد».

- *«جئت منها الآن، رأيت المذبحة، لا يمكن أن يكون قد نجا منها أحد!»*.

- «كل من آمن برب هود نجا».

- «هود!».

- *«النبي»*.

- «نبي!».

- *«نبي الله»*.

- *«الله!»*.

هزت له الفتاة رأسها، وقالت بابتسامة حالمة:

- *«أنتم تسمونه إيل»*.

رمشت عينا سكون، استند بيده على الحائط وهو ينظر لها، همس ببطء:

- *«تقولين إن إيل أنقذ نبيا ورجالا آمنوا معه؟»*.

- «نعم».

- *«أريد أن أراه»*.

هزت الفتاة رأسها وقالت:

- *«لا أعلم إلى أين خرج بمن معه، لكن بعض أتباعه ممن لم يستطيعوا اتباعه بقوا خارج إرم»*.

والتفتت إلى أبيها، وهي تقول مشيرة إليه:

- *«هذا أبي، كان حداثا، ثم صحب هودا، وكان يدعو عادا إلى الإيمان به. والآن أصابه ما ترى منذ رأى هلاك المدينة من بعد. لم يستطع أن يكمل مسيره مع النبي، فأدخلته هنا»*.

- *«تقولين أن هناك غيركما!»*.

- «نعم».

- «أين هم؟».

- «غير بعيد عن هنا».

دخل سكون المغارة، نظر إلى حيث يجلس أبوها، ثم التفت إليها يسألها:

- «ما اسمه؟».

- «تيم الله».

- «لا يمكنكما أن تبقيا هنا، يجب أن تبحثا عن مكان آخر».

- «ألا تمهلني أيامًا حتى يستفيق مما حل به؟».

هز سكون رأسه رافضًا، وقال بسرعة:

- «ليس هذا المكان لي وحدي».

- «من يعيش معك فيه؟».

- «امرأة».

- «تقصد سلمى؟».

انمحت حمرة وجه سكون وجف ماء حلقه وهو يلتفت إلى الفتاة مصعوقًا، فهمست له:

- «جاءتني بليلتنا الأولى هنا. وكان بي من الخوف مثل ما بأبي، فلما حدثتني هدأ قلبي».

أغرق الدمع خدي سكون وهو يسألها:

- «ماذا قالت لك؟».

- «أخبرتني أن آمرك أن ترجع إلى جبل قحطان».

***

مرت أسابيع، طبب فيها سكون تيم الله. كان يبيت خارج المغارة ويتركها لتيم وابنته. وببطء التأم حول المغارة رجالٌ ممن نجوا من عاد ولم يكن كلهم شيوخًا أو مرضى، إنما كان كثير منهم رجالًا آثروا أن يبقوا مع من لم يستطع أن يتبع هودًا في رحلته.

ومع بدايات الخريف، من أطراف القرية ناحية قبر خديج وقحطان، صعودًا من سفح جبل قحطان، رجع سكون وإلى جواره رجل عظيم اللحية وشعر الرأس، لا يزال نحيفًا، وإن كان

حاله قد تحسن كثيرًا عن المرة الأولى التي رآه فيها سكون، ومن ورائهم عشرات من عاد.

جرى الأطفال إليهم بفضول، تتبعهم النسوة، ثم جاء الرجال، وخلفهم خالد الذي خرج من داره وعيناه على الجمع الذي لف سكونًا بالترحاب والأسئلة. رأى أخاه وقد استطالت لحيته فزادته جمالًا، وشابت شعرات كثيرة فيها ذكرته بقحطان، وكان يداعب يعرب سائلًا إياه عن أحواله، بينما وقف صاحبه الذي وقف جواره ينظر إلى الصغير وعلى شفاهه ابتسامة صافية.

وأسرع خالد إلى أخيه، دفع الحشد وصولًا إليه، ولما وصله احتضنه طويلًا دون كلمات، وربت سكون على ظهر أخيه بود، ولما تركه سأله:

- *«من هؤلاء يا سكون؟»*.

فأجاب سكون، وهو يقدم صاحبه:

- *«هذا تيم الله، صاحب النبي هود، ومعه مؤمنون من عاد»*.

- *«لا أفهم ما تقول»*.

قال خالد، فهز سكون رأسه مطمئنًا إياه، وقال:

- *«سأحكي لك قصتهم، لكنهم يحتاجون الآن إلى الطعام، ومكان للمبيت، فقد بقوا طويلًا عند أطراف أجا، وما خلفها ولم يطعموا»*.

أومأ خالد موافقًا في غير ارتياح.

وكان هذا أول اجتماع لعابر بمؤمني هود.

بعدها توالت جلساتهم، بنى تيم الله ورجال معه، منهم سكون، معبدًا لله، غير بعيد عن قبر خديج، وفيه علموا رجالًا ونساءً من عابر أقوال النبي هود الذي لقنهم إياها في إرم بالأيام الخالية. لم يكن كثير منها جديدًا على عابر، فكأنها التذكرة بالقصص القديمة التي نقلتها لهم جداتهم، فآمن كثيرون واتبعوا تيم الله، وكان منهم يعرب وسكينة، ومن قبلهم سكون.

كان الكلام عن الرب مما يندر الحديث عنه بقرية قحطان، فأصبح لا شيء يذكر أكثر منه.

وببطء تغير اسمه، من إيل إلى الله. فجعلت الكلمة تُنطق في لهجات عاد وعابر على السواء.

واختلى خالد بأخيه سكون يومًا فطلب منه أن يمنع تيم الله من الاجتماع بالناس من عابر لأنه ليس منهم، فتجاهل سكون طلبه.

والحق أن خالدًا قد خاف من تلك الاجتماعات، لأن عادًا وعابرًا صاروا يتزاوجون كأنهم قبيلة واحدة، ويلدون أطفالًا تنتمي إلى الخلق الجديد الذي كان قحطان قد بدأه باختلاط النسبين، أكثر مما تنتمي إلى عابر وحدها أو عاد، فأرّق هذا خالدًا الذي كانت كلمات ابنته عن خطر يعرب لا تزال تعتمل بعقله.

كما خشي لغتهم، فكان الرجلان من عاد إذا أرادا أن يتسارا بأمر تكلموا لهجتهم غير مبالين بمن حولهم من عابر، حتى نهاهم تيم الله عن ذلك فانتهوا.

وبدأت لهجة يعرب بالتفشي، خليطًا عبقريًا بين لهجتي عادٍ وعابر، ولبساطتها مال إليها كثير من القبيلتين.

مر خريف ذاك العام، وشتاؤه، وربيعه في ظل تلك الأحوال الجديدة.

ثم حدث أن تشاجر صبية من عاد مع أقرانهم من عابر أثناء لعبهم، فعاير عابريٌّ أقرانه بخراب إرم، فرد عليه بأن عيره بأصولهم الفقيرة، وخدمة أمهاتهم لنساء عاد من قبل، فاشتبك الفريقان، وقتل طفل من عابر!

وانطلق خالد، ومن خلفه رجاله محاطًا بصرخات الأم الثكلى وصديقاتها، وفيهم ابنته حتى وصل إلى الجثة، فأمر أن يقتل أربعة صبية من عاد تنكيلًا، فجاءه سكون وتيم الذي قال: «ليس هذا من الحق في شيء. إنما تقتص للرجل بمثله»، ووافقه سكون قائلًا:

- *«يُقتل من قتل يا خالد»*.

فصاح رجل من عابر:

- *«بل نقتل عادًا كلها إن شئنا»*.

وعقب خالد:

- *«سيقتل الأربعة كما أمرت، ولإن جادلتني يا سكون فيهم، لأزيدن»*.

تقدمت سكينة، وإلى جوارها يعرب فقالت:

- *«بل يجادلك فيهم يا خالد، وتسمع وتطِع إن كنت مخطئًا»*.

نظر إليها خالد متعجبًا من تجرئها عليه، تجنب جدالها إكرامًا لأخيه، وقال مترفقًا:

- *«لا بأس عليك يا خالة. تنحي عن هذا الأمر»*.

فرد عليه يعرب، وكان أولاد عاد كثير من أصدقائه:

- *«لا تتنحى يا جدي حتى تحكم بالحق»*.

حدق فيه خالد، ومن خلفه صاحت إساف المحاطة بصويحباتها:

- *«احترم أمر جدك يا قاتل أبيه وأمه!»*.

فصرخت فيها سكينة بغضب وهي تضرب بعصاها الأرض مهددة:

- *«تنعتينه بالقاتل وإنك لكاذبة، وأنعتك بمنكوحة الجن وأنا صدوقة»*.

انخذلت إساف وتراجعت لكن وجه خالد اشتعل حُمرةً وصاح بسكينة:

- *«لا تتكلي على حلمي يا سكينة! لأقتلعن لسانك من حلقومك إن نعتها بذلك ثانية»*.

فتقدم منه يعرب فاردًا جسده، وتعجب خالد أنه بسنه هذه قد اقترب من طوله، وفي وجهه غَضبة قحطان القديمة التي خبرها أيام شبابه.

- *«أقسم بالله أني قاطع ذراع أي رجل يمدها بسوء إلى جدتي»*.

فصاح خالد بدهشة:

- *«تأدب!»*.

ودخل سكون بينهما صانعًا ساترًا بجسده، ثم التفت إلى خالد وقال مترفقًا:

- *«أجِل الحكم فيهم يا أخي إلى أن تهدأ»*.

فدفعه خالد في صدره باتجاه يعرب، وهو يصيح برجاله:

- *«بل يقتلون، والآن أمامي، هنا»*.

وبسرعة رفع يعرب عصا أبيه عاليًا، وشمع صوت صرير السلاح في أتباع تيم من عاد وعابر. نظر إليهم خالد غير مصدق، ومن خلفه رفع بعض رجاله سلاحهم لكن كثرة عدد أتباع تيم وعوائلهم وتشعبهم في الديار من عابر وضخامة أجسادهم، منعت رجال خالد من فعل ما هو أكثر من ذلك.

- *«ارجع عن حكمك»*.

قالت سكينة، فتلفت خالد حوله، رأى أتباعه ينظرون إليه، عرف أنه إن تراجع الآن انهزم للأبد، فقال:

- *«ائتوني بفأس»*.

ناوله أقرب رجاله إليه فأسه فتلقفها وهو يقول: «هاتوا الصبية».

دخل رجاله بين الحشد يدفعون ويضربون، بحثًا عنهم فرفع يعرب العصا وهوى بها على ذراع أقرب رجاله إليه فشمع صوت تكسر العظمة، وسقط الرجل على الأرض باكيًا، وأخرج تيم خنجره وضرب به على وجه أحد الرجال فجعل فيه خطًا طويلًا من دم، ثم قفز على آخر فلوى ذراعه خلف ظهره حتى استغاث فدفعه نحو خالد الذي تحرك ليتدخل فوجد أخاه يقف في طريقه ويقول بهدوء:

- *«اتق الله.. لا يفتنك سلطانك عن الحق»*.

نظر إليه خالد وجسده يرتجف انفعالًا، ثم قال بصوت محشرج:

- *«اليوم.. اليوم يا سكون، تخرج أنت ومن معك جميعًا من هذا الجبل. أقسم أن أذبح من بقي منكم إلى الغد»*.

وأزاح أخاه عن طريقه وهو ينظر إلى يعرب وسكينة وقال:

- *«وأنت أولهم خروجًا أيها المشؤوم. لست من عابر على أي حال»*.

- *«بل هو سيدهم يا أبا منكوحة الجن»*.

صاحت فيه سكينة متحدية، فالتفت إليها وقال:

- *«لولا أخي لكنت ذبحتك الساعة أيتها العجوز»*.

ثم أمسك بذراع ابنته ساحبًا إياها، وخطا فوق جثة القتيل دون أن يلحظ أن أسفل ثوبه تلطخ بدمه.

***

«اجعل هذا أول ما تحمل»، قالت سكينة وهي تشير إلى صندوق خديج، فهز يعرب رأسه مطيقًا ثم نظر إلى خيمتهم.

تلك الخيمة التي شهدت على كل أحوالهم، أحوال أبيه وأمه ثم أحواله مع سحر.

وأنها شهدت ولادة الحروف التي خلقتها أمه، وولادته هو من بعد.

التفت إلى جدته يسألها حائرًا:

- *«كيف سنقيضها؟»*.

كانت في حال صعبة من الغضب والحزن فلم تجبه، فقط قالت:

- *«لا تنس الصندوق».*

وغابت الشمس سريعًا، لم يكف الناس عن العمل، يحملون كل ما استطاعوا.

ووقف تيم ينظر إلى الوادي أسفله مرة أخيرة.

جبال أجا وتوبار تعلوها السحب، اللون السحري للغروب، لا يوجد اسم لذلك اللون الذي تصنعه الشمس حين تتهيأ للمغيب، لكن ألوانها تلك انعكست على الوادي، الأشجار القليلة الباقية فيه، الأضرحة المبعثرة والفوهات الصغيرة أشعرت تيمًا بحنين قديم.

شد على عصاه وألم ثقيل يعتصر قلبه، والريح تداعب خصلات شعره الكثيف.

ظن حين هلك قومه أنه وصل إلى الحدود القصوى للحزن، لكنه اليوم أشد حزنًا من أي وقت مضى، وكان قد أحب الجبل وأهله.

وأقبل سكون على يعرب وجدته بوجه مكروب، سألته سكينة عما وراءه فقال إن خالدًا قد منع خروج أي راحلة معهم، وقد جعل على الدواب حرسًا.

- *«ويل له! يريد أن يهلكنا!».*

قالت مغضبة فهز رأسه موافقًا.

سمعهما يعرب، فتجمد لحظات متفكرًا.

خرج من الخيمة، سار إلى قبر أمه فلما اقترب منه وجد عنده ابنة تيم الله.

كانت محتبية أمامه، تنظر إلى القبر كأنها تناجيه، اقترب منها بحذر، وللحظة شعر كأنه سمع همسًا رقيقًا.

- *«تعلمين من تحت هذا القبر!».*

سأل الفتاة فأطرقت دون أن تنظر إليه وأجابت:

- *«امرأة صالحة».*

- *«أمي».*

- *«أعرف هذا أيضًا».*

اقترب يعرب خطوات حتى استقام أمام القبر، استقبلته ريح باردة فشعر بوحشته تشتد، وهمس:

- *«ماتت وهي تلدني»*.

- «لا».

قالت الفتاة، والتفتت إليه تكمل:

- *«ماتت بعد أن وضعتك، وكانت قد رأتك»*.

ارتجفت شفتاه وهو يتابعها..

- *«تقول لك، أنك جعلت آخر لحظة بعمرها، أسعدها»*.

تجمد مكانه والفتاة تقوم، تعدل ثوبها، ثم تغادر من دون كلمة أخرى.

في هذه اللحظة، شعر يعرب أنه يُخلق من جديد..

يزول خوفه من حاضره، وخجله من ماضيه، وينكشف العالم أمامه بفرص لا نهائية.

وفي الثلث الأخير من الليل حين أصبح الجميع مستعدين، خرج مع أصحابه من عابر وعاد، فارتقى سطح دارٍ قريبة من مرابط البهائم يرقب الحرس.

كانوا خمسًا توزعوا على امتداد سور خشبي يلتف حول قطعان الخيل، والبقر، والغنم.

رفع نبلته، ألقمها حجرًا.

كان قد وزع المهام بينه وبين رفاقه، سيضرب كل واحد منهم رجلًا بنبلته، كلٌّ يختار واحدًا حسب إجادته للتصويب، ولما كان أفضلهم في الرماية فقد اختار أبعدهم عنه.

شد نبلته وهو يضيق عينيه ثم خلاها فانطلقت الحصاة مصيبة رأس الرجل الذي انحنى على نفسه، وهو يصرخ ألمًا!

انطلقت حصوات أصحابه لكن أيًا منها لم يصب هدفه إذ إن الأربعة الباقين ركضوا إلى صاحبهم لنجدته، وفهم يعرب بسرعة أن خطته الهوجاء قد هُدمت في لحظات، لكنه قفز من أعلى الدار وهو يجري نحو المرابط عازمًا أن يفتحها وإن كلفه ذلك مواجهة الحرس وجهًا لوجه، وصفر مرتين فظهرت سماء من بين الخيل المحجوزة تتلفت حولها.

رآها من بعيد فضحك ورفع ذراعيه عاليًا لتراه، ولم تنتظر الفرس أن يفتح لها باب المرابط، إنما قفزت فوق السور القصير تجتازه نحوه.

قفز على ظهرها دون انتظار ثم احتضن عنقها بامتنان فصهلت وهي تدور حول نفسها إلى المرابط.

وتشجع رفاقه بما رأوا من جرأته فانطلقوا خلفه وهم يقذفون بنبالهم الحرس، وعندما وصل يعرب إلى الباب انحنى عليه من فوق سماء يدفعه فلم ينفتح، حاول ثانية وثلاثة حراس يجرون نحوه ملوحين بعصيهم فأخرج سكين أبيه وهو يلوح به مهددًا، ومن خلفه كسر أصدقاؤه الباب وحرروا ما استطاعوا من خيل وجمال وماشية، وفجأة شحب يعرب من فوق فرسه بذراعين قويتين، وشعرت به سماء فالتفتت لتجد حارسًا يلقيه، فرفعت قائمتيها عاليًا ثم هوت بهما على رأسه فسقط الرجل غارقًا في دمه، ووقف يعرب سريعًا لكنه كان قد أحيط بالباقين من الحرس.

كانت تلك اللحظة التي ظهر فيها سكون وتيم ورجالهم، مسلحين بعصيهم وحبالهم، وسريعًا غلبوا الحرس، وكتموا أفواههم بالخِرق، ثم ربطوهم إلى السور الخشبي، ونظر سكون إلى رأس مصابهم الذي ألقمه يعرب حجرًا، فقال: «لا بأس عليك. ستطيب سريعًا»، ثم وضع الخرقة بفمه، وقال:

- *«بئس الرجل أنت أن أطعت خالدًا في هلاك قومك»*.

أما الرجل الذي رفسته سماء فلم يستفق، فتركه على حاله، وهو يأمر رجاله والصبية بالانسحاب بعد أن سحبوا ما يحتاجونه من بهيمة.

وسيقت البهائم إلى حيث تجمع أهلهم، لم يُعلم أبدًا إن كان بعض عابر من سكان الجبل قد رأوها فآثروا أن يبقوا الأمر سرًا كرامة للقربى والجيرة القديمة، أم أن كل عابر قد عميت بمعجزة عن أن ترى وتسمع كل هذا الضجيج.

ركبت سكينة على ناقة صغيرة، أما يعرب فقد استوى على سماء، وإذ نظر إلى تيم فقد رآه يقرب حصانًا إلى ابنته، وحين هم أن يحملها لتمتطيه تراجعت خطوة وهي تقول محذرة:

- *«أبي.. هذا جواد مسروق لا يحل لنا ركوبه. تحملني قدماي»*.

فتوقف تيم مفكرًا في قولها، وابتعدت يده عن الحصان.

ونزل يعرب عن سماء، شدها خلفه حتى جاء تيمًا فقال وهو يقربها إليهما:

- *«هذه سماء، كانت لأمي، ثم لأبي، ثم لي»*.

رفعت الفتاة عينيها إليه فنبض قلبه بقوة، وانشغل بها حتى أنه لم يسمع تيمًا وهو يدعو له.

***

دار المهاجرون حول الجبل، لم يتخذوا طريق إرم، وقد حذرهم سكون منه، فساروا في الظلمة على نفس الطريق التي اتخذها قحطان يومًا في بداية خروجه إلى البحر.

مرت بهم أيامٌ طوال، ساروا فيها تحت شمس صيفية حارقة، تحيط بهم سلاسل جبال متتابعة، ويحاصرهم شح ماء وانقطاع مطر، وتعييهم ريح السموم.

تابعت الضواري مسيرهم، وهي تقتنص الفرص للصيد، فسرقت الذئاب طفلين بيومين متتابعين على حين غفلة من أهلهما، ووُجدت جثتاهما الممزقتان وبقايا عظامهما بعدها بأيام، فجعلوا حول قافلتهم حرسًا.

واتبعوا مواضع الماء، دليلهم في ذلك سكون، وكان يقرأ المسالك والطرق في عظام الخراف التي يذبحونها لطعامهم، يلتمسها بأصابعه، الأجزاء الخشنة منها، والملساء، النتوءات، والفجوات، ومواضع المرض، كل ذلك كان يتجسد أمام عينيه كخريطة يتبع مساراتها إلى الماء.

كان قد قُدم دون إعلان كزعيم لهذه الجماعة، كلمته مسموعة والكل يتبعه.

ولما كانت الخيام قليلة، فقد جعلها سكون لمبيت النساء وولدانهم، بينما نام الرجال بالعراء متقاربين، يتناوبون الحراسة حتى الصباح، متدفئين بظهور دوابهم، لأن الصحراء رغم حرارتها بالظهيرة، كانت زمهريرًا بالليل.

واستيقظ يعرب غير مرة على صوت تيم وهو يبكي نائمًا.

ينتحب حزنًا على مصارع قومه، وفناء مدينتهم، تبتل لحيته بالدمع فيرق له يعرب، يقوم إليه، يربت على كتفه وهو بعد نائم حتى يهدأ.

ورغم أنهم قد وجدوا ماءً كافيًا بمواضع عدة رفض سكون مكوثهم بموضع واحد أكثر من ليلة، خوفًا من بطش أخيه الذي لم يعد يأمن جانبه، فكان الارتحال مستمرًا.

وبسرعة فهم الجمع أن هذه الأرض ليست لهم وحدهم، وأن أقوامًا سبقتهم إليها بالزمن العتيق لما رأوا أطلال القلاع، والنقوش على الجبال، والصخور الجنائزية.

وعلى مر الأيام والليالي، تعلم يعرب أن ينظر للسماء، متفحصًا مواضع النجوم، مميزًا أشكالها، فعرف أنها يمكن أن تدله على الكثير.

وفي ظهيرة حارة، اجتمعوا تحت نتوء صخري كبير محتمين من لهيب الشمس، وذبحوا ناقة مسنة قد عقرت، فسلخوا اللحم عن العظم، وقدموه لسكون ليتبين فيه طريقهم، وكان ماؤهم قد قل، فجلس سكون أمام العظم متفحصًا، تعرقت جبهته وأصابعه تمسك بعظمة

ساق قد بُعثرت فيها عشرات أو مئات الفجوات الصغيرة كأنه مرض عضال، وإلى جواره جلس جرهم وعاصم، أخوَا يعرب من أبيه يحاولان أن يتعلما منه.

رمشت عينا سكون، ثم ربت على العظم شاكرًا كعادته حين ينتهي من قراءته، ورفع عينيه ليرى يعرب وهو ينظر للسماء وعيناه مرتكزتان على مشهد طير بأنواع عدة تحلق وتدور فوق مكان حجبته هضاب سوداء وعرة.

اقتربت سكينة من حفيدها، نظرت إلى حيث ينظر، وسألته:

- *«ما بالهم؟»*.

- *«أظنهم اجتمعوا على ماء»*.

- *«أو فريسة؟»*.

هز رأسه وقال هامسًا:

- *«أحسبه الماء»*.

خفض سكون رأسه متفكرًا وهو ينظر إلى عظامه، فسأله جرهم وكان أقوى إخوته بنية، وأغلظهم صوتًا:

- *«هل نطق العظم؟»*.

أومأ سكون فعبس جرهم قائلًا:

- *«لم أسمعه هذه المرة أيضًا»*.

- *«لا أظنك ستسمعه يومًا يا جرهم»*.

ثم جمع العظام، وأعطاها له وهو يقول:

«أحسن دفنها»، فقام جرهم وعاصم، ووقف سكون ينفض ثوبه، والناس تجتمع حوله مترقبين، وسألته امرأة وهي تحدق فيه كعادة النساء معه:

- *«إلى أين مسيرنا؟»*.

- *«غربًا، بعيدًا عن تلك الهضبة، ليس الماء ببعيد»*.

ونادى على يعرب ولما جاءه سأله:

- *«ما بالك تنظر إلى تلك الهضبة الجرداء؟»*.

تردد الصبي لحظات وهو ينظر للحشد ثم قال:

- *«أظن ذلك الطير قد اجتمع على ماء»*.

ابتسم سكون لحظة، لكن ابتسامته لم تلبث أن اختفت، وقال جادًا:

- *«قد أخبرني العظم غير ذلك»*.

سكت يعرب وسكينة تقترب منه، وسأل سكون أحد رجاله:

- *«كم بقي لدينا من الماء؟»*.

- *«مسيرة يوم واحد»*.

فالتفت إلى يعرب قائلًا:

- *«نتبعك أم نتبع العظام! إعلم أن الماء يكفي وصولنا إلى حيث تريد، بعدها نعطش»*.

قالت سكينة بقلق:

- *«لمَ تسأله يا سكون وأنت أعلمنا؟!»*.

تجاهلها، اقترب منه، وقال:

- *«ألا تدفع عن نفسك أيها الشاب؟ سألتك رأيك فأجب، أنت أم العظام!»*.

كادت سكينة تتكلم من جديد لكن سكونًا رفع يده لها بالصمت دون أن يبعد عينيه عن يعرب، وهو يأمره:

- *«أجب»*.

تردد الفتى، كان الجمع يرقب..

حتى اليوم كان سكون دليلهم الذي لا يخيب، وبفضل علمه وجدوا الماء مرة بعد مرة، فسقوا، وشربت بهائمهم، وملؤوا الجرار، أما هو فإنما يتبع حدسًا غامضًا ليس متأكدًا منه. نفس الحدس الذي دفعه لمطاردة الأرنب إلى إرم فكان ذلك سبب هلاك سحر، ورمل، وقحطان.

اقترب منه سكون وعلى وجهه أمارات غضب يراها للمرة الأولى، شده نحوه حتى أصبحا وجهًا لوجه، وهمس بسرعة:

- *«كن رجلًا الآن أمام هؤلاء تحكمهم للأبد»*.

وضغط على رسغه مغمغمًا:

- «*سنجد الماء هناك*».

اتسعت عينا يعرب دهشة وهو ينظر إلى جده، رأى دمعًا مكتومًا في عينيه، فتح فمه لكنه لم يقدر على النطق، نهره قائلًا: «الآن!»، فأخذ نفسًا عميقًا وابتلع ماء حلقه، وانتصب في وقفته وهو يقول واثقًا:

- «*إلى الشرق يا جدي حيث الهضبة.. نجد الماء*».

ساد صمت حذر، وهز سكون رأسه ثم صاح:

- «*تحركوا شرقًا كما أشار يعرب*».

ووقفت سكينة تتابعهم بقلق.

هذا سكون حبيب قحطان، لكن ألم يكن خالد حبيبه أيضًا حتى اختلفا؟

لا ينافسه في ريادة القوم مستقبلًا إلا يعرب، أيريد أن يفضحه الآن في أعين الجميع فيصغر للأبد؟

شعرت بوخزة في صدرها وهي ترى الجمع البطيء يتحرك نحو الهضبة.

وكانت المسافة إليها أبعد مما ظنوا، مشوا ساعات وشح الماء عند بعضهم فطلب تيم أن يمتنع الرجال عن الشرب حتى يشتد بهم العطش فتكون سقياهم شربة واحدة.

وسار سكون صامتًا، لم يجب من سألوه عن الطريق، ومن طلبوا إعادة قراءة العظام، وإن نزل مرتين عن راحلته يتفحص الأرض الصخرية تحتهم، يتابعه يعرب قلقًا.

لكن الطير ظلت بالسماء حتى مع اقتراب المغيب.

وحين وصلوا إلى الهضبة أخيرًا، وجدوها كتلة مصمتة من الصخر الأسود، تمتد على مسافة شاسعة، كأنها حائط جبلي، تتخللها نتوءات حادة، وأخاديد عميقة فنزلوا عن دوابهم إلا قليلًا منهم، حذرين من الانزلاق، وسحبوها للأعلى ببطء شديد لكن كثيرًا منهم جُرح، الأغلب، فامتزجت دماؤهم بالحجارة طوال الطريق للأعلى، وصاح رجل بدهشة:

- «*هيييه!*».

التفت إليه يعرب فرأى حصان الرجل ينقلب على الصخر واقفًا فوق صاحبه وهو يصهل فاندق رأس الرجل بالأرض وسال منه دم غزير، وصرخت النسوة فحصل الهرج في

الصفوف، وكاد آخرون أن يسقطوا، فصاح سكون في الجمع أن استمروا وإياكم والوقوف، ثم التفت إلى جرهم ومنيع آمرًا إياهما أن يحملا جثة الرجل.

هكذا اقتربوا من القمة ببطء.

ومع اقترابهم وصلهم صوت عجيب!

صوت طرق شديد، سريع جدًا، يدق الأرض دقًا حتى أن الحصى اهتز تحت أقدامهم كأنه كائن حي.

تباطأ الناس خوفًا، وتابع يعرب صعوده.

كان أول من اعتلى قمة الهضبة ونظر، فشهق وقلبه ينبض بعنف!

تحت عينيه، سهل محاط بالهضبة والجبال.

كأنه الجنة!

تتوسطه بحيرة واسعة يلمع ماؤها، وحولها خضرة نضرة بكر، وقد اجتمع عندها عدد لا يمكن حسابه من الإبل الملونة، ومن شق بين الهضبة والجبل كانت مئات الأبقار الوحشية تركض نحو السهل هربًا من كلاب برية تحاول الإيقاع ببعضها، كان صوت ركضها هو الصوت الذي وصلهم من بعيد.

ألجمه المنظر، وتتابع خلفه الرجال إلى القمة فصرخوا من النشوة! وزغردت النساء وهن يضحكن متعانقات مع أطفالهن، وصاح رجل من عابر:

- *«متى خلق الله كل ذلك؟!»*.

فالتفت إليه تيم وهو يسأله مستنكرًا:

- *«أتجهل قدر ربك؟!»*.

فسكت الرجل حياءً، وأقبل سكون خلف يعرب، ربت على كتفه وهو ينظر للمشهد الخرافي، ويهمس ليعرب:

- *«حتى عاذ لم تملك كل هذا يومًا»*.

بكت سكينة وهي تلمس صندوق خديج كأنها تدعوها أن تنظر معها، ولم تكن تعلم أنه بحلول هذا الوقت كان خالد قد أمر أن يسوى ضريحها فوق الجبل بالأرض.

أسرع رجال حاملين رماحهم لينزلوا الهضبة ويغنموا لكن يعرب أمر بالانتظار، وقال:

- «لا نريد أن نفلت بهيمة واحدة، نريد أن نتملكها كلها؛ الإبل والبقر والسهل والبحيرة، فاصبروا، فإنكم إن اصطدتم تناثر الدم، وإن رأوه فزعوا وهربوا من السهل، فالآن نشرب فقط من مائهم، ونجاورهم حتى يتأنسوا بنا، ونسد شق الجبل بالحجارة والأخشاب فنملكهم».

لثلاثة أيام تالية، امتنع الناس عن اللحم، والتفوا حول البهائم، فأطعموها، ونظفوا بعض الإبل، مسحوا على سيقانها ورقابها وهو مما تحبه كل بهيمة راكضة، وتقاطروا يبنون سورًا من عروق النخل سدوا به طريق خروجها، ثم جاء تيم الله وكان له علم بالحساب اكتسبه من النبي فعد الأبقار والجمال وما خرجوا به من قرية قحطان، ثم قسمها بأمر يعرب على كل رجل وامرأة وطفل خرج من القرية، ووسم يعرب وجرهم ظهورها بعلامات تميز أسماء أصحابها.

ونام المهاجرون وقد استقروا وأمنوا ولا أحد أحب إليهم من يعرب.

إلا يعرب نفسه فقد جافاه النوم، ومضى يسير مستكشفًا السهل وما حوله.

كانت خيالات أبيه وسحر تتماثل له في هذا المكان.

كم تمنى لو عاشا ليرياه.

مشى مجاوزًا الجبل، باحثًا عن مخابئه، ويده على مقبض خنجره كي يقتل أي مفترس يظهر. ثم رأى سماء وحدها وقد تحصنت بفجوة صخرية منعزلة عن السهل، اقترب منها، بدت متوجعة وهي تفتح فمها وتشهق بسرعة، ولما رأته أصدرت صهيلًا منزعجًا كأنها تطلب منه أن يبتعد ففعل.

لكنه جلس غير بعيد يرقب ما تفعل.. رآها تدور حول نفسها بتوتر، ثم تتمدد على الأرض الطينية وتنام على جنبها وهي تحرك ساقيها بلا نظام.

وفجأة رأى أقدام مولود تبرز من تحت ذنبها ببطء، لونها وسط بين الأصفر والبني، وظهر من بعدها جسده محاطًا بكيس دهني أبيض!

انقضى وقت طويل حتى خرج الصغير كاملًا وأصبح إلى جوار أمه. وقف يعرب ينظر إليه وهو يقترب ببطء متهيبًا حتى وصل إليه فلمس شعر رأسه برفق وهو يضحك ودموعه في عينيه. احتضن وجه سماء، ثم التفت إلى طفلها، فكر في اسم له، لم يخطر بباله شيء إلا اسم اليوم الذي كان فجره يقترب فقال:

- إن كنت ذكرًا فليكن اسمك سبتًا، وإن كنت أنثى ليكن سبتة.

***

غاص الرجال بالبحيرة يتلمسون قاعها فلم يصلوا له.

وسرعان ما بُدلت الخيام بالدور الحجرية، علَم الناس من عاد أهل عابر كيف يبنونها على أحسن طرائقهم القديمة، فكان ممن بنى إخوة يعرب؛ جرهم، ومعتمد، وعاصم، ومنيع، وقطامي، وعاصي، وحمير.

وتأخر عنهم يعرب إذ إن سكينة نفرت من فكرة البناء، وتذكرت آلام ابنها قحطان مع زوجه إساف بحادثة الجن، لكنه بالنهاية بنى متجاهلًا شكواها، فلم تستطع إلا أن تنتقل معه إلى الدار الجديدة.

وحدث أن تصايحت النسوة يومًا عند الشق الجنوبي المحصن بالأخشاب، ولما وصل إليهن أزواجهن، وجدوا رجالًا ونساءً غرباء يتسلقون السور داخلين السهل! عرايا من كل شيء إلا قلائد صنعت من أسنان المفترسات، بلا سلاح، أو متاع.

جلودهم دبغتها الشمس بالحمرة المحترقة.

وقف الناس ينظرون إليهم بدهشة حتى جاء تيم وسكون، ويعرب وإخوته حاملين سلاحهم. أمرهم سكون أن يغادروا فلم يفقهوا شيئًا من قوله، فقط اقتربت امرأة منه، تتشمم رائحة الشواء حيث كانت النسوة يشوين غير بعيد، ورفعت يدها إلى فمها كأنها تضع فيه الطعام، ففهم يعرب أنها جائعة وهو يبعد عينيه بصعوبة عن صدرها النافر.

ابتلع ماء حلقه فوجده جافًا، وتكلم فخرج صوته مكتومًا:

- «*أحضروا لهم طعامًا*».

تابعه تيم:

- «*وسترًا يغطي سوءاتهم*».

فهز يعرب رأسه، وهو يختلس نظرات إلى بعض نسائهم، ورأى أخاه جرهم، والباقين يتفحصوهن بأعين جريئة.

وُضع الطعام أمامهم، فتصارعوا عليه، تلقفته أيديهم بنهم جشع، استوى في ذلك رجالهم ونساؤهم والصبية، واقترب سكون من يعرب قائلًا:

- «*يجب أن يخرجوا من السهل*».

فالتفت إليه يعرب يسأله:

- *«لم يا جدي؟ قد أبقينا آل تيم من قبل، ولم يكونوا منا».*

- *«ليسوا مثلهم يا يعرب. لا خير فيهم، ولا يفهمون كلامنا.. انظر إليهم وهم يأكلون!».*

كان رجل منهم يصفع امرأة مزيحًا إياها عن صحنه، فقفزت المرأة عليه تعض ذراعه حتى صرخ، بينما اثنان آخران يشدان رجلًا مسقطين إياه على ظهره بعيدًا عن صحنه وهم يشدون قطع اللحم، أما الصبية فطاشوا بأيديهم في كل موضع، وأطاحوا الصحون بما فيها وهم يركضون ضاحكين.

لكن نساءهم كانت مليحة رغم كل شيء.

ألوان شعورهن فاتحة مبهجة، كأنها من ذهب، وأجسادهن تغوي لدرجة جعلت يعرب يشعر أنه من الصعب الحياة في السهل من دونهن، فقال لجده:

- *«دعهم معنا قليلًا.. إن شبعوا كان من السهل تأديبهم».*

- *«ستؤدب رجالًا ونساءً بهذا العمر! وبأية لغة؟».*

فسكت يعرب.

وعند الغروب..

أمر أن تُجعل لهم خيام يبيتون فيها عند سفح الجبل.

وأن يوضع عندهم طعام وفير، وتكون لهم أغطية يتقون بها البرد.

وبفجر اليوم التالي، وأشعة رقيقة تنير السهل، قام يعرب قبل الجميع، ومن فوره انطلق يتفقد الزائرين بلهفة.

خرج من داره فتجمد وهو يرى الإبل والأبقار ترعى بالسهل بلا قيد وقد خرجت من زرائبها، وتسارعت أنفاسه وهو يركض إلى حيث بات ضيوفه، وفي طريقه وجد بعض بهائمه ذبحى وقد قطعت لحومها بلا نظام!

وصل سفح الجبل فلم يكن لهم أثر إلا الثياب التي ألقوها، وعلى الأرض العشبية جسدٌ ملقًى على وجهه والدم ينزف من مواضع بظهره وأكتافه.

انحنى عليه يعرب، قلبه لينظر إليه فطالعه وجه سكون المعذَّب، التراب مبعثر في عينيه وأنفه وشعر لحيته، وجهه مبلل بالدم، متورم من ضرب، وعينه اليمنى مقلوعة!

صرخ يعرب ففتح سكون عينه الباقية، وهمس:

- *«حاولت أن أمنعهم».*

فعاد يعرب يصرخ مناديًا إخوته والدمع يسيل منه فغمغم سكون:

- *«إياك أن تبكي أمامهم».*

***

شجي سكون على الأرض بالموضع الذي وجده يعرب فيه. رَفض سكون أن يُنقل إلى مكان آخر، وأمر أن تجمع عنده رؤوس العوائل من عابرٍ وعاد.

كانت شمس الصباح قد اكتملت عندما التف الرجال حوله، وأمامه جلس يعرب حابسًا دمعه، بينما تيم الله يمسح عن وجهه التراب والدم بخرقة مبتلة، وهو يهمس له مواسيًا بكلمات لم يسمعها غيره.

جاهد سكون ليفتح عينه، وبشفاه مشققة، وفم لا يزال الدم بين أسنانه فيه تكلم:

- *«قد مضى الزمن الذي كان يمكن أن نعيش فيه بغير حاكم يدبر أمرنا، ويجمعنا على رأي».*

انتبه الرجال، وتابع سكون:

- *«جاء بنا يعرب إلى هنا.. وهو حفيد ملكي عابر وعاد.. فاجعلوه سيدكم».*

جز يعرب على أسنانه وهو يغمض عينين محتقنتين، وتكلم كهل فقال:

- *«لا يزال حدثًا، لا خير في أن يحكمنا أصغرنا».*

فالتفت إليه سكون وسأله غاضبًا:

- *«ما حل بنا حين كان يحكمنا أسننا؟».*

وصمت الرجل.

- *«تذكروا عابرًا أخي، وأبي من قبل. عشنا معهم عمرنا بالمضارب في نَصَب، وذل، ولم نرزق الخير إلا على يدي قحطان، وكان أصغر مني ومن خالد. وعلى يد هذا الشاب فُتح لنا سهلنا هذا».*

عاد الرجل يقول:

- *«دعه حتى يبلغ أشده».*

فأجابه سكون:

- «*قد فعل*».

فقاطعه ثانية:

- «*ألم يكن إيواء الهمج من أمره؟*».

فرفع سكون عينيه إلى تيم وهمس:

- «*زوجوه يكتمل*».

رمشت عينا تيم لحظة، وهو يفكر بابنته.

ومد سكون ذراعه نحو يعرب، ها هي ذي اليد ترتعش، علامة الموت الأكيد في آل عابر، لمحها يعرب ففتح عينيه مذعورًا.

- «*قد رأيت يعرب في حلمي منذ عشرين عامًا بالكهف خارج إرم. ستكون له ذرية عظيمة كلها تتحدث بلسانه الذي استحدثه*».

وسكت الجميع.

وبصباح اليوم التالي، كان سكون أول من يدفن بالسهل الذي أطلق يعرب اسمه عليه، فعرف بعدها ولآلاف السنين، بـ«سهل سكون».

***

تقلد يعرب أمر أهل السهل، ولم يضع وقتا، فأمر من فوره أن يُصنع سلاح كثير تحت إشراف تيم، وكان أعلمهم بالسلاح وفنون صناعته إذ كان عمله قبل أن يتبع هودًا في إحدى ورش إرم، فطفق الناس يقطعون الأشجار بالسهل من أجل العصي، ويدببون الأحجار ويربطونها بالأعواد الغليظة من أجل الرماح، ويتخيرون الأغصان المتينة المرنة من أجل النبال والسهام وأقواسها، التي كانت أصعب ما يمكن صناعته، وتستلزم الوقت الطويل ولها في أصول صناعتها فن عظيم لا يعلمه إلا تيم.

وشغل يعرب الشباب والصبية بالتدرب على ركوب الخيل والجمال، والتسابق بها فكان أعظمهم جرهم، حتى قيل إنه خير محارب أنجبته عابر، وطغت سمعته على سمعة جده خالد.

كما علم الناس القراءة والكتابة قسرًا، على لهجته هو كما نصحه سكون قبل موته، ففشت لغته، وكان يفرض على كل متعلم أن يعلم غيره، وانتشرت الكتابة، فلم يُترك حجر أو جبل إلا

ونقشت عليه الكلمات والصور.

وأخرج يعرب رقاع أمه من صندوقها، فأضاف إلى حروفها حروفًا جديدة، ونغّم بعض رموزها لتكون أسهل، وجاور رقاعها برقاع كتبها، لكن ظلت أجمل رقعة، وأكثرها إجلالًا، رقعة رمل.

ثم أمر أن يخرج نصف الرجال معه بسلاحهم خارج السهل للمرة الأولى منذ دخلوه، واتخذ لنفسه سلاحًا صاحبه في كل معاركه؛ عصا أبيه، وفأسًا ذات رأس حجرية مدببة يعلقها خلف ظهره، وجعبة سهام، وقوس يلفه حول كتفه، وجعل على السهل تيمًا حتى عودته.

خرج الحشد من السهل فطالعته مساحات صخرية جافة، تتناثر فيها أشجار أثل، وبعض حشائش برية، وتجمعات نخل قليلة، لكنهم غنموا إبلًا جديدة، وتحصلوا على نباتات وأزهار استحسنها يعرب لصنع الشراب والتداوي، واستمر مقتفو الأثر من عاد في البحث عن آثار الهمج، فوصلوا إليهم بعد مسيرة عشرة أيام، وكانوا مجتمعين عند واحة فقيرة بها ثلاث نخلات وحوض ماء صغير، وقد بقي من إبلهم التي سرقوها الشيء اليسير فسار إليهم يعرب وهاجمهم من دون إنذار، وأعمل فيهم الذبح ساعات حتى أفناهم.

وكان يعرب قبل خروجه من السهل قد طلب من تيم أن يحصي الإبل التي سرقوها، ثم خصمها كلها من نصيبه الذي تحصل عليه يوم دخلوا السهل فكان أقل المهاجرين إبلًا حتى ذلك اليوم.

وتتابعت رحلاته نحو الغرب، فكان يخرج مع الرجال ويغنم ثم يعيدهم إلى السهل، ويأخذ آخرين فيخرج بهم. فعل ذلك الصيف كله، ثم الخريف والشتاء، فتوسعت الأرض التي يملكها، وكان يوسمها برموز لغته، ويترك جثث الضحايا لتكون عظامًا تنذر من تحدثه نفسه بالاقتراب.

صحبه في كل غزواته جرهم الوحشي كما أطلقوا عليه، وبعض إخوته الذين كانوا يتبادلون الخروج كالباقين من أهل السهل.

وفي إحدى رحلاته بأقصى الغرب اعتلوا جبلًا قاحلًا من حجر أسود، فرأوا أسفلهم واديًا صخريًا تتلوه سلسلة جبلية لا نهاية لها وكأن الأرض تنتهي هنا، أو تبدأ، وفي أوسط الوادي كان سيل عظيم يحمل الأشجار وجثث الحيوان والصخر والطين، مرتطمًا ببناء عتيق مكعب لم ير يعرب مثله من قبل، تغلفه قدسية غامضة!

نبض قلبه بعنف، وهو يراه حتى أنه استعجب، كاد أن يقترب منه نازلًا الجبل لكن صوتًا داخليًا قال له بما يشبه الهمس:

- *لا تقترب.*

فتوقف وكان قد تعلم أن يسمع تلك النداءات الغامضة ويطيعها، فظل فوق القمة يرقب البناء العجيب، حتى رآه يتصدع بفعل السيل، ثم تنقض أحجاره فيخر متهدمًا.

وتعجب وهو ينظر في حيرة إلى أخيه جرهم الذي بكى لمشهد التهدم المهيب!

للحظة شعر أن انهدامه تأريخ لزمن جديد.. وأنه سيكون فيه أمر عظيم، ولما أمر الناس بالعودة إلى السهل توقف جرهم طويلًا يرقب الوادي كالمسحور، حتى شده من ذراعه ليتحرك معه. بربيع ذلك العام، طلب من سكينة أن تذهب معه ليطلب من تيم الزواج بابنته.

كانت ذكرى حديثهما القديم عند قبر أمه لا تبارحه منذ دفن سكون، ووجهها الجميل قد زاره في أحلام عدة.

جالس أباها بداره الصغيرة، بينما دخلت سكينة إلى غرفة الفتاة.

أعياه التفكر فيما يجب أن يقوله، لامس قدح اللبن المخلوط بالعسل، مرر أصابعه عليه، وتوتره يتصاعد، وتمنى للحظة لو كان جده سكون حيًا ليتكلم بدلًا منه فيعفيه من الحرج.

سأله تيم الله:

- *«كم عمرك يا يعرب؟»*.

- *«ستة عشر عامًا»*.

- *«ابنتي أسن منك، أتعرف ذلك؟»*.

هز يعرب رأسه نافيًا، فعاد يسأله:

- *«لم اخترتها؟»*.

سكت يعرب، بلل شفاهه بلسانه وقال كالمتفكر:

- *«حادثتها مرة واحدة، ثم رأيتها حين منعتك أن تركب حصانًا مسروقًا، فأعطيتها سماء، حصان أمي، لتركبه»*.

- *«أذكر ذلك»*.

قال تيم، فابتلع يعرب ماء حلقه، وتابع:

- *«سماء، تفتقدها»*.

تبسم تيم من قوله حتى بانت أسنانه البيضاء، وسأله:

- «*كيف ذلك؟*».

- «*لما أعادت ابنتك الفرس لي بالسهل، كانت قد ضفرت شعر سماء الطويل في جدائل محكمة، كأنها عقدة حبل، وكان شعرها يؤذيها من قبل إن هبت الريح، والآن كلما لمست يدي تلك الضفائر حمحمت سماء بحزن شوقًا إليها*».

ثم سكت لحظات، وقال:

- «*وأنا مثل حصاني، أريد أن أكون معها*».

تأمل تيم يعرب طويلًا، ثم قال له:

- «*قد وهبت ابنتي عمرها إلى ربها، وإني أعرف أنه لن يصبر عليها إلا رجل يعرف الله حق المعرفة*».

أجابه يعرب بسرعة:

- «*تعلم أني على دينك*».

فقال تيم بهدوء وهو يربت على الأرض:

- «*اجلس أمامي*».

اقترب يعرب منه حتى واجهه، وضع تيم يديه على ركبتي الفتى، نظر في عينيه مباشرة، وسأله:

- «*من ربك؟*».

فاجأ السؤال يعرب لحظات، ثم أجاب ببطء:

- «*الله*».

«من ربك؟»، سأله ثانية، فابتسم يعرب متوترًا، وأجاب بسرعة هذه المرة:

- «*الله*».

«من ربك؟»، سأل تيم من جديد، فقال يعرب محتدًا:

- «*ربي الله يا تيم!*».

- «*حين تفكر فيه، أين تشعر به؟*».

«في عقلي»، أجابه سريعًا، فهز تيم رأسه، وهو يقول:

- *«لا يشعر المؤمن بالله هناك فقط»*.

فسأله يعرب في حيرة:

- *«فأين إذًا؟»*.

همهم تيم وهو يتراجع عن يعرب، يربت على فخذه، ويقول:

- *«حين تعرف إجابة سؤالك هذا، أزوجك ابنتي»*.

في طريق عودته ظل يعرب يبحث عن الإجابة، بينما سكينة تحدثه عن الفتاة:

- *«جمالها من نور، ذكرتني كثيرًا بأمك خديج يا يعرب»*.

- *«تشبهها؟!»*.

«كثيرًا» أجابته، نظر إليها ساهمًا، فسألته وقد رأت حيرته:

- *«بم أجابك صاحب النبي؟»*.

- *«لم يجبني بعد»*.

فربتت سكينة على كتفه، وهي تقول مطمئنة:

- *«عله يريد أن يسأل ابنته عن رأيها، وقد وجدتُ فيها ميلًا لك»*.

وسكتت قليلًا ثم قالت:

- *«اسمها رضية»*.

كرر يعرب الاسم وقد استعذبه.

لم يستطع أن ينام تلك الليلة أو التي تلتها، وفي اليوم التالي أمر بالمسير عله يتلهى عما حل به، وفكر في نفسه أن النساء كثير، عله يجد خيرًا منها في غيرها، وخرج بالرجال ظهرًا من السهل، يحملون الماء والمؤونة فوق الدواب، وآثر يعرب أن يترك سماءً مع ابنها فأخذ فحلًا أسود خرج به، يجاوره جرهم على جحشه الوحشي، وخلفهما أخوهما عاصي، واختار المسير شمالًا.

طالما تجنب المسير شرقًا خشية أن يصطدم بجده خالد.

استمر مسيره طويلًا بأرض مقفرة، كئيبة كنفسه، نقش وسمه على حجارها، وإن عرف ألا

أحد سيهمه المكوث بها، ثم انفتحت الرؤية أمامه على صحراء ممتدة، لا معالم لها إلا الكثبان المتتالية كأمواج بحر، رمالها ناعمة بلا شائبة، غرزت فيها حوافر الخيل فور أن وطأتها، فقال جرهم محذرًا:

- *«هذا موضع خطير»*.

هز يعرب رأسه موافقًا وهو يقول:

- *«ليس به حتى ما يمكن أن نضع عليه وسمنا»*.

ورفع عاصي إزاره وبال غير بعيد فقال جرهم وهو يشيح عنه نظره:

- *«قد وسمه أخوك»*.

ابتسم يعرب وهبات ريح ساخنة تحرق وجهه، حك عينيه بقوة، فسقط دمعهما محملًا بالرمل، لم يكن يحب التراجع لكنه رآه واجبًا الآن.

ورفع يده مشيرًا لأصحابه بالرجوع لكنه تجمد حين تبدت له أشكال رجال في المدى البعيد!

غشرت رؤيتهم في الأعين الدوامع من الريح والرمل، لكنهم هناك، سود الجلد، عددهم عظيم، بينهم النساء والأطفال، يقتربون منهم بسرعة.

تعرقت أصابع يعرب، وقبضته تشتد على عصاه، وسأل أخاه:

- *«جن؟!»*.

- «لا».

- *«أواثق أنت؟»*.

- *«يبدون كالناس لولا لونهم»*.

وتصايح الرجال من خلفه وهم يرقبونهم يقتربون، أجسادهم رشيقة، عضلية، لا يسترون إلا عورتهم بجلود النمور والذئاب، أيديهم قابضة على شيء لم يستطع تمييزه من مكانه بعد، واقترابهم منه اقتراب قتال!

تراجع حصانه وهو يصهل، فربت على رقبته لكنه لم يهدأ، وتمنى لو كانت تحته سماء الآن، ثم التفت إلى جرهم فرآه يرقبهم بتحفز وعرف في وجهه أنه مقاتلهم، لكن الآخرين من رجاله لم يكونوا على حاله، وهم يرقبون أعدادهم الهائلة.

ولم يمهله القادمون كثيرًا، تعالت صيحاتهم من بعيد، همجية مخيفة، متحفزة للقتل كأنهم يحتفلون بما هو قادم، سرعتهم كسرعة الغزلان، وأقدامهم لا تنغرز في الرمل أسفلهم. وضرب يعرب بطن فرسه فصهل منطلقًا وهو يخلع قوسه من على كتفه ويجهز سهمه الأول بينما يضيق ساقيه حول الفحل كي لا يسقط، ورفع رجل من المهاجمين يده بما يحمله فرأى يعرب صخرة سوداء حادة، لا بد أنهم تسلحوا بها من حيرة غير بعيدة، قذفها الرجل بقوة وهو يصرخ فرآها يعرب تقترب منه، وانحنى فوق حصانه، فعبرت فوق رأسه لترتطم برأس أخيه عاصي ملقية إياه عن جمله!

صاح يعرب غاضبًا، وهو يضرب ظهر حصانه بقوسه لينطلق: «اقتلوهم!».

وشد سهمه، صوبه نحو ملقي الحجر، وأطلق فاندفع السهم حتى استقر بعنقه، فظل يضرب بذراعيه الهواء، وهو يدور حول نفسه حتى سقط جثة.

وانطلقت الحجارة في السماء كالشهب، فسقط رجال من حول يعرب وصراخهم يتصاعد، والمهاجمون يتقدمون كسيل، فأطلق سهمًا ثانيًا، وثالثًا، وارتعشت يده لحظة فانفلت سهمه من قوسه وسقط على الأرض تحت حوافر فرسه، فأخذ نفسًا عميقًا، وعيناه تتسعان وهو يرى المحاربين السود ينتشرون بين رجاله.

قفزوا وهم يمتطون الخيل، مسقطين راكبيها، صعب أن تصلهم فأس أو عصا لسرعتهم، حطموا أعناق رجاله، ولم يرتعبوا حين سقط بعضهم قتلى بفأسه، وامتطى أحدهم حصانه بقفزة واحدة فأصبح وجهًا لوجه معه، وبلا تفكير أرجع يعرب رأسه للخلف أقصى ما استطاع ثم دفعها في وجه المهاجم ضاربًا أنفه، فاندق ونفر منه الدم مختلطًا برائحة عطرية دسمة أبغضها يعرب وأشعلت فيه ثورة غضب مسعور ورثها عن أبيه، فدفع الرجل عن فرسه، وضرب بفأسه الرؤوس حوله، فسقط مهاجمون كثر في رقصة موت محموم، ولمح جرهم يتحرك وسطهم كأنه الريح، لا يمكن الإمساك به أو إيقافه، يوزع الموت على المقاتلين، ويتحرك في الساحة الرملية بلا حدود، كل من يمسه هالك، وفي عينيه لا أثر لخوف ولا غضب، فقط استغراق كامل في عملية الذبح.

وتجمد لما رأى عاصيًا ميتًا، قد دهسته الخيل، وحوله في الساحة عشرات من خيرة رجاله قد سقطوا، ومهاجموهم السود لا يزالون الأغلب، وكانوا قد بدأوا يسوقون أنعامهم بالفعل كأن المعركة قد حسمت.

صاح جرهم بصوته الجهوري:

- *«كل راكب يتراجع للخلف بسرعة»*.

فالتفت إليه يعرب بغضب لكنه رأى في عينيه لمعة جلية جعلته يطيعه ويرجع مع الراجعين، وببطء رأى أنهم يكونون ما يشبه دائرة تحيط بالمهاجمين، فلاحت في عينيه ابتسامة إثارة وهو يسمع جرهم يصيح ثانية:

- *«الآن تقدموا ببطء وليقتل كلٌ من يليه».*

وتحرك الرجال، وبدأت مذبحة منظمة. فوجئ المهاجمون الذين انشغلوا بقتال الراجلة أن كماشة تغلق عليهم، ساحبة إياهم إلى الموت من ظهورهم، وتقدم الراجلون بحماسة وهم يرون رفاقهم يذبحون السود من أطراف الدائرة، فحوصر العدو من الناحيتين.

واندفع أحدهم، وكان مقاتلًا عظيم الجسد، قد نبت البياض في شعر لحيته، كأنه قائدهم، نحو يعرب، فاحتضنه مسقطًا إياه عن فرسه، ثم كبل حركته بأن جعل ساقيه القويتين حول جذع يعرب، ولاح ذكره من تحت إزاره الذي انخلع عنه، وهو يرفع صخرة مدببة سوداء ويهوي بها نحو رأس يعرب الذي انتفض في نبضة أمل أخيرة، فاختل توازن الرجل قليلًا بينما تخترق صخرته كتف يعرب الذي صرخ من هول الألم، ثم انتزعها الأسود من جلد الفتى ودفعها من جديد هاويًا بها على رأسه وقد أحكم إغلاق ساقيه حوله هذه المرة.

حاول أن يزيحه لكن كتفه احترقت بألم عصبي شلّه، أغلق عينيه فساد سواد مريح، وشعر أن العالم يتباطأ في وعيه، فيتلاشى الزمن، وتدور الأحداث حسب إرادته الخاصة، وتدافعت في عقله وجوه متتالية فرأى أباه قحطان وعمه سكونًا ورملًا ورأى سحرًا، ثم، وفي دهشة تامة، رأى خديجًا!

حينها تذكر اللحظة الأقدم بعمره، لحظة ولادته، رآها، ورأته، ثم ماتت..

نعم، قد رآها حينها، قد فعل!

وكانت تبتسم وهي تسلم روحها..

وبانفعال جارف وجد أنها بالفعل تشبه رضية كثيرًا، وفهم أنه أحب تلك الفتاة لذلك الأمر من دون أن يعي أن ذاك هو السبب!

ودق قلبه، كأنه جسد كامل ينتفض..

وعرف إجابة سؤال تيم..

- *«أين تشعر به؟».*

- *«في قلبي!».*

وفتح عينيه، عض شفتيه من الألم وهو يدفع ذراعيه في صدر المهاجم مسقطًا إياه، ثم يفرد ظهره، وينحني بكل جسده فوق الرجل معتليًا إياه، وفتح فمه، أسنانه هي سلاحه الوحيد الآن، وعض أنف الرجل حتى اقتطعها والدم الدافئ يسيل داخل فمه فيبصقه في وجه الرجل الذي ضربه ضربة بائسة بالحجر على رأسه، فانتزعه منه، ودفنه في تجويف أنفه وضغط بقوة حتى غرزه.

وساد صمت..

ثم شوهد يعرب..

يطوف في الناس وقد انخلع عنه كل عبء الخوف من الموت، وكأنه قد مات فعلًا، فقتل قتلًا لم تر عابر أو عاد مثله، وفي داخله ينبعث إيمان غامض أنه غير مقتول مهما غامر.

ثم سمع صرخة أخيه جرهم الساخرة، فالتفت وراه وهو يسحب نساء المهاجمين وعيالهم، وقد وصل إليهم، ويبتعد هاربًا، وهنا تغير كل شيء.

فزع المهاجمون، وتركوا القتال وهم ينطلقون خلف جرهم نجدة لعوائلهم.

وانطلق يعرب ورجاله خلفهم قانصين من تصل إليه أسلحتهم.

ثم دار جرهم ومن معه مرتدين يهاجمون الراكضين إليهم في كَرَّة أخيرة.

وتتابع القتل حتى غربت الشمس.

قُتل كل الذكور حتى الأطفال.

ودفن يعرب رجاله، فاستمر الدفن نحو يومين في رمل لا يستقر، ولا يلبث أن يتكشف عمن دُفن فيه.

وأسرت النسوة مقيدات بالحبال، سار بهن حتى سهل سكون.

وفُجع السهل بمن قتل، ومن جرح.

لكن شعورًا وقع داخل أنفس الجميع منذ تلك الليلة، بأن قهرهم مستحيل.

وناموا، وهم يشعرون أنه ليس على الأرض أعز منهم.

***

- *«من ربك يا يعرب؟»*.

سأله تيم فأجابه بهدوء: «الله».

- *«تؤمن به حقًا؟»*.

- *«نعم»*.

- *«فأين تشعر به؟»*.

أشار يعرب إلى رأسه وقال: «هنا»، ثم خفض يده إلى صدره وأضاف: «وهنا».

فابتسم تيم وهو يهز رأسه راضيًا، وهمس: «سبحانه في سمائه».

ثم رفع عينيه إليه، وإلى أخيه جرهم الذي رافقه في خطبته، وسأله:

- *«ماذا يريد الله منك يا يعرب؟»*.

- *«أن أؤمن به، وأحمي عشيرتي هذه»*.

أجاب يعرب من دون تفكير، فهز تيم رأسه، وقال مترفقًا:

- *«بل يريد الله منك، أن تحمي كل إنسان تستطيع حمايته»*.

وانفتحت عينا يعرب بدهشة ومدى إبصاره يتسع ليشمل العالم كله! أهذا ممكن؟! أن تكون العشيرة أكبر من عابر وعاد! أن تتسع فتشمل عبيده السود، والبدو، والعراة، وناحتي الذهب في البلاد البعيدة الذين سمع بقصصهم من سحر!

اقترب تيم بوجهه منه، وهمس له:

- *«الناس عيال الله»*.

دمعت عيناه وهو يسترجع مشاهد ذبح الأطفال الذكور التي أمر بها في قتاله الأخير، وتذكر أنه حتى أخاه جرهم بدا متجهمًا كالمعترض حين أمر ذبحهم.

«يعرب»، ناداه تيم فرفع عينين دامعتين إليه، فقال له:

- *«ما دمت تشعر بالله في قلبك فإن الدنيا كلها تحت قدميك بانتظارك لتصلحها»*.

ارتعشت شفتاه انفعالًا، ثم انحنى ظهره، وغرق في نوبة بكاء.

منذ ركض خلف أرنبه حتى اليوم لم يتوقف القتل لحظة.

ولم يكن هناك وقت يتدبر فيه ما يفعل.

كان يقتل لأنه إن لم يفعل سيقتل.

كان الوقت دائمًا ضيقًا، ليحمي نفسه، يحمي أهله، يثبت أنه الأحق بالسيادة.

ورغم كل هذا القتل، خسر جُل من أحبهم بالموت أو بالخيانة.

أغلق عينيه، وبلسان ثقيل همس سائلًا:

- *«أيكرهني الله يا تيم؟»*.

أجابه جادًا:

- *«هو يراك»*.

- *«الآن؟»*.

- *«دائمًا»*.

- *«فما تظن أنه فاعل بي؟»*.

- *«ما تظن أنت أنك فاعل من أجله؟»*.

فتح يعرب عينيه ينظر إلى تيم في حيرة، فربت الأخير على كتفه ودعا الله له، وقال:

- *«اختر خير بهائمك، واحدة، ثلاثًا، خمسًا، اذبحها بيدك، قطع لحمها وقف على شوائه وأطعم كل حي بالسهل، وليكن هذا قربانك إلى الله»*.

- *«أفعل»*.

- *«اجعلها يوم زفافك إلى ابنتي»*.

فابتسم يعرب رغم دمعه، ومن طرف خفي تابعتهما رضية، يدها على صدرها، تتألم من أجله وقد رأت ما كان من بكائه.

ودت بتلك اللحظة أن احتضنته لتهون عليه.

***

دخل يعرب برضية بعد ليلة سيتحاكى بها السهل طويلًا. أولم فيها يعرب ببهائم كثيرة فطعم الكل حتى شبعوا، حتى الضواري جُعلت لها أنصبة خارج حدود السهل، وألقي الحب من أجل الطير على سفوح الهضبة والجبل.

وأتبع زواج يعرب، زواج أخيه حمير، وكان من الغرائب لأنه اختار إحدى العبيد من الحبش ممن أسرن بموقعة الصحراء. كانت جميلة، لها أنف دقيق، جسد ممشوق، وشعر أسود كثيف لا

تغطيه أبدًا، قد حذقت لغة أهل السهل كلامًا وكتابة أسرع من قريناتها.

بنى لها دارًا قريبة من دار أخيه يعرب.

ولازمت الحبشية رضية، فتصادقتا.

رأت يومًا صندوق خديج، فسألت رضية أن تفتحه لتريها ما فيه، فهزت الأخيرة رأسها معتذرة وهي تقول:

- *«أمرني زوجي ألا أقترب منه»*.

- *«لن يعرف يعرب أنك قد عصيته»*.

- *«بلى، لكني لا أريد أن أفعل»*.

- *«قال لي حمير أنه من زينه على هذه الصورة»*.

وكان حمير يعمل نحاتًا، فلما تجهز يعرب لزواجه، أمسك إزميله وحفر في الصندوق تصاوير مبهرة، وطعمه بالنادر من الحجارة، ولون بعض أجزائه فأصبح تحفة مبهرة!

- *«قد فعل»*.

أجابتها رضية وهي تسحبها بعيدًا عن الصندوق.

ولم يلبث يعرب إلا يسيرًا حتى خرج بسرية جديدة نحو الجنوب مصطحبًا زوجه معه، وكان أول من يفعل ذلك، فاتبعه كثير من الرجال وأصبح تعليم النساء ركوب الخيل من ضرورات الكمال للمرأة لترافق زوجها أوقات المسير.

بإحدى غزواته، دخل واحة صغيرة يعيش سكانها بالخيام، في لغتهم شبه كبير بلغة عاد، وإن اختلفت، فامتنع عن قتالهم، وتحالف معهم، مهديًا البهائم، وترك فيها حامية صغيرة من رجاله يعلمونهم اللغة، كما أخذ خير أبنائهم رهائن يضمن بهم عدم خيانتهم، فكانت تلك القبيلة أول من تحالف معه، ودلوه على أرض جنوبية بعيدة لم يخلق الله أسعد منها، لا ينقطع عنها المطر صيفًا وشتاءً، أعشاش النحل فيها على كل شيء؛ الأشجار والجبال والسدود فلا أكثر من العسل فيها، من نوع عجيب شافٍ، داكن اللون، أقرب إلى الأسود، وأرضها تنبت فيها كل أنواع الثمار، حتى جبالها يغطيها الشجر.

أخبروه فيما حكّوا عنها أنها كانت موضع الجد الأكبر آدم حين وطأ الأرض أول مرة مع زوجه.

قضى يعرب أعوامًا يغزو ويجمع الحلفاء حوله، ثم سار إلى أرض الجنوب في جمع عظيم

فيه كل أحلافه، مقدمًا الهدايا، وعارضًا الأمان على قومها، وكانوا أهل كرم وضيافة، فدخلوا حلفه، وزوج ابنة كبيرهم بأخيه جرهم فأمن مكرهم بالنسب.

وفيها أنجبت زوجته رضية ابنه الأول يشجب الذي ولد ضخمًا كعاد، ولم يكن فيه من عابر إلا سمت عيونهم الحزين، وطول صمتهم.

وفشى ذكر يعرب في البلاد كما فشت لغته..

سيدًا وَرِعًا، وحاكمًا عادلًا، وأبو عيالٍ رحيم، وحليفًا لا ينكث وعدًا..

وهكذا ملك الناس..

وكان الرجل إذا أراد أن ينتسب، نسب نفسه إليه قائلاً: «أنا يَعرَبِي».

ثم حذفت الياء الأولى تخففًا في النطق فصار يُقال:

«أنا عَرَبِي».

ولما كثر الناس بالسهل جمع يعرب إخوته، وعرض عليهم أن يخرجوا منه، فيتوزعوا على الأرض التي تملكوها بعد أن اتسعت، ويقيموا فيها حكمه.

- *«أنا أريد اليمن».*

قال حمير من فوره، وكانت خير أرض يعرب، فرفع رأسه إلى أخيه جرهم متفحصًا، ورآه راضيًا أو غير مبال، فأقر حميرًا عليها.

ثم اختار منيع أرضًا شرقية ذات واحات ونخيل.

واختار أخوه الأصغر أن يتملك الشواطئ الشمالية، وما وراءها من أودية وجبال.

وطلب المُعتمِد من أخيه أن يبقى بالسهل، وكان رجلًا ضعيفًا ذا حلم، وذريته كلها من البنات فأبقاه يعرب إلى جواره.

أما جرهم فقد سكت عن أن يطلب بلدًا يركن إليه.

وسأله يعرب بعدها بأيام، عن سبب عدم اختياره بلدًا يرسله إليه كما فعل إخوته، وكان يظنه طالبًا اليمن وهو الأحق بها، فأجابه جرهم بأنه يفكر بالخروج إلى الوادي الجبلي الذي رأوه يومًا حيث الأرض المنعزلة التي حطم السيل بناءها المكعب أمام أعينهم.

«أذكره»، همس يعرب بتأثر، ثم تابع ببطء.. «أذكر أيضًا أمرًا عجيبًا حدث لي به».

«أخبرني به»، قال جرهم، فأطال يعرب النظر إليه، مشفقًا من إخباره بأمر الصوت الذي

سمعه يأمره بألا يدخله، ثم هز رأسه قائلًا:

- *«لا عليك من ذلك، اخرج إليه، وإن لم تجد مستقرًا به فارجع إلى هنا»*.

ابتسم جرهم وهو يهز رأسه..

والحق أن الأخوين؛ يعرب وجرهم، كانا الأقرب إلى بعضهما، وكان يعرب يرجو، في أمل خفي، أن يبقى جرهم إلى جواره بالوادي.

أما جرهم فلم يكن خروجه إلى الوادي الصخري مدفوعًا بحب المغامرة الذي عرف به، إنما كانت الرؤى التي تتابعت عليه منذ رآه في رحلته مع يعرب ما دفعه أن يعود إليه.

كان يرى ثريا ذات أعمدة من ذهب مزينةً بالحرير أسود الذي نقشت عليه كلمات لم يستطع قراءتها، معلقة في السماء، تتدلى من كوكب أحمر فوق أرض الوادي، تلمع بضوء الشمس والوادي أسفلها ظلمة موحشة، تصله منه أصوات الحيوان والطير، وهو على كآبته تلك حتى يحل الليل وتشتد ظلمته.

ثم يظهر القمر، ويسقط نوره على الثريا فتلمع وكأن الحياة دبت فيها، وتُسقط نورها على الأرض الصخرية عاكسة تلك الكلمات التي لا يفهمها جرهم على كل الموجودات بالوادي فتدب فيها الروح، حتى صخره الذي جرفه السيل ينتفض متقاطرًا إلى أوسط الوادي، معيدًا بناء الغرفة المكعبة البهية! ومن حولها يجتمع الناس، آلاف، أكثر من آلاف، لا حد لأعدادهم! حشد غير معقول كأنهم كل أهل الأرض.

ولما كان جرهم رجلًا دَيِّنًا، فقد آمن بصدق رؤياه، وحكاها لتيم فأخبره أنها خير.

وتمنى في نفسه لو كان ذلك الجمع العظيم الذي رآه من ذريته.

وهكذا أمر زوجه بالتأهب للرحيل، اضطربت من أمره، كرهته، لكنها أطاعت، وجَمع نفرًا من أصحابه، أغلبهم من عابر، وقلة من عاد، وأحباش كثيرة، وانطلقوا شمالًا يبحثون عن الوادي.

لكن، وإن كان جرهم خير إخوته في القتال والرمي، فإنه لم يكن مثل يعرب في تقفي الأثر والاهتداء بالنجم.

فأدخل قومه في أرض لا نهائية من صخر مقفر وسلاسل جبال.

أندر ما فيها الماء.

وعجز أن يخرجهم منها.

أما حمير وأهله الذين ساروا إلى اليمن في مائة رجل، فقد حملت زوجته الحبشية أثناء

مسيرهم وانتفخ بطنها، فحملت في هودج كبير مكثت فيه أغلب الوقت، وكان حمير يبات معها فيه.

استيقظت في ليلة باردة على صوت الريح، رفعت رأسها فرأته إلى جوارها يغط في نومه، عاريًا، لا يبالي بالبرد.

اقتربت منه، مست شعره الكثيف، قبلت رأسه، واحتضنته، ثم أغمضت عينيها، وهي تحرك يدها حتى لامست خنجره.

أمسكت به فشعرت بضربة رقيقة من جنينها على جدار رحمها، تجاهلتها وهي ترفع الخنجر، وتهمس من بين دموعها:

- *«من أجل أبي وأخي اللذين قتلتموهما يا حمير»*.

وغرزت خنجرها في حلقه ففتح عينيه مرتعبًا، وصرخ.

وسيقت المرأة إلى يعرب في أغلالها، أبقاها حتى أنجبت، ثم أمر بقتلها.

كان طفلها جميلًا مثلها، ومثل أبيه، رشيقًا، آدم، سماه يعرب حميرًا كأبيه، وأرسل الطفل مع أخيه المعتمد إلى اليمن الذي سيحكمه حتى يتبعه في حكمه يشجب بن يعرب ومن ورائه سبأ بن يشجب.

كان يعرب يقضي الكثير من وقته مجالسًا تيم الله، يخوضان في أحاديث طويلة أكثرها عن الأيام القديمة.

سأله يعرب عن بعض مواضع كان قد رآها في إرم حين اقتيد إلى قصر شداد، وسأله تيم عن حروب أبيه مع الجن.

وفي ليلة هادئة، بعد أن أكلوا وشبعوا من طعام صنعته رضية لهم، أغمض تيم عينيه ثم بدأ يغني أبيات شعر رقيق عن جمال مدينته البائدة.

غنى بصوت ساحر أغرق يعرب في تفاصيلها، كأنها يطير فوقها والريح تضرب وجهه..

دمعت رضية وهي ترى تأثر أبيها وتهدج صوته وهو يغني..

نهنه تيم، وشهق تأثرًا، خفض رأسه في صدره ثم سقط ميتًا على جانبه.

دُفن في الموضع الذي مات فيه وجعل يعرب على قبره صخرة تميزه، وإن كانت أصغر من صخور أضرحة عاد.

بعدها بزمن يسير، في ليلة غاب فيها القمر خلف غيوم ثقيلة، خرج يعرب من داره ليبول، فاختلى إلى سفح الجبل، وأنزل إزاره فعاجله سهم من خلفه اخترق بين كتفيه، وسمع صوتًا يضحك قائلًا:

- «*خذها مني وأنا جيرمث بن الحارث بن مطيف يا ابن قحطان*».

فسقط على وجهه مرتطمًا بالصخر وسال الدم من فمه، ولما استيقظ وجد نفسه في داره، وإلى جواره سكينة ورضية، فهمس:

- «*هل نزعتم السهم من كتفي؟*».

نظرت زوجته إلى سكينة في غير فهم، فقالت الجدة:

- «*يهذي بسبب الحمى، لا بأس عليه*».

فعاد يسأل:

- «*أين السهم؟*».

- «*ليس هناك سهم يا يعرب. سقطت بسبب الحمى والجهد. استرح وستكون بخير صباحًا*».

فأغمض عينيه ونام.

لكنه ظل تعبًا، كأن روحه انسحبت منه، وندر خروجه من داره، واستبقى عياله حوله، ثم اختلى مرة بيشجب وكان أقرب أبنائه إليه فقال له:

- «*احفظ عني يا يشجب*..

تعلم العلم واعمل به. اترك الحسد ولا تلتفت إليه. تجنب الشر وأهله. أنصف الناس من نفسك ومن أهلك لينصفوك من أنفسهم وأهلهم. إياك والكبر فإنه يبعد قلوب الرجال عنك وعليك بالتواضع فإنه يقربهم منك. اصفح عن المسيء إليك، وآثر الجار الدخيل على نفسك فإن عِزه عزك. ولأن يسوء حالك خيرٌ لك من أن يسوء حال جارك. انصر مواليك فإن مواليك منك».

مضت ستة أيامٍ منذ حادثته، وفي السابع وبينما يجالس جدته، قدمت له قدح لبن فاستلمه، فتساقطت منه قطرات. كشرت سكينة وهي تحدق في يده وهي تراها ترتعش وقالت:

«ألم آمرك ألا ترتجف يدك أبدًا يا...»، قاطعها بنظرة حزينة، والقدح لا يزال يرتجف بين

أصابعه فامتلأت عيناها بدمع وهي تنظر إليه وأنفاسها تتسارع.

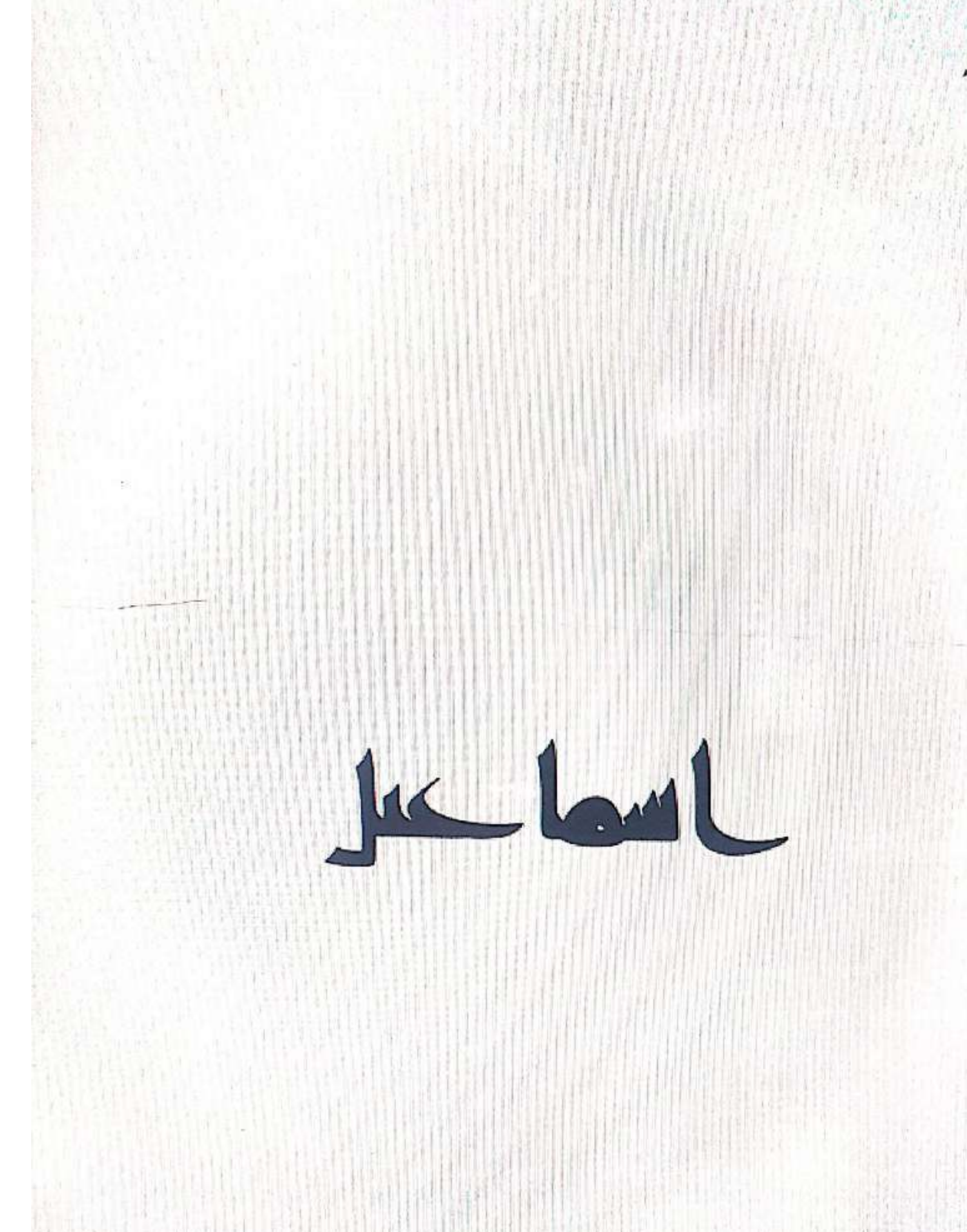
وكانت تلك آخر مرة تراه فيها.

فكان دفنه إلى جوار تيم الله على وصيته.

ولم تستطع أن تودع جثته من شدة الحزن..

ظنت أنها لن تعيش بعده طويلًا، لكنها عمرت حتى عدَّ أهل الوادي لها مائة عام بعده..

ثم انقطعوا عن العد بعد أن هلك جُل الناس في الوباء..


اسماعیل

لبث جرهم وآله في تيههم بأودية الصخر أزمانًا طويلة.

واسثهم الأرضُ بالغزلان، والأرانب البرية، وقطعان الإبل. ببعض المواسم انقطع عنهم الصيد بالكلية، فاقتاتوا على الزواحف والحشرات.

وافترست الأسود أفرادًا منهم، لدغت الحيات آخرين خاصة بالأيام الحارة حين كانت تغادر جحورها، هاجمتهم القردة المتوحشة، وسرقت أطفالهم القطط البرية والذئاب.

لكن ما كان مؤلمًا بحق وخطرًا على الدوام، ندرة الماء.

أورثتهم تلك الندرة خشية دائمة من الله، متطبعين بلجوء الفقير المحتاج، الخائف من أن يُذنب فينقطع عنه المدد، وكسرت في أنفسهم الاستكبار.

وأصاب جرهم حزن عميق، وكآبة عرف بها حتى مات، وصمت طويل؛ في قرارة نفسه، وهو ينظر إلى أبنائه وأحفاده وأفراد عشيرته، كان يعرف أنه من ضيع هؤلاء في هذه المتاهة.

أخرجهم من الوادي الأخضر إلى هذه الأرض الصخرية، بحثًا عن بناءٍ محاطٍ بالجبال لم يعد أحد يذكره، وقد تطاولت الأجيال فأصبح حلمه بالوصول إليه قصة من قصص الجدات تُحكى لأولاد لا يصدقونها.

وفي ليلة شتوية نام، فرأى الثريا التي رآها من قبل تضيء ما تحتها، وللمرة الأولى وجد نفسه يقترب أكثر وأكثر من البناء المكعب فدق قلبه بانفعال المشتاق، وميز بدهشة أن ذلك البناء الذي هدمه السيل أمام عينيه، يُقام من جديد على يد كهل مهيب وفتى!

اقترب منهما بوجل وهو يشمر عن ساعديه وكانا قد نحلا وتعرقا، وجلدهما الذي لفحته الشمس عشرات السنين قد رق فوقهما، خجل من منظرهما لكنه قال:

- «*أُقيمه معكما*».

فتوقف الكهل وفي يده صخرة ورفع رأسه إليه، وكذا فعل الفتى الذي ما إن رآه حتى ابتسم بمرارة وخفض رأسه حياءً، والكهل يقول لجرهم:

- «*كيف تبني وقد مِت؟*».

ففتح جرهم عينيه بدهشة، وتلمس جسده فشعر بأن كل موضع يمسه تسري فيه وخزة لطيفة، وسمع من السماء صوت إنشاد لم يفهم بعضه، ودقات طبل.

وحين ذهب إليه أبناؤه يوقظونه، وجدوه ميتًا، وفي عينيه دمع.

***

توارت منشوس وهي تسترق النظر للرجال خلف ستار ثقيل، وهم يتكلمون عنها وعنه.

إسماعيل بن إبراهيم، تراه جالسًا مع أبيها وعمها يحدثهما في أمر الزواج منها.

ورغم أن أباها مضاض بن عمرو الجرهمي من سادات وادي بكة، لم تنشأ في ذلك الوادي ذي الكعبة المقدسة، ذلك أن أباها أرسلها إلى وادي سكون، على عادة سادة جرهم بعد أن دخلوا الوادي واستقروا فيه، أن يرسلوا أبناءهم ليتعلموا اللغة وركوب الخيل والقتال وفنون الزراعة والتربية من نساء بني يعرب.

لا تزال تذكر أيام السهل الجميلة..

البحيرة التي لا تجف، تنبع من باطن الأرض ولا تنقصها ندرة المطر.

الطعام لا ينضب، له فنون طبخ تجيدها النساء هناك.

العسل يُجلب من أودية النحل بالجبل، وفي كل مكان تنظر إليه ترى الإبل السِمَان، والأبقار وذراريها، والخرفان البيض.

الدور متناثرة على امتداد الوادي بترتيب لطيف، كثيرة، أكثر من بيوت الناس بوادي بكة، لكن اتساع الوادي لا يشعرك بكثرتها، كما أن جرهم تخاف أن تبني داخل الوادي وحول الكعبة لحرمتها، فكانت كل دورهم على الجبال والمناطق الضيقة المحيطة بالبطاح.

لا تزال تذكر أضرحة العظماء القدامى؛ تيم الله ويعرب وسكون، تكسوها الورود الجبلية والحشائش ويستقر الطير فوقها استئناسًا بأرواح أصحابها.

والجبال والهضبة تحمي كل ذلك من جميع الجوانب، قد جُعل عليها، بأمر الجد الأول يعرب، رجال يراقبون الأودية من حولهم.

لكن الموت دخل الوادي بغير سيف ولا قتال، إنما دخله في صورة نساء لم يرَ أحد مثل حسنهن العجيب.

بدأ الأمر بعودة سيد وادي سكون، كهلان، من إحدى غزواته بالشمال بنسوة سحرن رجال الوادي بشعورهن الشقراء، وعيونهن التي بلون السماء، وأجسادهن الرشيقة.

يوم دخل بهن، خرج الناس ينظرون بدهشة، وتجمع حولهن الأطفال، وأمر كهلان بأن تجعل لهن دور بالجانب الغربي للسهل، ثم خالف واحدة من وصايا يعرب فتزوج إحداهن من قبل أن تنطق العربية، وكان ذلك مما حُرم على كل ولد قحطان، وحين لامه رجال في ذلك قال: «لا أطيق أن أصبر عليها! تتعلمها وهي زوجي».

كانت شديدة القرب من المعمرة الهرمة سكينة، التي كانت تعد من عجائب عابر، إذ إنها عمرت أكثر من مائتي سنة، وكان يقال في الوادي أن يعرب القديم نفسه كان ابنها أو حفيدها.

كانت قد عميت، وضعف سمعها، وخرفت، لكن منشوس كانت تحبها وتستأنس بالقرب منها، ولما حل الوباء بقيت معها.

وبظهيرة حارة، وقد خلا السهل الهالك من كل أهله، دخل عليهم رجل عظيم الهامة، قوي البنيان، ملثم، لم يلبث أن قال آمزا منشوس:

- *«قومي لتعودي إلى ديارنا»*.

- *«أبي!»*.

همست منشوس غير مصدقة، فأشار بنفاد صبر وصاح:

- *«قلت قومي»*.

توقفت منشوس بسرعة، وهي ترتب ثوبها، وتلف حجابها حول رأسها، فقال لها:

- *«لفيه حول فمك وأنفك، لا حاجة لرجل بالنظر إلى شعرك الآن»*.

ففعلت، وتحركت خلفه مغادرة..

ثم سمعت سعال سكينة..

فتوقفت، والتفتت إليها..

- *«ما يبقيك؟!»*.

صاح الرجل، فأشارت إليها وقالت ترجوه:

- *«آخذها معي»*.

- *«تأخذين من؟»*.

- *«الجدة سكينة»*.

- *«ما أرى أحدًا أحق بالهلاك في هذا السهل أكثر من هذه العجوز»*.

- *«هي أم يعرب يا أبي»*.

- *«والله لو كانت أمك أنت لتركتها، ليس لها مكان عندي»*.

تراجعت منشوس للخلف خطوة، وقالت:

- *«وأنا لن أتركها»*.

اقترب منها مضاض مغاضبًا ويده مضمومة، وتراجعت خطوة أخرى وهي تنظر إليه وتهمس:

- *«لا تفعل يا أبي. لا حاجة لك بضربي، فقط غادر واتركني معها»*.

وجلست إلى جوار العجوز الهادئة مستندة إليها كالمحتمية..

رمشت عينا مضاض بارتجاف لحظي، نظر إلى ابنته طويلًا ثم قال ببطء:

- *«هناك حصان أجرب رأيته عند دار جيرانكم الخالية. أجلسيها عليه»*.

- *«أفعل!»*.

صاحت منشوس، وهي تعين المرأة أن تنهض، وتقول لها:

- *«هيا.. هلمي يا جدة، سنغادر السهل»*.

همست المرأة:

- *«الصندوق»*.

- *«أي صندوق؟»*.

- *«صندوق خديج ويعرب، ابني»*.

- *«امرأة تخرف»*.

قال مضاض، لكن منشوس تلفتت حولها تبحث عنه حتى وجدته غير بعيد بطرف الحجرة. حملته فكان حمله يسيرًا، تناوله أبوها منها وهو يزفر، وأسندت منشوس الجدة حتى ركبت الحصان. كان هزيلًا، قد نحل وبره فكشف جلد ظهره المسلوخ وبطنه، وبدلًا من أن تركب ناقة أبيها، ركبت خلف سكينة وهي تلفها بذراعيها ألا تسقط ثم انطلقت خلفه.

ابتسمت منشوس وهي تذكر تلك الأيام، تركت الستار، ورجعت عن مشهد إسماعيل والرجال لتجلس بجوار سكينة، التي سألتها:

- «كيف هو شكله؟».

- *«وجهه جميل يا جدة، فيه علم لا أفهمه، كأنه رأى الله، أو جاء من عند أحدٍ رآه. يقول*

إنه ورث النبوة عن أبيه».

هزت سكينة رأسها باطمئنان، وقالت:

- *«بزماني، كان هناك نبي أيضًا، رجل صالح يقال له هود، وقد تزوج حفيدي يعرب بابنة صاحبه، فكان خير زواج».*

- *«يعرب حفيدك أم ابنك يا جدة؟»*.

سألتها منشوس ففكرت سكينة وظهرها يتحدب أكثر في جلستها، ثم قالت بهدوء:

- *«لا أعرف»*.

وأردفت:

- *«لعله كان أبي»*.

لم يكن إسماعيل من أبناء جرهم، لم يكن من قحطان كلها، لكن قداسته نُسجت على مَهلٍ من قصصه.

هو أصل ماء هذه القرية، صاحب بئرها التي يُقال إن الملائكة فجرتها من أجله؛ ألا يهلك مع أمه.

وهو ابن إبراهيم الكنعاني الذي يحبه الجميع هنا، ويشهدون بكراماته، ويحفظون أحواله مع الله.

ثم هو ثاني اثنين أعادا بناء الكعبة التي طالما حدث بها جرهم أبناءه بسنين التيه.

لسانه عربي سليم لا لحن فيه، رغم أنه من أرض بعيدة ذات أنهار، لكن عربيته ممزوجة بكلمات جديدة من لغة قومه، وتراكيب رشيقة يجعل لها دفئًا خاصًا في النطق، ويضعها في مرتبة أعلى من الجميع.

يُعلم الخط والقراءة، ويحث على تعلمهما، كيعرب بزمانه.

بليلة العُرس، مشت سكينة إلى منشوس مستندة على الجدران الباردة لدار أبيها، تفوح منها رائحة ماء الورد الذي حممتها به منشوس هذا الصباح، يداها ترتعشان بلا توقف منذ استيقظت، وقواها تخور ببطء، وحولها تستشعر وجود أناس عتيقة ماتوا منذ زمن لكنها تذكرت أسماء كل واحد منهم، وقصته بوضوح تام الآن.

عند العروس، كانت امرأة مسنة تزينها جبرًا لخاطرها، لأن منشوس لم يكن لها بعد

صويحبات من جرهم، ولم يكن لإسماعيل أقارب إلا أمه، فكانت يوم عرسها وحدها.

- *«منشوس»*.

نادت على الفتاة برقة، فرفعت رأسها إليها مبتسمة، وقالت:

- *«نعم يا جدتي؟»*.

- *«هاتي الصندوق يا بُنية»*.

- *«أفعل»*.

أجابتها وهي تبعد برفق يد المزينة عنها وتنظر لها كالمعتذرة. مشت إلى حيث جعلته حين دخلوا الدار، وانحنت عليه تحمله ففاحت منه رائحة لطيفة، وسمعت قرقرة رقيقة منه.

- *«افتحيه»*.

همست سكينة وهي تستند على أقرب مصطبة وتجلس، فمدت منشوس يدها وفتحت القفل النحاسي فانساب معها، ثم رفعت الغطاء الذي سهر على نحته حمير نفسه يومًا ما.

- *«ماذا ترين؟»*.

«أنا...»، اختنق نفسها من بهاء ما تراه وريحه، هزت رأسها كأنها تستفيق من حلم، وأجابت مأخوذة:

- *«أرى رقاعًا، إحداها، الأولى على السطح، رقعة شديدة الجمال، من جلد سميك، قديم.. قديم جدًا، مخطوط عليها بحروف بهية، ومزخرفة بالرسوم»*.

- *«أهو خط واحد؟»*.

- *«لا يا جدتي، بل خطوط متباينة، أشكالها مختلفة، كأن بعضها أقدم من بعض»*.

«آه»، قالت الجدة راضية، ثم لمست المصطبة وقالت:

- *«اجلسي إلى جواري»*.

ففعلت منشوس.

- *«ألا تأتين لأتابع تزيينك أيتها الفتاة؟ قد أثقلت عليّ»*.

قالت المسنة فأجابتها سكينة وهي تشيح بيدها في الهواء:

- *«اذهبي! ألا تزالين هنا!»*.

لملمت المرأة أغراضها وهي تزفر بغضب، وغادرت دون كلمة، فابتسمت منشوس وهي تقول مترفقة:

- «*من يزينني الآن يا جدة؟*».

- «*ألم يفعل الله من قبل؟!*».

ضحكت الفتاة، وقبلت رأس سكينة، فأراحت سكينة رأسها على صدرها، ورفعت يدها تلمس خدها بحنان حتى شعرت منشوس برعشة يدها للمرة الأولى..

- «*هذه الرقعة، ورثتها عن خديج، أم يعرب، جدك أنت.*

الخط الأحمر فيها، ذلك الرقيق كأنه غصون شجرة تفاح على وشك الإزهار، هو خط خديج الجميل، وكانت جميلة مثله، وأكثر. أوله حروف متناثرة، وآخره رسالة إلى ابنها.

الخط الأسود، هو خط يعرب نفسه، كتب اسمه، وأسماء إخوته وأبنائه، كانوا كثيرين لكن كلهم هلكوا من قبل.

أسفلهم خطوط باهتة لرموز لا نعرف من خطها، ربما كان نوح أو أحد عياله أو أقدم.

أما الرسوم، تلك الزهور على الجوانب...».

قاطعتها منشوس:

- «*هي أجمل ما فيها*».

- «*رسمتها أنا*».

قالت سكينة مبتسمة.

ثم أمسكت كف الفتاة بين كفيها، وقالت بدفء:

- «*الآن.. مثل يعرب، تتزوجين، وليس عندي ما أهديك ليلة عرسك، ووالله لو كان بعمري بقية لكنت دعوت الله أن يضعه في عمرك وعمر أبنائك لأني أحبك. لكن عندي هذا الصندوق، وتلك الرقاع، فاحفظيه كما حفظته، وأورثيه كما أورثتك، لخير أبنائك، ولا تفرقي الرقاع بينهم*».

دمعت منشوس رفعت كف الجدة المعروقة الباردة وقبلتها طويلًا فنزل دمعها عليها. حينها شعرت سكينة بدفء بسيط كانت تبحث عنه منذ مات يعرب، وهمست:

- «*قالت لي خديج يومًا، أن الله نظر إليها وألهمها معرفته بينما كانت تبكي*».

- *«يدك ترتعش يا جدة».*

قالت منشوس وهو تفرك اليد محاولة تدفئتها، فابتسمت سكينة راضية وقالت:

- *«الحمد لله أن قد فعلت أخيرًا».*

الحق أن إسماعيل لم يكن مثل يعرب فقط.

إنما كان جرهم وهوذا أيضًا، كلٌ في رجل واحد توج الله به رؤوس العرب، وكفاحهم الطويل.

كسا العربية بحلة جديدة زادتها بهاءً، وعلمها لكل أهل مكة، والبدو من حولهم، فكانوا أعرب الناس.

وكان راميًا لا يشق له غبار، يرمي بالنبال والسهام بيمناه القوية، وفارسًا مغوارًا اشتهرت قصص مصارعته للعدو والوحش، فأعاد للناس ذكرى الجد القديم جرهم، ومن قبله قحطان.

كما كان داعيًا إلى الله بنبوة، مذكرًا به، مستأنسًا بالذكر له بأوقات الفجر والغروب حين يصعد إلى جبل أجياد المشرف على الوادي من الجنوب، فيرقب تغير ألوان السماء، مشرفًا على البناء الذي أقامه مع أبيه.

وسعد بمنشوس، أنجب منها ذرية حسنة، كان أولها ابنه نابت الذي كان فيه من صفات أبيه الكثير.

أما مضاض، أبو زوجه، فقد علا شأنه في جرهم مع تطاوله في العمر، سيدًا مهيبًا حتى ساد على كل الوادي، وكان ذا بطش، بناءً ليس كمثله رجل، اختط دورًا عظيمة بأطراف الوادي ذكَّرت بقصص القدامى عن دور عاد، واختار جبل قعيقعان وما جاوره أرضًا لبنائه، وكانت أطيب أرض الوادي ريحًا بالصيف والشتاء، وأقلها وحشًا، وأبعدها عن مجرى السيل، فبنى فيها للناس من جرهم وأخذ أجره أغنامًا ونوقًا، وبالآجل مع زيادة، ولما ذاع صيته أصبح أجره نوقًا وخيلًا وامتنع عن الأغنام، فإن تأخر عاجز عن السداد، فرض عليه أن يتبعه في كل أمره حتى يسدد، فعرف عنه شدة جشعه.

ولما ماتت هاجر، دفنها إسماعيل في جوار الكعبة بيوم مهيب وقف كل أهل الوادي يشهدونه، فكانت أول من دفن هناك في ذاك العهد، ولما فاضت روح إسماعيل دفن جوارها بنفس الموضع، واتخذ أولاده خيامًا لهم مجاورين للقبر والكعبة، فكانت كل جرهم، والعرب يزورون وادي بكة وكعبته صباحًا، ثم يخرجون من الوادي إلى ما عداه للبيات إلا ذرية إسماعيل.

وعظم أمر مكة بالحج الذي أمر به إبراهيم، وأداه من بعده إسماعيل، ومن بعد إسماعيل ابنه نابت، فكانت القبائل كلها، والبدو، وأهل الواحات، والسائرون بين الشام واليمن، وأهالي البحار، والقادمون من الغرب حيث النهر، وعرب الجنوب اليمني، يقدمون إلى بكة، فيحجون، ويذبحون البهائم من أجل الله.

وكانت بئرها ذات ماءٍ غزير لا يخذل، يكفي الجميع، حلَّى ماءها بنو إسماعيل بالزبيب والعسل للحجيج، فعرفوا بسقايتهم لهم، وعظم أمرهم في قلوب العرب.

ثم جاء نفر من آل يعرب قادمين من الساحل إلى مكة بموسم حج، وكان سيدهم يلقب بالسميدع، فمكثوا بجنوب الوادي عند جبل أجياد، وحفروا الأرض، وزرعوا فيها نخلًا فلم ينبت، فبنوا إسطبلات خيل وأنعام، وحين انقضى الموسم لم يغادروا، واستأذنوا المضاض أن يبقوا لعام مقبل حتى تربو أنعامهم فيتاجروا فيها، فأذن لهم على أن يأخذ العُشر منها، وجاء موسم عام مقبل فباعوا واشتروا وتكسبوا، وتكسب معهم مضاض، فلما طلبوا منه أن يبقيهم عامًا آخر فعل.

واستفحلت أعدادهم، وزاحمت بهائمهم بهائم جرهم في الشعاب، وتنافسوا على مواضع الماء، حتى وقعت الشحناء بين أبنائهم، وبين أبناء جرهم، واشتكى كثيرون إلى مضاض وكان قد بدأ يشعر بالقلق من كثرة أعدادهم، وما امتلكوه، وطمع فيه، لكنهم كانوا قد أقاموا سنواتٍ طوالًا في مكة حتى غدوا حيًا منها، فجمع رجاله، وحمل سلاحه، وخرج في عزة من قومه وركبه حتى التقى الفريقان في أرض يقال لها قبيس، غير بعيدة عن الكعبة.

واقتتل مضاض ومن خلفه جرهم، وسميدع ومن ورائه قومه.

قُتل السميدع على يد مضاض، لكن خلقًا كثيرة من جرهم فَنَت أيضًا، فأراد مضاض أن يبقي على رجاله، وحرمة الحرم بعد أن شاع الذبح في رحابه، فأقام صلحًا مع آل سميدع نص على أن يبقوا بالجنوب ولا يخرجوا منه، وأن يتركوا أمر الحجيج كله لجرهم، ويعطوهم نصف أنعامهم، وألا يدخلوا أرض الحرم إلا بإذنه، وأن يكون لجرهم العُشر في كل تجارة لهم، فقبلوا.

وحدث أن تنبأت امرأة لمضاض أن خبيئة أخفتها العماليق مدفونة بجوار سور الكعبة تحت منازل آل إسماعيل أو قبور النبي وأمه، فصدقها لأنها وافقت حلمًا عجيبًا كان قد رآه لنور ذهبي يشع أسفل الكعبة، لكنه خاف أن يُكشف أمر الكنز فيقتسمه مع أولاد إسماعيل أو يخسره، فاستدعى حفيده نابتًا إلى داره، وأفسح له بساطًا، وبالغ في إكرامه، ثم حدثه عن قتال السميدع، وكثرة الحجيج، وازدحام مكة بأهلها، ورغبته في توسعة الحرم حول الكعبة،

وطلب منه أن يترك مكة وما حولها مع آله إلى ما حولها من شعاب.

- *«والله لا أحب أن أفعل يا جد».*

أجابه بهدوء، فرفع مضاض يده مقاطعًا، ووقف مغضبًا، ثم شد ذراع حفيده إلى نافذة مجلسه وقال وهو يشير إلى الكعبة:

- *«انظر!».*

ونظر نابت، سقط عليه شعاع الشمس مارًا بالزجاج الملون للنافذة فعلت وجهه مسحة قدسية بينما قال جده:

- *«هذه مكة، وادي جدي القديم، وهذه الكعبة، أقدس ما فيها، وها هو الحجيج الذي جلبه جدك إبراهيم إلى هنا، أترى الزحام؟*

انظر إلى الطائفين! يكادون أن يلتحموا بخيامكم يا ولد إسماعيل..

كما أني لا أكاد أرى الكعبة بسبب منازلكم تلك».

التفت إليه نابت، وكاد يجيبه لكنه تابع في نفاد صبر:

- *«الخير موجود خارج الجبال كما هو موجود في الوادي، ألا ترعون أغنامكم هناك كل صباح؟ اخرجوا وعمروا ما حول مكة».*

تأمل نابت جده صامتًا، رغم تقدم سنه لا يزال قويًا؛ شارب ضخم، ولحية تملأ صدره، أسنانه بيضاء سليمة، وذراعه متينة مستعدة للبطش دائمًا، وهو أعلم الناس بقدرته على أن يستل خنجره فيذبح من يخالفه.

- *«أمهلني حتى أشير على الناس».*

- *«ثلاثة أيام يا نابت.. أمامك ثلاثة أيام».*

- *«لا يا جدي! بل تمهلني حتى موسم الحج القادم، فيكون لنا رأي».*

- *«لا ورب الكعبة، ثلاثة أيام فقط».*

قالها مضاض وهو يتلمس مقبض خنجره.

وبدار إسماعيل القديمة تجادل الإخوة في أمر الخروج. كان نابت حريصًا على ألا يعادي جده، ومن ورائه جرهم، أما أخاه قيدار فكان خلافه، وكان شابًا وضيئًا، ذا شجاعة وإقدام، لا يفكر في العواقب، ويمضي في الحق دون تدبر، فقال لأخيه:

- *«لا والله لا نخرج، ولا تُهدم دورنا، ولا يطوف الناس على قبر أبي، وجدتي.*

ألم نسبق جرهم إلى هذا الوادي؟ ألم يدخلوا الوادي ليجدوا هاجر مع إسماعيل والماء يسيل تحت قدميه؟!».

أجابه نابت:

- *«نعم، قد سبقت هاجر جرهم إلى هنا، ونحن أصل هذه البلدة، لكن ليس لدينا عديد وسلاح جرهم، ولا مال سميدع، والناس تأتمر بأمر مضاض، فإن أمرهم، قاتلونا».*

أجابه قيدار منفعلًا:

- *«نقاتلهم إذًا، ليعلموا أي الفرق أشد بأسًا. لا يضرب بالنبال والسهم مثلك ومثلي!».*

ودخلت منشوس مستندة على ذراع زوجة ابنها نابت، وكانت رجلها اليمنى قد شُلت لما مات إسماعيل، فنظرت إلى قيدار لائمة، ثم إلى بكريها الذي خفض نظره احترامًا، وهو يقف لها.

- *«أتريد أن تقاتل جدك وعشيرتك يا قيدار؟».*

- *«دفعًا لظلمهم يا أمي».*

أجابها بصوت منخفض لكنه لا يزال مستعزا بغضب مكتوم، فقالت:

- *«لا يُدفع ظلم الأهل بالدم».*

- *«وإن بغوا علينا؟!».*

- *«وإن فعلوا».*

والتفتت إلى نابت، وقالت:

- *«أؤمر أهلك، وكل ولد إسماعيل أن يتجهزوا لمغادرة الوادي فجر باكر».*

هز ابنها رأسه مطيعًا، وعض قيدار على أسنانه وقد احمر وجهه انفعالًا كأنه على وشك البكاء، ونظرت منشوس إلى زوجة ابنها وهي تقول:

- *«قربيني من ولدي».*

- *«أيهم يا أم؟».*

- *«ذاك الغاضب».*

همست منشوس، فأعانتها المرأة حتى أجلستها أمام قيدار، نظرت في عينيه، كانت تحبهما منذ ولد فاتحًا إياهما كأنه يتفحص الأشياء من حوله، ولما سماه أباه قيدارًا نبض قلبها بجنون حبًا في الاسم، والرسم الذي حباه الله إياه لوجهه.

رفعت يدها وربتت على خده، وهمست:

- *«ما غلبونا يا قيدار إلا بعددهم، ولو كنا مثلهم عددًا وعدة، لما تجرأ أبي أن يطلب منا أن نغادر الوادي، ولكان أحرصنا على السلم والأمنة، فاخرج، وليكثرن الله في ذريتك حتى تكونوا أكثر العرب وخيرهم، وحينها نعود».*

هز الفتى رأسه لأمه متفهمًا والدمع يسيل على خديه..

وهكذا خرج أولاد إسماعيل وأحفاده من واديهم.

كان وصولهم إليه وخروجهم منه كحلم.

هاجر..

إسماعيل..

إعمار الوادي، وعودة إبراهيم، وبناء الكعبة.

أين كان الله قريبًا من أرض مباركة كما اقترب من هذه الأرض؟

يتجرع ذكرياته أولاد أنبيائه الآن في مسيرهم نحو الجبل.

وعلى ظهر ناقتها يهتز جسد منشوس مع اهتزاز هودجها وإلى جوارها صندوق سكينة.

نامت جالسة، بكت، وهي نائمة، وهمست: «آه يا إسماعيل».

ومثلها بكى كل أولاده في القافلة.

حتى الأطفال..

تلفتوا خلفهم، ينظرون البناء العبقري والوادي وهو يبتعد.

ولا يزال صوت إسماعيل في أذن قيدار وهو يحكي له قصة بنائه، يقول له:

- *«وقال الله لأبي، قم وابن لي بيتًا».*

- *«الله في داخل الكعبة يا أبي!».*

يتبسم إسماعيل ويحتضن صغيره قائلًا:

- *«الله أعلى من كل شيء يا قيدار».*

«والله لأعودن»، همس قيدار وهو ينظر إلى الكعبة للمرة الأخيرة.

ولم ينس وصية أمه من بعد، فأكثر من الزواج كما لم يفعل أحد قبله، وأنجب ذرية كثيرة، علم رجالها ونساءها فنون القتال منذ نعومة أظافرهم.

أما مضاض فقد عمد إلى منازل آل إسماعيل فاقتلع كل أثر لهم من حول الكعبة، وحفر بالموضع الذي أخبرته المرأة به وهو يتحاشى النظر إلى قبر النبي وأمه، فاستخرج الكنز!

بكى وهو يغمر يديه في قطع الذهب المختلطة بأحجار الكهرمان، واللؤلؤ، والياقوت الأحمر والأزرق والأصفر، والزمرد، وعرف أنه سيسود العرب قاطبة بكل هذا المال، وقد فعل.

لكن جشعه ازداد بعدما وجد الخبيئة، فجعل يأخذ المال من الزائرين للكعبة من غير جرهم قائلًا أنه لإعمارها ثم استعمله في بناء قصر لنفسه مشرفًا على الكعبة.

وجعل عليها أستارًا يمانية.

وتزوج النساء على كبر منه، لكنه لم ينجب.

وأورث تعظيم الكعبة لجرهم، فصدوا عنها كل أذى، وبالغوا في كسوتها، وجعلوا لها حرمة كحرمة آل بيتهم أو أعظم، تبعتهم في ذلك كل العرب.

ولم يدخل قيدار مكة ثانية حتى مات مُخلفًا من بعده حلم العودة في الأبناء والأحفاد من بني إسماعيل حتى وصل إلى عدنان، وكان عدنان هذا ذا موهبة في استعمال الخشب وحفره، فصنع منه الأسلحة والدروع والأواني، وهو من حفر صندوق سكينة بالنقوش الوردية، وطعمه بالحجر الدموي فأصبح آية متفردة ومأثرة تتوارثها الأجيال، كما أنه من وضع الرقعة الأولى بين طبقتين من زجاج حفظًا لها، وأورث الصندوق من بعد لابنه معد، وأورثه معد لنزار الذي أورثه لحفيده إلياس، حتى وصل إلى كنانة.

وتتابعت كذلك أجيال جرهم على الكعبة، خف بريق قصص إسماعيل وأمه وأبيه، وانمحى أثرهم من الوادي حتى نسي الناس موضع قبرهم، واستأنسوا بطيب العيش والأمن فعمدوا إلى الدعة والخلاعة، وغاب الله عن أحاديثهم، أو كاد، وفشى الربا، وطغى القوي على الضعيف، وتفاخر الناس بالدور وما فيها من كنوز، وأخلفوا وصايا النبي واحدة بعد أخرى، وامتنع جلهم عن الحج والصلاة، ولم يعد الله يُشكر على مطر أو لحم أو خير ينزل بالوادي.

وكان من عجيب أمرهم أن أحب رجل اسمه إساف، امرأة يقال لها نائلة، وكانا ذا حسب وجمال في جرهم، وانتشرت قصة حبهما في مكة كلها مضربًا للمثل في العشق والمتعة،

وطلبت نائلة من إساف أن تجمعهما الكعبة فتكون شاهدة على عشقهما المقدس، فدخلاها بليل، وفيها قَبلَها، ثم أراد أن يحتضنها فوجد أن جسده لا يتحرك..

ودخل حارس الكعبة عليهما صباحًا فوجد حجرين على شاكلتهما لا يزال الدمع يسيل من أعينهما، فخر فزعًا وهو يصرخ!

وحُمل الصنمان خارج الكعبة، وخواء وحشي يصدر منهما.

وكان كلما حذر العرب جرهم من بغيهم في الحرم قالوا: «اذكروا فعل الله بإساف ونائلة».

حتى جاء أمر الله..

وكانت بداية أمره نبوءة..

تنبأت فيها كاهنة باليمن، وكانت من أحفاد حمير، بأن سد مأرب سينهار، وكانت السيادة حينها لقبيلة من سبأ يقال لها خزاعة، يسيدهم عمرو بن عامر الذي وصلته النبوءة ثم تواترت عليه رؤى من رجال ونساء عن الانهيار المميت، فخرج في جيشه، ومعه كل أهله، وإبله وخيله وماشيته ومتاعه وسلاحه، ومن والاه من القبائل على الطاعة، سائرًا إلى مكة برحلة شتوية، وكان قد شهد خيرها أيام حجه.

استقر خارجها ولم يدخلها، وأرسل برسله إلى جرهم مستأذنًا في الدخول فأبوا، فدخلها عنوة بقتال.

وذُبح من جرهم كما لم يذبح من قبل.

جُل رجالها فني.

وسُبيت النساء، والأطفال.

وساد عمرو بن عامر الخزاعي على مكة، وسكن مساكن جرهم وقصورها، وتابع خدمة الحجيج بعدهم.

ونفى ما بقي منهم خارجها آمرًا أهله من خزاعة: «من وجد منكم جرهميًا قد قارب الحرم، فدمه هدر».

فكان هذا آخر عهد جرهم بالحرم، حتى الحج لم يستطيعوا أن يؤدوه.

ثم سمح لأبناء إسماعيل أن يدخلوا مكة..

فعادوا إليها للمرة الأولى منذ خروجهم البعيد، لكنهم لم يتسيدوها..

حتى جاء الرجل الذي تجسد فيه حلم قيدار..

وكان اسمه قصي..

في البدء ظن أهله أن الله قد فضله على غيره من الرجال بأن حباه قدرة على معرفة مواضع الماء وحفر الآبار عندها..

لكنهم أيقنوا فيما بعد، أنه كان معجزة كاملة!

***

مست فاطمة خد ابنها وهي تنظر إلى وجهه القسيم.

هذا الرسم المعجز الذي حبته الآلهة به..

أنفه الدقيق القوي، وشعره الغزير يتداخل فيه الأسود والبني ويطول حتى يصل إلى كتفيه، لحيته عظيمة لكنها دقيقة موحية بنبل أصيل..

همست بصوت متهدج:

- «*كيف تتركني؟ ألا يرق قلبك؟*».

ابتسم الفتى، وربت على يد أمه وهو ينزلها عن خده ويجيبها ناظرًا إلى عينيها:

- «*بلى يا أم. يحن قلبي إليك، لكن ما نفع الرجل إن بقي إلى جوار أمه في غير أهله*».

- «*أنا أهلك يا قصي*».

- «*لا، أنت أهل زوجك*».

- «*هو أبوك*».

- «*تعلمين أنه ليس كذلك*».

- «*ألم يربك منذ خرجت بك رضيعًا من جوار مكة؟*».

- «*لست ابن ربيعة، ولست من قضاعة، إنما أبي رجل من قريش، واسمه كلاب، وسأظل ابنه ولو كان مات قبل أن يراني*».

أفلتت دموع فاطمة، ربت على كتفها، وتوقف وهو يلف عباءة صوفية ثقيلة حول نفسه، فقالت مترجية:

- «*ابق حتى ينقضي الشتاء.. ستهلك في هذه الرحلة*».

- *«لن أبقى».*

وانصرف خارجًا دون أن ينظر لها، عض شفتيه وهو يسمع توسلاتها خلفه، وصرف نظره عن الناس من قبيلة قضاعة وقد وقف بعضهم ينظر إليه بفضول وهو يسير إلى فرسه..

انشغل عنهم بالنظر إلى الحصى الذي يدعسه في طريقه حتى ارتطم بجسد متين فرفع رأسه ينظر إليه ليرى أخاه من أمه «رزاحًا»..

تأمله أخاه الاكبر، وبادله قصي النظر..

رزاح بن ربيعة القضاعي..

أخوه الذي أحبه منذ رجع أبوه ربيعة من رحلة حجه متزوجًا بفاطمة، الأرملة التي جاءت منازلهم بجنوب الشام تحمل رضيعها الذي مات أبوه منذ أشهر.

لم يكن قصي هو ولد فاطمة الأوحد من زوجها الأول كلاب بن مرة بن كعب القرشي، إنما كان له أخ آخر أكبر منه هو زهرة، لكن زوجها الجديد ربيعة رفض أن يأخذه معه فتركته عند أخواله بخيامهم خارج مكة.

من لقائهما الأول، أحب رزاح قصيًا، حمله عن أمه، ومرت سنوات أصبح فيها رفيقه في كل مكان يذهب إليه، ولما كان رزاح كارهًا للهو والأسمار، فقد كان يقضي الساعات مع قصي في التسابق بالخيل، وبسببه أصبح قصي خير فرسان قضاعة، وعلمه أنساب العرب، وحكى له عن أيامهم، وتقاتل معه بالسيوف الخشبية، ثم تقاتلوا بسيوف يمانية، ورموا بالسهام والنبال..

- *«عزمت على المسير؟».*

سأل رزاح قصيًا، فهز الأخير رأسه.

تنهد رزاح، حاول أن يداري تأثره بابتسامة مشجعة.

- *«معك زاد يكفيك؟».*

- *«دبرت للأمر جيدًا كما علمتني».*

- *«وحصانك؟».*

- *«الحمراء».*

- *«أنعم بها من ركوبة، والماء؟».*

- «وهل يخاف مثلي من ندرة الماء يا رزاح؟».

ابتسم رزاح لأخيه، التفت ينظر إلى حمولته فلما اطمأن أنه تسلح جيدًا هز رأسه له، ومن دون كلمة أخرى شده محتضنًا إياه.

دمع قصي، وهو يدفن نفسه في صدر أخيه.

ثم دفعه مترفقًا، وانطلق إلى الحمراء.

غطاها ببردة ثقيلة اتقاء للبرد.

ومن دون أن ينظر خلفه مرة ثانية خرج إلى مكة تاركًا بادية الشام خلفه.

والحق أن قصيًا لم يكن يومًا يتخيل أنه سيترك منازل قضاعة بالبادية مهاجرًا إلى مكة.

ظن نفسه قضاعيًا بالمولد، ظن أن ربيعة القضاعي أبوه كما علمته أمه وهو صغير.

كل قضاعة خبأت عنه حقيقة مولده من أبٍ قرشي اسمه كلاب من غالب بن فهر.

لم يعرف بالأمر إلا لما أراد الزواج من فتاة من خير بيوت قضاعة، فرفضه أهلها، وهو ما فاجأه! مَن مِن شباب قضاعة خيرٌ منه؟!

ألم يكن من استنبط موضع البئر للقبيلة فلما حفروا بما أشار به وجدوا الماء ينبع منها؟

ألم يكن من فرسانها؟ مقاتل لا يشق له غبار!

من مثله يرمي بالسهم فلا يخطئ، ويركب الخيل فلا يدركه أحد؟

لكنه عرف السبب حين قال له رجل من قضاعة، «ألا تلحق بنسبك، وقومك فتتزوج منهم! فإنك لست منا».

هنا بدأ يبحث عن الحقيقة.. فلما عرفها، لم يصبر أن يبقى وسط قضاعة، لم يستطع أن ينظر في وجوههم، وعرف ألا بقاء له في هذه الديار فانطلق إلى أهله بالحجاز.

***

لم تكن طريقه سهلة، لكنه لا يعد نفسه في مصاف السهل من الرجال.

ومثله كانت فرسه، الحمراء، فلم تعبأ لبرك الماء بأيام المطر، ولا بالبَرَد الذي غطى الأرض برداء أبيض هش خاضته الفرس دون خوف.

أشعل النيران بالليل للتدفئة، استظل بمغارات منسية بالجبال دخلها متحسسًا مواضع

الحيات والعقارب فيها. وصله صوت الوحش من الحيوان ليلًا، أهونها عليه عواء الذئاب والكلاب البرية، وأخطرها زئير الأسود الجائعة. ينام ولا يربط الحمراء، ويستيقظ إذا صهلت فيعرف أن في الأمر خطر، فيواجه أو يفر.

برحلته تلك كانت المرة الأولى التي يصطاد فيها أسدًا، ضربه بعدة سهام نافذة حتى سقط غير بعيد عنه. جز عنه فروته، تظفها وجففها، وتركها تحت الشمس أيامًا، ثم جعلها عباءة خلف ظهره.

أدهشه عديد كنانة! القبيلة الأم لقريش، أبناؤها متفرقون في كل مكان، وكأنهم العالم كله، معمرين الجبال، ومواضع المطر، والواحات، والبوادي، وأطراف المدن في الطريق الواصل بين الشام ومكة!

تتنوع أشكالهم، وطرائق عيشهم، بل وعاداتهم، بين بدو أجلاف، وأنصاف بدو، وأهل حضر، لا يجمعهم جميعًا إلا القصة القديمة لبداياتهم العدنانية وما قبلها من مجيء إسماعيل، الجد الأكبر من مصر إلى مكة.

اقترب منهم بأن قبل ضيافة بعضهم أيامًا، وأعان آخرين على سباعٍ تهدد بهائمهم، وحفر بئرًا لأحدهم وكان من أعاظم كنانة والعرب قاطبة واسمه يعمر بن كعب بن ليث، فاستعظمه، وأكرم منزله عنده حتى غادره قصي محملًا بالهبات مقترنًا من منازل أهله من لؤي بن غالب الذين ينتمي لهم أبوه.

كانوا أقرب قريش إلى مكة..

لما وصل قصي حيهم، نزل من على فرسه، ملتحفًا بردائه الأسدي..

سار بين الخيام التي تهزها الريح بعنف..

لا تستقر لهم نار، أعين أطفالهم محمرة من فعل الرماد الذي تحمله الريح، وكثير منهم قد بلي ثوبه، أو تقطع مركوبه..

تجاهل أصوات الداعين إياه إلى الطعام والمبيت أو التزود بالزاد..

صدمته مشاهد الفقر والعوز.. والكرم رغم ذلك.

بحث بعينيه عن بئر، لم يرَ واحدةً، ودق قلبه بعنف كما يحدث له كل مرة يكون الماء تحت الأرض عند قدميه أو قريبًا من ذلك.

سأل عن منزل أخيه، زهرة بن كلاب، فدلوه عليه..

سار إليه فلم يجد خيمة..

فقط كهف في أسفل أحد جبال مكة، وأمامه مصطبة حجرية..

وقف أمامه ونادى على أخيه، فسمع صوته يجيبه من الداخل، ودق قلبه بقوة وهو ينظر مترقبًا.

***

أخرج زهرة زوجه وعياله من كهفه إلى حميه، واستبقى أخاه قصيًا مستأنسًا بصحبته.

ذهبا في رحلات صيد معًا، فعادا بخير وفير وزعه قصي على الحي كله، فطعم الناس واستبشروا بعودته.

وسهرا الليالي..

حكى زهرة عن أبيهم، وعن آل لؤي بن غالب أهل هذا الحي..

وحمل إليه الصندوق القديم، مأثرة قريش، وضعه أمامه وجلس قائلًا:

- «*لما وزعت تركة أبي لم يُرد عمُنا أن يعطي نصيبك لأمك وقد تزوجت بغير أبيك، فاستبقيناه لك*».

قال قصي وهو يتفحص الصندوق دون أن يمسه:

- «*ما فيه؟*».

- «*لم أفتحه*».

- «*ولم تركته لي؟*».

- «*انتفعت بالغنم والخيل، ولم أجد ما أتركه لك دون أن يَمَس سواه*».

اقترب قصي من الصندوق، انكب على قفله يفتحه، فلما لم يستجب له خلعه من على الصندوق محدثًا شقًا دقيقًا في الخشب ثم فتحه وصمت وهو ينظر إلى الرقاع داخله..

- «*أقارئ أنت؟*».

سأل أخاه فهز زهرة رأسه نافيًا وقال:

- «*لا يوجد في الحي كله من يستطيع القراءة*».

- «*فهمت*».

قال قصي وهو يغلق الصندوق، ثم رفع عينيه ونظر إلى أخيه وقال:

- «أما ما كان من أخذك البهائم وتركك هذا لي فإنه لا يحِل لك، لكني مسامح إياك فيه».

- «هم عندك يا قصي، خذ منهم ما تريد».

- «لا عليك».

أجابه قصي، قبل أن يقول:

- «في طريقي إلى هنا كانت كنانة تغطي كل الطريق من بادية الشام إلى تخوم مكة».

- «ليست كل كنانة قريشًا، إنما قريش من ولد فهر بن مالك فمن كان من غيره فليس قرشيًا».

- «ألسنا كلنا من كنانة؟».

- «بلى، لكن الأحياء تقاتلت فحصل بينهم الشقاق».

- «نعم».

قال قصي سارحًا، ثم سأل:

- «من أين تستقون؟».

- «من بعض آبار مكة».

- «ماؤها عذب؟».

- «بل عكِر، الآبار الجيدة لخزاعة وحدها».

- «غدًا نحفر بئرًا هنا».

- «تقصد أن هناك ماء تحتنا؟».

أومأ قصي وهو يمدد جسده على أرضية الكهف الصخرية، وأضاف هامسًا يكلم نفسه:

- «كأن قريشًا أكبر من قضاعة، لكنهم متفرقون».

وفي الصباح التالي، أمام أعين أهل حي غالب مشى يتحسس الأرض تحته بحثًا عن العلامات حتى لمس تربة صلبة ذات أحجار فدق قلبه بانفعال جارف وأغلق عينيه فسمع بعيني خياله صوت الماء يترقرق في الأسفل على مسافة بعيدة.. استغرق في خيالاته حتى تعرق جبينه ثم رفع رأسه إلى الناس من حوله وقال لزهرة:

- *«نحفر هنا»*.

فسأله رجل:

- *«الله أخبرك بأمر ذلك الماء!»*.

- *«لا»*.

- *«فمن إذًا؟»*.

- *«نفسي»*.

وبدأ الحفر، اجتمع فيه رجال وعيال، حطموا الصخر وحفروا التربة وحملوا التراب والحجر المكسور وبطنوا جوف بئرهم.

ثلاثة أيام من الحفر المتواصل ولا نتيجة، بغالب الأحوال كان الماء يظهر في اليوم الأول أو الثاني فما بال هذه البئر؟!

بدأ الأمل يخبو، وانقطع رجال عن الحفر في اليوم الرابع..

ظن الناس بقصي سوءًا، وتهامس بعضهم بكذبه.

وأرق فلم ينم بتلك الليلة..

وفي اليوم الخامس واصل الحفر مع زهرة واثنين من أبناء عمومته..

ولم يخرج الماء..

ولم ينم ليلة ثانية..

لكنه خرج من الكهف قبل الفجر..

رفع عينيه إلى السماء الواسعة، سطعت نجومها فشعر كأنها توحي إليه بأشياء لا يفهمها، لكنه وبشكل ما استشعر الله عظيمًا في نفسه، فوجد لسانه يهمس:

- *«أرجوك أعني، ولا تخزني أمام قومي»*.

ومشى إلى بئره، فانطلق يحفر وحده في الظلام.

ومع الفجر، وهو في جوف الحفرة العميقة، عاريًا إلا من إزار قصير، ضرب بفأسه فوجدها تنغمس في تربة دقيقة ثم مس ماءً بارد قدميه فاستقام وانفجرت عينيه بدمع حار وخفض رأسه منكسرًا تحت وطأة شعور طاغ بأن الله قد سمع له واستجاب.

وفي الصباح غدا أهم رجل في الحي كله، ونما خبره إلى ما جاوره من أحياء، وكان ماء بئره أنقى ماء تحصلت عليه قريش من خارج مكة، حتى دعاه حليل بن حبشية زعيم خزاعة إلى لقائه بداره المشرفة على وادي بكة، فدخل قصي الوادي للمرة الأولى منذ وصوله.

***

منذ اللحظة الأولى التي رأى فيها قصي الكعبة، نمت بينهما علاقة وكأنهما قد غدوًا شيئًا واحدًا.

عرف أن من ملكها فقد ملك العرب جميعًا..

وانبهر من أن البناء البسيط غير المزخرف قد يحمل كل هذه العظمة، ويقدر على أن يجعلها تجري في عروق الرجال، لأنه منذ مسها بيده شعر أنه أصبح قصيًا جديدًا..

جالس حليلًا فاستأنس له الرجل، وطفق يسأله عن أخبار عرب الشام، ورحلته من هناك إلى هنا، ثم سأله عن البئر وكيف استنبط موضعها.

- «*هنا، قريبًا من الكعبة، كانت بئر عظيمة، قيل أن ماءها غير محدود، فيه شفاء، كانت لإسماعيل وأمه*».

قال حليل، فسأله قصي:

- «*ما حل بها؟*».

- «*طمرتها جرهم قبل فنائهم كي لا تستعملها خزاعة من بعد*».

أجابه حليل.

وتوطدت العلاقة بين الرجلين، أشار عليه بأن يتجر مع قضاعة بالشام فأجابه إلى ذلك، فخرج قصي في عير لحليل برحلة شامية رجع منها بربح وافر، لم تكن العرب قد ألفت مثله، فقربه ذلك أكثر إلى زعيم خزاعة حتى أصبح موضع سره ومستشاره.

وبليلة قمرية جالسه على مصطبة مشرفة على الوادي، فقال له حليل:

- «*قد علمت ما كان بيني وبينك يا قصي، وهو مثل ما يكون بين الأب وابنه، لكنك تعلم أني أبتر*».

أجابه قصي:

- «*بارك الله في بناتك.. ولعلك ترزق بالولد*».

- *«قد رُزقت به منذ قربتك»*.

هز قصي رأسه وأطرق للأرض صامتًا، فنظر إليه حليل وقال بصوت كالهمس:

- *«ألا تتزوج ابنتي؟»*.

رفع الشاب إليه رأسه ونبضات قلبه تتسارع بينما يستشعر دفئًا مطمئنًا في صدره، وقال دون تردد:

- *«أفعل»*.

- *«تريد أن تراها؟»*.

- *«لن يغير ذلك في الأمر شيئًا»*.

هز حليل رأسه راضيًا، ثم قال:

- *«لم أكن لأزوجها لرجل من غير خزاعة، لكني لم أعرف رجلًا خيرًا منك»*.

وسكت قليلًا، ثم أضاف:

- *«وقد حدثتني فيك»*.

- *«ما اسمها؟»*.

- *«حُبَّى»*.

أومأ قصي وهو يلتفت من جديد إلى الكعبة، وآمال عظام تتصارع في نفسه.

ولما أخبر أخاه زهرة كاد الأخير يجن من الفرح، وهمس كالحالم:

- *«تخيل يا قصي أن تجتمع قريش وخزاعة في حي واحد أنت صلبه!»*.

سكت قصي وإن كان كلام أخيه قد وافق بعض ما في نفسه.

كان دخول قصي على حبى بعد ذلك اللقاء بفترة وجيزة.

لم تكن شديدة الجمال، لكن حسن خلقها وعشرتها الحلوة جعلت قصيًا يهنأ بقربها، فهدأت نفسه وكانت له نفس شديدة القلق.

واجتهد في أن يجعل لها مهرًا يليق بابنة كبير خزاعة، فكان مما جعل فيه، إرثه من أبيه، صندوقه المبهر الذي أضاف إلى رقاعه سوارًا ذهبيًا مزينًا بعقيق أصفر، فكانت حبى أحرص منه على ذلك الصندوق ورقاعه، فهي من أصلح قفله، ومن رمم الجزء الذي كسره قصي حين

فته عنوة، وهي من رمم الرقاع القديمة دون أن تعرف أن بعضها قد نُقش عليه بعض وصايا إسماعيل للعرب، ومنها أن يتعلموا القراءة والكتابة، وهي الوصية التي اندثرت فيما اندثر من أثره وأعماله، فكان وادي مكة وجباله وما حوله لا يحوي أكثر من رجل أو اثنين أجادا الكتابة.

ورزق قصي منها بابنه البكري عبد الدار، أتبعه عبد مناف ثم عبد قصي وعبد العزى، فارتاح لأن حلمه بأن يكون من صلبه رجالٌ يعلو حسبهم فوق جميع العرب قد تم، أو كاد، ووهن حليل وكان قد بلغ من عمره أرذله، فعهد إلى قصي بكثير من أعماله، فكان المسؤول عن تجارته بالوادي وما حوله، وأرضه وأنعامه.

ولم يبخل قصي بإظهار شرفه، ففوق حسن خلقته، وقوة بنيانه، كانت ثيابه آية، خيطت من أقمشة شامية، وكان يغطي رأسه بالعمائم أحيانًا، ويرتدي العباءة الأسدية أحيانًا مذكرًا الناس أنه الفهري القرشي قاتل الأسود وصائد الوحوش الذي لا يمكن أن يدعي رجلٌ أنه أقوى منه، فساد على سائر خزاعة بالوادي، ولم ينس أهله من بره بل بالغ في إكرام كل بني غالب بن فهر ما استطاع.

ثم أشرف على أعمال السقاية بمواسم الحج وإن ظلت سدانة الكعبة في عهدة حليل نفسه، لا يقوم بها إلا هو.

وبهدوء يكاد يكون غير محسوس أدخل بعض أهله من آل غالب إلى مكة المكرمة، وسمح لبعضهم أن تكون خيامهم قريبة من الوادي وإن لم تصل لقرب خيام خزاعة منه، وكان أولهم أخاه زهرة.

ولما اشتد مرض حليل طلب ابنته وزوجها وعيالها، وأعطاها مفتاح الكعبة عاهدًا إليها بغسلها قبل موسم الحج، وهو شرف لم يعطه لأحد منذ تولى، فوقفت حبى وإلى جوارها قصي يسمعان وصايا الأب عن غسل الكعبة..

أوصاهم أن يبدأوا من المركز إلى ما حوله، الكعبة من داخلها، تغسل أرضيتها، ثم تمسح، ثم تعطر، ومن بعدها الجدران الداخلية، تمسح بالأقمشة اليمانية الجديدة الجافة، ثم بأقمشة مغموسة في العود، ثم يُشعَل البخور، فتعطر به كل أركان الكعبة، بعدها يغلق الباب فلا يفتح إلا حين يدخلها رؤساء قبائل العرب بالموسم.

أما الجدران الخارجية فتمسح، تنظف من كل وسخ قد أصابها، تُرتق كسوتها ثم تمسح بالطيب.

فلما انتهى أبوها من وصيته، التفتت حبى إلى زوجها وسألته:

- *«أوعيت وصية أبي؟»*.

أومأ بنعم، فمدت يديها له بالمفتاح الثقيل وقالت:

- *«أقمها، لا ترى العرب خيرًا منك يفعلها»*.

وتحت أعين خزاعة خرج قصي من دار حليل يحمل المفتاح بين يديه تتبعه زوجه، ومن خلفهم أبناؤهما يحملون ماء الغسل والطيب والقماش والعود.

وإذ رفع عينيه إلى الكعبة شعر بها تنظر إليه، كأنها تنتظره.

تكبر كلما اقترب، وتشتد عظمتها في نفسه، وتهمس له:

«تعال.. انظر إلى بناء أجدادك!».

صعد ثلاث درجات..

سمع صوت زوجته تتلو الصلوات..

همس الناس من خلفهم يتناقلون الخبر الغريب! هذه امرأة تنظف الكعبة، ومعها رجل قرشي!

تجاهلهم، نعم، لا يرى الله رجلًا خيرًا مني يغسل بيته، رفع المفتاح، أدخله في مجراه، وأداره فاختفى كل صوت آخر..

وانفتحت له الكعبة..

تسارعت أنفاسه، وضع راحته على جانب بابها فوجده باردًا، وفي الداخل سبح غبار قدسي في أشعة الشمس الداخلة من الباب كأنها أجرام سماوية في أفلاكها، ووقفت الأعمدة منتصبة، وتحتها يلمع الذهب مما وُجد من كنوز العماليق، وهدايا العرب وقرابينهم.

واشتمت حبى رائحة عطرية رقيقة ذكرتها برائحة وجدتها بالمرة الأولى التي فتحت فيها صندوق مهرها الذي أهداه قصي لها.

مسحوا الجدران الأربعة من الداخل بالقماش المعطر.

غسلوا الأرضية، لمعوا الذهب، جعلوا العود على الأركان والأعمدة..

خاطت حبى بضعة مواضع ممزقة بالكسوة، وأجرى قصي الماء النظيف على السلم.

بذلك العام أشرف بنفسه على الحج، وكان حليل محمومًا فلم يخرج من داره.

وتقاطر العرب من كل أنحاء جزيرة العرب، ومن اليمن وحضر موت، عُمان وجزر الشرق، وكل الحجاز صعودًا إلى بادية الشام وجنوب العراق، ومن الأودية حيث عاش يعرب وخالد وسهول عاد القديمة، وأراضي الأنباط الواسعة التي كانت يومًا أرضًا لثمود وممالك كندة والطائف.

كانت عشرات القبائل بالوادي؛ قريش وخزاعة، كنانة وبنو ليث وعقيل، ثقيف وخثعم، وباهلة ومذحج وهوازن وهلال وجديلة، والأوس والخزرج. الأحباش العرب وبنو عذرة، غطفان وجهينة وأشجع، قضاعة وبنو شيبان، وسبأ وحمير وقحطان، وبنو كندة، وبنو تميم.

وهنأ العرب بحج ذلك العام، إذ وفر فيه الطعام والشراب والخيام المعدة لاستقبالهم، فحمد قصي على ذلك.

ثم هلك حليل مع انصرام الموسم، بعد أن أمَّر قصيًا على الناس بوصية قبل موته.

ولم ينم قصي تلك الليلة، داهمته كوابيس متتابعة، وكذلك زوجه، واستشعرا شرًا لم يفهما سببه! وفي صباح اليوم التالي ارتدى خير عباءة، وتقطر من طيب يمني، ومس صنمه الأقيصر يسأله البركة والنصرة.

ثم فتح باب داره فوجد أشراف خزاعة عنده، متقلدين سيوفهم كأنهم إلى قتال، فانتصب في وقفته وحياهم:

- *«عمتم صباحًا»*.

فخرج إليه شيخ منهم، وقال كاشفًا عن أسنان صفراء معوجة، قد سقط أكثرها:

- *«لا صبح لك»*.

- *«ما به؟!»*.

سأل قصي ثم انفعل غضبًا وهو يبصر رجالًا من أسافل خزاعة يخرجون أخاه زهرة وغيره من قريش من خيامهم، يرمون متاعهم، ويسرقون خيلهم، بينما صاح كهل آخر كان من أصحاب حليل:

- *«يا قصي، هذه خزاعة كلها خرجت لتأخذ منك مفتاح الكعبة، وسدانتها، وأعمال حجيجها، فالحق بنسبك وقومك فإنك لست منا»*.

شلّه القول! مد يده إلى مقبض سيفه فلم يجده وتذكر أنه لم يتقلده.. أبصر جموع العرب الذين لم يرجعوا بلدانهم بعد يشهدون الموقف من بعيد بصمت.

ومن داخل داره سمع زوجه تصيح فيهم:

- «*أهذه وصية أبي! بئس الأهل أنتم!*».

تجاهلها الشيخ وقال:

- «*اخرج اليوم بأهلك من مكة، ولا نراك فيها مرة أخرى*».

فأجابه قصي دون تفكير:

- «*تالله لن ترى مني بعد اليوم إلا ما تكره*».

قبل مغيب شمس ذلك اليوم، انطلق قصي بزوجه وعياله إلى بادية الشام. أرسل ابنه عبد الدار إلى أخيه رزاح يعلمه بقدومه قبل أن يصل، فلما دخل حي قضاعة كان أخوه واقفًا ينتظره.

نزل قصي من فرسه، شعر بأن وجهه يحترق وهو يرفع عينيه إلى أخيه. كانت أخبار صعوده في مكة قد انتشرت بين العرب، ولا بد أن أخبار سقوطه تنتشر الآن.

هز له رزاح رأسه وهو يخطو إليه وعلى وجهه ابتسامة منطفئة..

احتضنه وهو يربت على ظهره بيده قائلًا:

- «*حكى لي ابنك عبد الدار كل شيء، لا بأس عليك يا أخي*».

أغمض قصي عينيه، ترك نفسه بين ذراعي أخيه، وكاد يبكي أو فعل..

ثم أبعد نفسه، ورفع عينيه إلى وجه رزاح فرأى شعرات بيضًا قد غزت لحيته ومفارق شعره، فربت على كتفه وهو يقدم له عياله وزوجه.

- «*تبيت زوجك مع زوجي، ونبيت مع العيال بدار أخرى*».

أومأ قصي موافقًا، ثم سأل:

- «*أمي بدارها؟*».

انمحت ابتسامة رزاح، ترقرقت عيناه بدمع مكتوم، فرفع قصي عينيه إليه، وشهقت حبى.. رمش بدهشة وقد استوعب، ثم أطرق قليلًا وهمس:

- «*أرني قبرها*».

وصل إليه عند المغيب فجلس عنده.

وضع يده على الصخرة الصغيرة التي جُعلت فوق القبر تمييزًا، وقال ببطء:

- «*ليتك يا أمي رأيت أبنائي*».

وتلفت حوله فلم يرَ أحدًا، فاقترب أكثر، ومدد جسده على القبر وترك نفسه للبكاء وهو يقول بصوت متهدج:

- «*عسى ألا يكون موتك بسببي، فأكون ملعونًا أبد الدهر*».

لكن قصيًا حمّل نفسه موت أمه، وسيعيش حتى نهايته وأحلام حزينة تراوده يرى فيها أمه وهي تنظر له لائمة بينما يقبل يدها طالبًا الصفح.

بتلك الليلة جالس أخاه أمام نارٍ موقدة للتدفئة، وأمامهما صحن تمر وقدحا لبن. كان صامتًا وإن لمعت عيناه كعادته حين يفكر، فبادره رزاح يسأله:

- «*ألا تخبرني عما يدور بخلدك فأعينك عليه؟*».

سكت قصي وهو يلعب بنوى تمرٍ يهزه في قبضته، ويراقب عياله يتسابقون مع أبناء رزاح في الظلمة القمرية.

- «*لا تكتم عني يا أخي*».

قال رزاح مرتجيًا، فرمى قصي النوى في النار، ورفع عينيه إلى أخيه وهو يقول ببطء:

- «*أريد مكة*».

ابتسم رزاح لحظة، ظن أخاه يمزح، فلما نظر إليه لم يجد أثرًا للهو على وجهه، فوضع قدحه على الحصى، والتف بكل جسده إلى أخيه قائلًا:

- «*لا يصل مكة أحدٌ بسوء وخزاعة فيها*».

- «*لا أريد لها إلا الخير، أما خزاعة فأُخرجهم منها*».

- «*أنت تريد أن تصنع شيئًا لم تأت العرب بمثله من قبل*».

اتسعت عينا قصي عن آخرهما وهو يقول همسًا:

- «*حق ما تقول*».

حدق فيه أخوه لحظات طويلة، ثم ابتلع ماء حلقه، وصمت.

***

بدأ قصي بعياله، وبرزاح وعياله، ثم جمع حوله أناسا من قضاعة ارتضوا الخروج معه لقتال العرب فصنع حلفًا من رجال مقاتلة ضرب بهم أقرب عوائل قضاعة التي رفضت أن تسير معه أو تمده بالسلاح فغلبهم على أرضهم ومالهم.

إلى ذلك الوقت كان يصنع ما يألفه العرب من الغارة والسبي لكن الجديد كان ذهابه إلى سادة بني كنانة عارضًا عليهم التحالف والمسير إلى الحجاز دون أن يفصح عن نيته دخول مكة نفسها، فلما أبوا، قاتلهم كما قاتل من سبقهم، فسمع العرب ذبحه لبني بكر، وبني جرم، وبني رفاعة، ونهبه مالهم وأرضهم.

هنا تناقل الناس أخبار مسيره المقدس، سرعة الكر والفر الذي يقوم به رجاله، قدرته على قيادة جيشه، والمعجزات التي يصنعها مع أخيه رزاح. قالوا بأن العرب لم ترَ رجالًا يركبون الخيل مثلهم.

ودخلت العرب في حلفه جماعات وفرادى، طمعًا في الأرض أو رغبة في الحماية، أو خوفًا من بطشه.

كما أنه فتح الباب لأحباش العرب، هؤلاء الذين كانوا مشردين بين الجبال والأودية بعد أن أخرجوا من قبائلهم، فأصبحوا بدوًا رحالة، أمنهم قصي، ووعدهم إن انضموا لجنده بأن يجعل لهم نصيبًا من الأرض والمال، ففعل أكثرهم.

وهكذا واصل طريقه من الشمال إلى الجنوب، كسيل نهر لا يمكن إيقافه، وتابعته حبى التي رافقته في رحلته العربية تلك وهو يتغير عن الرجل الذي عرفته من قبل..

كان الدم قد صار عنده هينا وإن كان يفضل الصلح، وفي عينيه نظرة رجل قد استولى عليه حلمه حتى أذهله عن نفسه، فكان لا يتكلم إلا قليلًا، ولا يأكل إلا إن ذكرته، ويصوم الأيام الطوال كلما أعمل الذبح كأنه يعاقب نفسه، ولا تنقضي ليلة إلا وقد جالس رؤساء القبائل، وراجع الخطط معهم.

وفي ليلة تمدد إلى جوارها فسمعت صوت طقطقة مفاصله، مست خده واقتربت منه تقبله بإشفاق أم، فأغمض عينيه وقال:

- *«ما أسرع ما يمضي الوقت يا حبى!»*.

- *«نعم»*.

همست وهي تسحب يده إلى يدها فعاد يقول:

- *«كلما نظرت في وجه أخي رزاح أرى الشيب فأحزن وأسأل نفسي، متى مر كل هذا*

العمر؟! كنا نلهو بوادي ربيعة وكأنه كان بالأمس».

ابتسمت المرأة وقبلت جبينه وهي تقول:

- *«أنت غير الرجال يا قصي.. لعلك لن تشيب أبدًا».*

ابتسم لها وهو يدمدم:

- *«ليته يكون كذلك يا حبى، لكن الزمن لا يبقي أحدًا».*

ثم سكت لحظات، وأضاف:

- *«كأن الزمن هو الله».*

وتتابعت غزوات قصي، فكان إما التحالف معه والدخول في جيشه وإما قتاله، وغلب بطون عذرة وأخرجها من أرضها، وكانت أقرب الأرض إلى جبال مكة، وهنا التحم ببني غالب من قومه الذين بايعوه وأولهم زهرة، فأصبح كل ما حول الوادي ملكًا لقصي وخلفه من قريش وقضاعة، وأصبح إعداده لغزو مكة معلومًا للجميع حتى خزاعة.

وكان موسم الحج قريبًا، فعلمت العرب أنه لن يكون هناك قتال قبله، وعله يكون هناك صلح حين يقدم أكابر العرب للحج فيصلحون بين الحيين. فلما كان يوم الحج الأكبر، دخل قصي مكة غازيًا من جبال خندمة وأبي قيس، وخرجت خزاعة عن بكرة أبيها تدافع عن الوادي، فتقاتلوا، ولم يقتصد قصي في الذبح والتنكيل وكذا فعل من معه من قومه، وفني خلق عظيم من خزاعة، فتجمع رجالهم يريدون قتل قصي عالمين أن هلاكه موهنٌ لرجاله، فامتنع قصي عنهم بمن أحاط به من خاصة قومه، فدافعوهم حتى انخذلوا، ورزاح عند أخيه لا يبارحه مثل ظله وأقرب، ضاربًا بسيفه كل من حاول أن يقترب منه، حتى أن سيفين انكسرا في يده.

ولما انخذلت خزاعة ووهنوا، رفعوا راياتهم طالبين التحكيم فأجابهم قصي إليه، وكان من اختاروه ليحكم بينهم هو يعمر بن ليث بن بكر، عظيم كنانة، ولم يكونوا يعرفون بما كان بينه وبين قصي حين حفر له بئره في هجرته الأولى، فحكم بأن تكون الوصاية لقصي على الوادي كله؛ أرضه وكعبته وأشجاره وجباله وحجه، وأن تخرج خزاعة منه.

وهكذا ملك قصي مكة.

أخرج خزاعة منها إلى ما حولها، وأمنهم على أنفسهم وعيالهم وبعض مالهم.

وفي يوم انتصاره ذاك، ولما أرادت قريش أن تحتفل، أمرهم أن يمتنعوا عن ذلك فأجابوه،

لكنْ أجاز لهم الولائم على شرط إطعام الفقراء منها.

وطاف حول البيت، بكى وهو يفعل، ومن دون كلمة رجع خيمته فاستقبلته حبى، لم يرفع عينيه إليها خجلًا مما فعله بقومها، خلع عباءته، وتمدد بطرف الخيمة فغط في نوم عميق.

تأملته لحظات، اقتربت منه، جلست عنده ثم وضعت يدها برفق فوق رأسه وبدأت تتلو الأدعية.

تبعثر شعره الغزير بين أصابعها فوجدت فيه شعرة بيضاء.

رمشت عينيها بسرعة، تجمدت يدها لحظات..

ثم مدت أصابعها فقبضت على الشعرة ونتفتها من رأس زوجها وجعلتها في صندوق الرقاع.

وكذا فعلت مع كل شعرة بيضاء ظهرت في رأسه أو لحيته منذ ذلك اليوم.

***

استدعى قصي أخاه رزاحًا إلى خيمته وأخبره بما فكر به يوم انتصاره حين طاف بالكعبة:

- *«أريد أن تسكن قريش الوادي»*.

امتقع وجه رزاح، شد شعر لحيته كعادته حين يفكر ثم قال دون أن ينظر إلى قصي:

- *«ليس هذا بالأمر الهين، قد يبغضك العرب من أجله»*.

هز قصي رأسه وقال:

- *«إن لم نسكن هذا الوادي ونجعل دورنا فيه فلا يلبث أحباش العرب أو قبائلهم أن يقاتلونا عليه ويخرجونا كما أخرجنا خزاعة منه، وكما أخرجت خزاعة جرهمَ من قبل»*.

- *«ستأمر الناس أن يجعلوا خيامهم فيه ولا يتركوه ليلًا!»*.

- *«لا أريد خيامًا يسهل نقضها، أريد دورًا حجرية»*.

رفع رزاح عينيه إلى أخيه في غير تصديق! فهز قصي رأسه مشجعًا وقال:

- *«سأبدأ بدار يجتمع فيها سادة قريش كلهم دون باقي القبائل فيتشاورون في أمورنا، ويكون رأينا اجتماعًا في كل شأن لنا»*.

- *«وقضاعة!»*.

- «فقط قريش».

- «ولم قريش فقط يا قصي؟».

تأمل قصي وجه أخيه، وقال:

- «أليسوا أهله أصلًا؟».

- «لن تسمح لغيرهم بالسكنى بمكة!».

- «نعم، فقط قريش هنا، باقي القبائل يمكنها أن تسكن حول الوادي».

سكت رزاح، فربت قصي على يده وقال:

- «ستكون معي».

- «لا»!

قال رزاح وهو يبتسم لأخيه، وتابع:

- «أنا مع قومي من قضاعة».

- «لكني أحتاج إليك هنا».

- «سأكون معك حتى يستقيم أمرك يا قصي، لكني راجع بعدها إلى ديار قومي».

وتنهد وهو ينظر إلى الكعبة من بعد وقال:

- «ماذا عن كل تلك الأشجار التي تملأ الوادي؟».

- «أقطعها».

أجابه محذرًا:

- «قد علمت أن العرب لا يقطعون أشجار هذا الوادي!».

احتقن وجه قصي وقال:

- «أنا سيد العرب اليوم، إن قطعت قطعوا! ولأبدأن بنفسي، فأحمل فأسي وأقطع بها».

- «ألا تخاف غضب الله؟».

- «الله جعل الوادي لبني إسماعيل أم لشجر الطرفاء والعضاة!».

- «ألا تصبر قليلًا؟».

- *«ولم؟»*.

- *«لم يألفك العرب بعد، فلا تأت بما يبغضونك به بأول سيرتك معهم»*.

- *«لا وقت لديّ»*.

- *«لديك كل الوقت»*.

صاح قصي في أخيه:

- *«ثكلتك أمك يا رزاح! وهل تدري متى أهلك؟!»*.

سكت رزاح، أطرق هادئًا، فخجل قصي وقال بصوت خفيض:

- *«ستعينني فيما أصنع!»*.

- *«لست موافقًا عليه، لكني معينك فيه»*.

فارتسم شبح ابتسامة على وجه قصي.

هكذا شهدت قريش كلها، وقضاعة وكنانة، وبقية من خزاعة، سيد مكة الجديد وهو يدخل الوادي حاملًا فأسه ومن خلفه أخوه متقلدًا سيفه حمايةً له، حتى اقتربا من شجرة قصيرة ذات سمك مجاورة للكعبة، ضربها قصي ضربات متتابعة حتى انقطعت ساقها وسقطت عند قدميه.

ظل قصي يقطع حتى انتصف النهار وقد صنع دائرة خالية مجاورة للكعبة.

ثم أمر بطون قريش أن تدخل، وقسم بينها بعض أرض الوادي، وأمرهم أن يكون كل بناء من حجر، وأن يجعلوا أنعامهم بسفح الجبل ولا يدخلوا منها الوادي إلا بأمره، وجمعهم على بناء دار الندوة فكان أول ما أقيم من حجر بالوادي بذلك الوقت.

ودخل موسم الحج، فطلب قصي من قريش أن تمده بمالٍ من أجل السقاية، التي أضاف إليها الرفادة، وهي إطعام الحجيج، وإيواؤهم، فتنافست بيوت قريش وبطونها في إخراج أموالهم من أجل ذلك، ووجد قصي عنده المال الذي يحتاجه وزيادة، فلما بدأ الموسم ذبحت الأنعام، وجعل الزبيب والعسل واللبن، واصطفت الخيام، ورُعيت أنعام الحجيج وأموالهم، وأمنوا في مقامهم بمكة، فهنأ العرب بحج لم يعرفوا مثله من قبل.

وكان بناء الكعبة قد وهن مع تفاوت الأزمان عليه واجتياح السيل الذي ضرب مكة له أيام خزاعة، فكلم قصي قريشًا في هدم الكعبة وإعادة بنائها فخافوا، فلم يزل يحسّن إليهم الفكرة، ويخوفهم من مغبة ترك البناء على حاله فلا يلبث أن يتهدم كما قيل إنه انهدم أيام

جرهم، حتى استجاب الناس على خوف، لكنهم رفضوا الاشتراك في الهدم فقال إنه هادم البناء بنفسه على أن يشتركوا معه في إقامته من بعد.

تسامع العرب بما ينوي قصي فعله بكعبتهم، وكانوا قد رأوا الشقوق في جدرانها بالموسم، لكن هدمها ظل غصة في حلق كل عربي، حتى أنه قد قيل إنه لم ينم أي قرشي في الليلة التي سبقت الهدم، وكان من الساهرين قصي الذي جالسته امرأته وقالت له بإشفاق:

- *«لا يزال البناء قادرًا على أن يحتمل فعل السنين، بإمكانك الانتظار»*.

فهز رأسه وأغمض عينيه المتعبتين وقال:

- *«رأيت يا حبى أني هدمته ثم أعدت بناءه»*.

- *«في حلمك!»*.

- *«نعم»*.

- *«ألا تخاف؟»*.

- *«إن خِفت وهنت، وإن وهنت انفرط عقد قريش وأكلتها العرب»*.

قالها وهو يقوم من مجلسه، يحمل عباءته وينطلق إلى باب الدار، فسألته:

- *«إلى أين؟!»*.

- *«ضاق صدري»*.

أجابها وهو يغادر داره فيجد عند بابه رزاحًا متسلحًا، فابتسم له قائلًا:

- *«ألا ترجع لأهلك؟»*.

- *«ما كنت لأتركك بلا حراسة في مثل هذه الليلة»*.

سارا متجاورين، مستأنسين بلفحة ريح باردة، وتأبط قصي ذراع أخيه وقال:

- *«من تظن أول من بنى هذه الكعبة يا رزاح؟»*.

تفكر أخوه ثم لم يلبث أن أجابه:

- *«لا أعلم»*.

- *«تظنه الله كما تقول العرب؟»*.

تأمل رزاح البناء ثم قال ببطء:

- *«لا والله لا أظن ذلك. لعل الله قد بنى السماء والأرض ثم أراد للإنسان أن يتعلم البناء فكان هذا أول ما بناه»*.

- *«هذه قصة حسنة»*.

وباليوم التالي أمسك معوله وخرج إلى الوادي حتى واجه الكعبة.

خلفه كان نواح النسوة وصراخهن.

الرجال متهيبة، اختبأ بعضهم بالمغارات اتقاء غضبة الله القادمة، وخرج بعضهم من الوادي.

همس قصي:

- *«يا باني السماء والأرض، تعلم أني أفعلها لوجهك»*.

من خلفه جاءه عبد مناف ممسكًا بمعوله فالتفت إليه أبوه مستعجبًا، وسأله:

- *«لِمَاذا لم تختبئ مثل إخوتك؟»*.

- *«لم أكن لأدعك وحدك في هذا يا أبت»*.

هز قصي رأسه والتفت إلى أخيه فرآه ينظر إلى عبد مناف راضيًا.

- *«استأذن ربك وابدأ معي»*.

رفع قصي معوله..

لفحته ريح شديدة..

نظر إلى شق طولي في البناء، ثم هوى عليه يوسعه..

زفرت الكعبة ترابها في عينيه، أسرع يمسحهما ثم عاد يضرب.

انهدمت الأحجار بصوت باهت لكن اللطم من خلفه عظُمه، وتتابعت ضرباته وضربات ابنه لكنه شعر أنه يغرق في مستنقع لا يقدر على الخروج منه..

ها هي الكعبة وقد خرب جدارها! ارتجف وهو يبصر ما يصنعه، للحظة تمنى لو أنه لم يبدأ من الأصل، لكنه يعرف أنه لا يستطيع التوقف الآن.

وضرب عبد مناف، سمعه أبوه يهمس داعيًا: «بسم رب الكعبة»، فاستحسن مقالته وكررها من خلفه.

وسمع بكاء رزاح من خلفه فلم يلتفت له لكن قلبه رقّ من أجله.

- *«لا والله لا أظن ذلك. لعل الله قد بنى السماء والأرض ثم أراد للإنسان أن يتعلم البناء فكان هذا أول ما بناه».*

- *«هذه قصة حسنة».*

وباليوم التالي أمسك معوله وخرج إلى الوادي حتى واجه الكعبة.

خلفه كان نواح النسوة وصراخهن.

الرجال متهيبة، اختبأ بعضهم بالمغارات اتقاء غضبة الله القادمة، وخرج بعضهم من الوادي.

همس قصي:

- *«يا باني السماء والأرض، تعلم أني أفعلها لوجهك».*

من خلفه جاءه عبد مناف ممسكًا بمعوله فالتفت إليه أبوه مستعجبًا، وسأله:

- *«لماذا لم تختبئ مثل إخوتك؟».*

- *«لم أكن لأدعك وحدك في هذا يا أبت».*

هز قصي رأسه والتفت إلى أخيه فرآه ينظر إلى عبد مناف راضيًا.

- *«استأذن ربك وابدأ معي».*

رفع قصي معوله..

لفحته ريح شديدة..

نظر إلى شق طولي في البناء، ثم هوى عليه يوسعه..

زفرت الكعبة ترابها في عينيه، أسرع يمسحهما ثم عاد يضرب.

انهدمت الأحجار بصوت باهت لكن اللطم من خلفه عظُم، وتتابعت ضرباته وضربات ابنه لكنه شعر أنه يغرق في مستنقع لا يقدر على الخروج منه..

ها هي الكعبة وقد خرب جدارها! ارتجف وهو يبصر ما يصنعه، للحظة تمنى لو أنه لم يبدأ من الأصل، لكنه يعرف أنه لا يستطيع التوقف الآن.

وضرب عبد مناف، سمعه أبوه يهمس داعيًا: «بسم رب الكعبة»، فاستحسن مقالته وكررها من خلفه.

وسمع بكاء رزاح من خلفه فلم يلتفت له لكن قلبه رقّ من أجله.

ومن قمة أجياد هبط رجل من كنانة، يحمل فأسه، فلما سأله الناس عن مراده أجاب:

- «*لا أترك سيد قريش يعمل وحده*».

عبر الوادي مقبلًا على قصي ورزاح وعبد مناف، فلما رآه قصي توقف وهو يلهث وسأله من بعد:

- «*فيم مجيئك؟*».

- «*أعينك فيما تصنع*».

- «*نعم الرجل أنت*».

اقترب أخو كنانة منه، نظر إلى عبد مناف وقال:

- «*لابنك وجه وضاء*».

هز قصي رأسه وهو يلتفت إلى ابنه، فقفز الرجل رافعًا فأسه وهوى بها على قصي.

- «*لا!*».

صرخ رزاح وهو يلقي نفسه بين الرجل وبين قصي فانغرزت الفأس في صدره، فسحبها الرجل بقوة وتحرك مهاجمًا قصيًا ثانية لكن رزاحًا ألقى بنفسه فوق الرجل الذي حاول دفعه فتشبث به بقوة، وجرى عبد مناف إلى عمه وهو رافع معوله ليقتل الرجل غير أن رزاحًا كان قد غرز خنجره في بطن الرجل، وتهاوى الاثنان أمام قصي وابنه.

انفلتت أحجار من جدار الكعبة خلفهم بجلبة عالية، بينما وقف كل أهل الوادي ينظرون إلى القتيلين وقد انمحت كل الأصوات إلا بعض أصوات طير تحلق حول الكعبة.

***

قيل إن رزاحًا قد دفن غير بعيد عن قبر إسماعيل وأمه، وقيل بل أمر قصي أن يدفن بالحجون عند سفح الجبل.

وتابع قصي هدم الكعبة، اشترك معه أخوه زهرة وأولاده وبعض آله.

ولم يرجع داره أيام الهدم، فتهامس الناس بأنه كان يبيت عند قبر أخيه.

زوجته حبى كانت تنزل إليه بالمؤونة كل ظهيرة، فتجد طعام اليوم السابق على حاله، وتحاول أن تجالسه فلا يتكلم معها.

وكذا عرفه العرب، وقد قل حديثه إلا فيما يهم، وإذا تكلم كانت كلماته مقتضبة.

ولما هدمت جدران الكعبة الأربعة ولم يعد هناك سوى أساسها، أقبل إليه قصي يخلعه فانبلج أمامه ثعبان عظيم، أسود ذو حراشيف كالشوك، وفح في وجهه منذرًا فاستقام أمامه قصي ينظر إليه بلا خوف بينما تراجع الآخرون مذعورين حتى سقط بعضهم، وهمس قصي:

- *«إن كنت قد أرسلت إليّ كي لا أهدم أساس هذا البيت فقد فهمت»*.

فح الثعبان ثانية، هز ذيله، ثم تراجع ببطء داخل الأساسات، بينما صاح قصي:

- *«يترك الأساس على حاله»*.

وأعيد بناء الكعبة، عملت كل قريش هذه المرة، أخرجوا جُل مالهم حتى افتقرت بعض دورهم، وامتلأ الوادي بالرجال والعيال، كلهم يبني.

وجاء موسم حج مقبل..

رأى العرب الكعبة بهيةً كما لم يروها من قبل حتى أنهم تساءلوا في حيرة، متى صنعت قريش كل هذا؟!

وأصبح قصي مقدسًا في أعين الناس، فكانت كلمته دينًا عندهم، وأمره متبعًا في كل حال، لكنه آثر المشورة بدار الندوة، واستمع إلى الرجال دائمًا.

ولم يمض وقت طويل حتى ماتت حبى بحمى شديدة أصابتها لأسابيع، فتضاعف حزنه، وبدأ وهنه وسأمه من العيش حتى أنه قال فيما قال:

- *«لم يقترب مني الشيب حتى ماتت حبى»*.

وجمع ولده حوله، فأورثهم أمور مكة والحجيج.

وجعل سيدهم ابنه عبد مناف، وكان لقبه في قريش «القمر» لشدة بهائه، وحسن سيرته، فساد على جميع إخوته حتى أكبرهم عبد الدار.

ولحق قصي بزوجه وأخيه، فورث عبد مناف الحكم، وتزاوج أبناء قريش وبناتها، فأنجبوا الذرية العظيمة التي طالما حلم بها قيدرا بن إسماعيل.

وكان من تلك الذريه خير رجل عرفه العرب..

محمد بن عبد الله ﷺ ..

الذي جاء من التقاء ذرية قصي بن كلاب، وأخيه زهرة..

فكان اجتماع العرب الاكبر على يده، الاجتماع المبارك المعجز بعد اجتماعهم الأول على يد يعرب، ومن بعده إسماعيل، ومن ورائهم قصي..

حتى فرق هذا الجمع اليزيد بن معاوية بن أبي سفيان، بالسيف والمال.

آل محمد صلى الله عليه وسلم

عام 63 هجريًا، ثلاثة أعوام بعد أن قُتل الحسين، وفُصل رأسه عن باقي جسده، وحُمل من الكوفة إلى دمشق ليوضع أمام اليزيد الذي جس لحيته عابثًا بقليب في يده، اشتعلت الأرض من أجل الحسين وآله، خير العرب.

وكان مبدأ اشتعالها بالعراق نفسه حيث قتل بعد أن تخلى عنه أهلها، فكان أهل العراق يرون الرأس في أحلامهم، بل أقسم كثيرون أن جدران بيوتهم كانت تكتسي بدمه وقت الغروب، بالساعة التي قتل فيها، وكانت زينب بنت علي بن أبي طالب قد توعدتهم حين تخلوا عنه بالحزن، والألم جراء ما اقترفوه.

هناك خرجت جماعة سموا أنفسهم التوابين، جمعوا السلاح والرجال والخيل، تجمعوا علانية أمام أعين شرطة يزيد وولاته، توعدوهم وتوعدوه، وخطبوا في الناس مذكرين بحسين، مطالبين بثأره.

وفي مكة المكرمة، خلع عبد الله بن الزبير، بكري أسماء بنت أبي بكر الصديق، يزيد، وأعلن انشقاق مكة عن الأمويين، وتبعه في ذلك نفر كثير صالح من الصحابة والتابعين.

أما في المدينة المنورة -إلى حيث رجعت البقية القليلة من آل محمد بعد قتال كربلاء؛ نسوة، وبضعة أطفال للحسن، وعلي زين العابدين، الوحيد الباقي من كل نسل حسين- فقد تتابعت أخبار فضائح يزيد.

والقصة أن جماعة من أهل المدينة زاروا دمشق ودخلوا على اليزيد قصره، ثم عادوا ليحكوا عن سكره بالخمر، لهوه بالقرود، فسقه بالجواري، وتضييعه للصلوات ودين الله، ولعنه عليًا، وحسينًا، وآل بيته على المنابر بعد الصلوات، وكان أبوه أول من ابتدع ذلك.

انفعل الناس بالغضب، وكانت جمار مقتل الحسين، وآل محمد، ونفي زينب بنت علي إلى مصر، لا تزال مستعرة في قلوب الناس، فاجتمع أهل المدينة عند قبر النبي، ورفعوا السلاح، وانطلقوا إلى دار الإمارة حيث والي يزيد، فأعلنوا نقض بيعته، تلك التي استقتل معاوية في أخذها قبل موته، ثم حصروه في داره، وانتشروا بأرض المدينة يتلمسون بني أمية انتقامًا للحسين، فهربوا جميعًا محتمين بدار الإمارة ومعهم مواليهم، وجواريهم، وأحمالهم من الذهب والفضة والثياب، فقيل أن ألفًا من بني أمية اختبأوا بتلك الدار.

وفي ليلة شتوية باردة، دق باب فاطمة بنت علي، وهي دار الحسين نفسها، حيث عاشت زينب أخته قبل أن تنفى، وحيث تقيم فاطمة، وابنتها حميدة، ونسوة من آل الحسن والحسين، وأطفال يتامى من نسلهم، وفتح أحد أولاد الحسن الباب فوجد شيخًا سليم الجسد، كث اللحية، أشيبها، معممًا بالبياض، شديد الطول والنحافة، قد احترق وجهه من

شمس السفر، تجاوره فتاة في عمر ابنة عمته حميدة.

تبسم الشيخ لما رآه، وقال ملاطفًا:

- *«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»*.

هز الطفل رأسه وأجابه بهدوء:

- *«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا عم. ما حاجتك؟»*.

- *«ادع لي أهلك»*.

- *«من أنت؟»*.

- *«قل لهم، النعمان بن البشير»*.

وصمت لحظة ثم أضاف:

- *«صاحب كربلاء»*.

رمشت عينا الصبي وهو يتأمله، وهمس:

- *«كأني أعرفك»*.

ثم انصرف إلى عمته فاطمة والنسوة يخبرهن:

- رجل اسمه *النعمان بن البشير*، ومعه جارية يطلبانك.

دق قلب فاطمة انفعالًا، أفلتت منها شهقة، وهي تتذكر.

بدأت قصة النعمان معهم بقصر يزيد بدمشق، حين اختاره ليصحب النسوة والأيتام من آل محمد إلى منازلهم بالمدينة المنورة.

هناك في بهو قصره، نظرت فاطمة وأختها زينب بنتا علي بن أبي طالب إلى رأس أخيهما الحسين مرة أخيرة.

عيناه ساحرتان..

شعره كثيف أسود..

أنفه دقيق كتصاوير الأنبياء في الكنائس.

رغم الذبح والدم وطول السفر، ينضح الرأس بالجمال والمهابة والصدق.

وجهه يماثل أو يكاد يماثل وجه جده النبي محمد ﷺ في قسماته.

ربما لذلك تراجع اليزيد عن تعليقه على أحد أبواب دمشق، وآثر أن يخبئه كي لا يفتن الناس به.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أخي»، همست فاطمة للرأس مودعة، سمعها يزيد فصمت، وسمعها النعمان فخفض رأسه ساكنًا.

كان اليزيد قد أمر أن تجهز نسوة آل البيت، ويعدن إلى المدينة المنورة بعد معركة كربلاء، وجعل عليهن النعمان وجندًا معه، في رحل خرج من أبواب دمشق، مستترين بليل.

حرص النعمان على راحتهن، فكان يأتيهن بالماء الطيب، ويركبهن خير بهيمة، ويأمر رجاله بتجهيز الطعام لهن فلا يأكل منه ولا جنده حتى ينتهين، وكن إذا استرحن أمر جنده فتفرقوا متباعدين عنهن، فلا تحتاج امرأة إلى ستر أو حجاب.

ولحسن معاملته، تجرأت زينب بنت علي أن تطلب أن يمررن بكربلاء بطريق عودتهن، فأجابها إلى ذلك، وسار الركب متيسرًا حتى وصل إليها.

لما دخلوها، كانت الأرض والصخر لا يزالان يلمعان بالدم الجاف.

الريح تصفر مارة ببقايا الثياب الممزقة.

رائحة مسك، غمد سيف مكسور، قدح فارغ، دمية من خشب، كرباج حصان، خاتم فضي، سنة بيضاء مكسورة، بقايا حلوى مدفونة في الرمل، حذاء جلدي ممزق، ولحم ملتصق بعظم لعقته السباع.

بكت نسوة آل عبد المطلب.

ومست زينب الدم وهي تتلو القرآن.

رمقتها فاطمة بعين دامعة وهي تعض على شفاها محتضنة ابنتها حميدة التي تأملت كل ذلك بصمت وحسرة، ثم همست لأمها:

«رائحة المسك»، فتنبهت المرأة للرائحة للمرة الأولى وتذكرت بدهشة رائحة قبر النبي محمد ﷺ!

دمعت عينا النعمان فسارع يمسحهما وهو يبتعد قليلًا عن الحشد.

جمعت البقية مما ترك شهداء كربلاء، ثليت الصلوات والأدعية، دُفن ما تبقى من أجساد الرجال، وأطرافهم المبتورة، ثم انطلق الركب إلى المدينة المنورة.

وحين وصلوا إلى عتبتها، وظهرت بساتين نخيلها، انسلخ النعمان عن النساء برجاله عائدين إلى دمشق، فقالت فاطمة لأختها الكبرى زينب:

- «*يا أخية، قد أحسن هذا الرجل الشامي إلينا في صحبتنا، فهل لنا أن نصله؟*».

كانت عينا زينب حمراوين من طول البكاء، وجهها قد نحل لكنه لا زال على حاله من الحسن، مسحت عينيها وهي تجيب محتارة:

- «*والله ما معنا شيء نصله به*».

ثم خفضت رأسها تنظر سوارها وقالت:

- «*إلا حلينا*».

فأجابتها فاطمة:

- «*فنعطيه حلينا*».

خلعت زينب سوارها، ودملجها الذي كان يزين عضدها، ومثلها فعلت فاطمة، ثم استلمتها جميعًا، وقدمتها إلى النعمان قائلة:

- «*هذا جزاؤك بحسن صحبتنا*».

فامتنع النعمان عن أخذها وتراجع وهو يجيبها قائلًا:

- «*لو كان الذي صنعت إنما هو للدنيا، لكان في حليكن ما يرضيني وزيادة، ولكن والله ما فعلته إلا لله، ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله*».

وكان هذا آخر عهدهن بذاك الشيخ.

وها هو الآن، بعد ثلاث سنوات، يقف بباب دارهن، ومعه فتاة.

تحجبت فاطمة وخرجت إلى الباب فقال الشيخ:

- «*ألا تدخليني وابنتي يا بنت علي بن أبي طالب!*».

فتح الصبي له الباب، وتقدمهما إلى مجلسهما، فاستقر جالسًا وإلى جواره ابنته، وقدم لهما الصغير اللبن فشربا، وانتظرت النسوة قوله فتكلم دون أن يرفع رأسه:

- «*علكن ظننتني حين جئت بكم من دمشق، شاميًا*».

تابعته فاطمة بتمعن فتابع:

- *«أما أنا فأنصاري، من بيت سعد بن ثعلبة بن يزيد، وإني والله خفت أن أدخل المدينة معكن لما قتل الحسين، أو أعود أهلي فيها، كراهية أن أكون من يحمل شؤم إخبارهم بمقتله..*

وإنه كما ترون، قد خرج العرب على يزيد بالعراق، ومكة، وحدث ما علمتن بالمدينة، فلم يبق معه إلا أهله من بني أمية، وأهل الشام، وإنهم والله لكثير».

صمت الرجل كالمتفكر، تنهد، وقال:

- *«وإن يزيد قد أرسلني لآمر أهلي من الأنصار بالطاعة له، وقتال ابن الزبير مع جنده، فأتيتهم أعرض عليهم فأبوا، وعرفت اليوم أن اليزيد قد أرسل في أثري جيشًا عليه كلب من كلابه اسمه مسلم بن عقبة، وجعل فيه اثني عشر ألف رجل لقتال أهل مدينة النبي».*

التفت الصبي إلى عمته فخفضت رأسها وهي تهمس:

- *«إنا لله وإنا إليه راجعون».*

هز النعمان رأسه مؤمنا، وتابع:

- *«قد جئت أخبركن الأمر، لأنه وإن كان اليزيد قد خاف أن يقرب أحد صبية علي وحسين بسوء بعد خروج أهل العراق عليه، فإني لا آمن مكره بالجواري من آل البيت، ومسلم بن عقبة رجل لا دين له».*

أغلقت فاطمة عينيها بألم، وصلها صوت بكاء النسوة من داخل الدار وقد سمعن، وتضرع أخريات بالله من أجل النجاة، بالكاد تمالكت نفسها وهي تتذكر حادثة تخصها هي.

بقصر اليزيد..

كان زوجها قد قتل مع الحسين بكربلاء، وكانت نساء آل البيت قد اصطففن كالسبايا أمام مجلس ابن معاوية، تتفحصهن أعين رجاله، ويصل إليهن ندب نساء بني أمية على حسين رغم العداوة القديمة.

لمحت رجلًا شاميًا، أحمر الوجه، بادي السمنة، مبهرج الملابس، يتابعها بنظراته وقد سال عرق ثقيل على جبهته وتحت إبطيه وأعلى صدره، تلتصق عيناه بها بخبث، يمسح أرنبة أنفه متفكرًا، فاختبأت خلف أختها زينب لكنه تابعها بلا حياء، ثم اقترب من يزيد قائلًا ببساطة كأنه يطلب طعامًا:

- *«هب لي هذه الجارية».*

ارتجفت فاطمة خوفًا، التصقت أكثر بأختها شادة جلبابها، فرفعت زينب رأسها وقد احمرت وجنتاها غضبًا، وقالت بصوت ثابت وهي تنظر إلى الرجل كأنها تبصق عليه:

- «*كذبت والله ولؤمت، ما ذاك لك، ولا له*».

قالتها وهي تشير إلى اليزيد، فانفعل يزيد وهو يقول غضبًا:

- «*كذبت والله، إن ذلك لي، ولو شئت أن أفعل لفعلت*».

فأجابته زينب من فورها:

- «*كلا والله، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا*».

اشتعل اليزيد، ووقف في مجلسه ويداه تستندان متعرقتين على المساند المذهبة لكرسيه، وصاح:

- «*إياي تستقبلين بهذا! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك*».

تقدمت زينب من مجلسه خطوات والجمع ينظر لها برهبة وصمت تام يخيم على البهو، رفعت إبهامها في وجهه قائلة:

- «*بدين الله، ودين أبي، ودين أخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك*».

فصرخ اليزيد:

- «*كذبت يا عدوة الله!*».

فاقتربت منه خطوة أخرى حتى واجهته بمجلسه وقد شلت الدهشة كل من حوله، ورفعت يدها أمامهم مشيرة لصدر ملكهم وهي تقول:

- «*أنت أمير مسلط، تشتم ظالمًا، وتقهر بسلطانك*».

تراجع يزيد جالسًا في كرسيه، ابتلع ماء حلقه ورمشت عيناه وفتح فمه يتكلم لكنه سرعان ما أغلقه وكأنه استحى.

وعاد الشامي يقول:

- «*يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية*».

فصرخ يزيد فيه وهو يشيح بيده:

- «*أعزب، وهبك الله حتفًا قاضيًا*».

تذكرت فاطمة ذلك وقلبها يدق انفعالًا كما دق حينها. زينب أختها لم تعد هنا بعد أن نفاها اليزيد إلى مصر، وابنتها حميدة قد كبرت، صارت أجمل منها، سليلة أحفاد أبي طالب بن عبد المطلب، كيف تأمن عليها غدر يزيد؟

التفتت إلى ابنة النعمان للمرة الأولى وسألتها:

- «*ما اسمك؟*».

ابتسمت لها الفتاة فتبدت جميلة في سمارها، وأجابت بصوت عذب:

- «*اسمي عمرة يا عمة*».

- «*اسم جميل*».

همست فاطمة وهي تفكر.

ثم التفتت إلى النعمان، ركزت عينيها عليه، فاعتدل في جلسته مترقبًا حتى قالت:

- «*ألك أن تذهب بابنتي هذه إلى عمتها زينب بمصر؟*».

أمسكت حميدة بذراع أمها وهي تهمس كالباكية: «أمي!»، وألجمت الدهشة النعمان. التفت إلى ابنته فوجدها تنظر إلى حميدة بهدوء، مد يده إلى قدحه ورفعه إلى فمه فلم يجد فيه شيئًا، وضعه ثانية، ومسح عن شفتيه بقايا لبن وهمية، ثم أجاب:

- «*لو عرف يزيد لقتلني*».

زفرت حميدة كالمستريحة، وسكتت فاطمة وهي تخفض رأسها، لكن النعمان تابع كأنه يكلم نفسه:

- «*يمكنني أن أدعي أنها ابنتي، أخت عمرة. منذ سنوات بعيدة كان لي طفلة غيرها لكنها ماتت صغيرة ونسيها الناس، فلو أخبرت القوم أني كنت تركتها عند أهلي بمدينة النبي وعدت بها اليوم، صدقوني*».

والتفت إلى ابنته وهو يقول:

- «*أما كنت تريدين مني أن أتزوج لأهب لك أختًا؟*».

فابتسمت عمرة وهي تنظر لحميدة وتهز رأسها قائلة: «خير أخت هي»، قالتها بصدق، طمأنت نظرتها حميدة، فتحركت شفتاها وكأنها رضيت وإن امتلأت عيناها دمعًا.

***

«تعالي يا حميدة»، قالت فاطمة لابنتها، وهي تغلق باب غرفتهما، وقفت البنت تنظر إلى أمها دون أن تقترب، وجهها محمر حمرة غضب تعرفها فيها، تتنفس ببطء، وهي تحملق فيها.

التوت شفاه فاطمة إشفاقًا من أجلها لحظة، كادت أن تدمع لكنها ابتسمت، واقتربت من طفلتها وهي تقول:

- *«لا تريدين أن تقتربي مني!»*.

تسارعت أنفاس حميدة، وقالت بصوت متقطع:

- *«أنت تريدين أن تتركيني»*.

- *«أنا!»*.

- *«نعم، تدفعينني إلى ذاك الرجل وابنته ليأخذاني بعيدًا عنك! علك تريدين أن تتزوجي»*.

اتسعت ابتسامة فاطمة، لكنها دمعت، رأت حميدة دموعها تلك فاضطربت في وقفتها، بينما رفعت أمها يدها تلمس خدها الناعم وهمست لها:

- *«لا أحب اليوم في هذه الساعة وحتى ألقى ربي من أن أنظر إليك. أنت ما بقي من أبي علي، وزوجي أبي سعيد، وأمي. أنت الجمال الباقي يا حميدة بعد أن هلك كل أهلي، ولذلك أريدك أن تكوني بخير»*.

- *«أبقيني إذًا معك يا أمي»*.

- *«أخاف عليك أن تؤذي»*.

«يا أمي...»، قالت حميدة بصوت مرتجف، أخفضت رأسها وقالت بين دموعها:

- *«ترسلينني إلى بلد ليس من آلنا فيه أحد، تبعدينني عنك، ولا أعلم متى تموتين، أو أموت فلا أراك من بعد»*.

- *«لا أيتها الصغيرة، ذلك البلد فيه عمتك زينب»*.

- *«لكن المدينة تحوي كل آلنا!»*.

- *«كانت يا حميدة، أهلكهم بنو أمية، وعن قريب يقتلون آخرين منا، وذاك وقت الحيطة»*.

واقتربت أكثر من ابنتها، رفعت يديها فحوت وجهها بينهما، أطالت النظر فيه، جميل، فيه كثير من آل عبد المطلب، لها عين جدها علي، وإشراق يعرف في سادة قريش من بني هاشم، همست لها كأنها تكلمها من عالم آخر:

- *«أنت لؤلؤة آل عبد المطلب، يجب أن تكوني بخير».*

- *«كنت أزور قبري النبي وعمي حسن هنا، كيف أصلهما في مصر؟».*

- *«اذكريهما، وهما يصلانك هناك».*

قالت أمها، ودخلت خالتها أم كلثوم الغرفة، للحظة كادت تبكي حين رأتهما، لكنها أشاحت بوجهها بسرعة وهي تقول بحزم:

- *«أسرعي يا فاطمة بإعداد شأنها، ما أقرب الفجر، فلا يلبث أن يعود النعمان لنا».*

ارتعشت حميدة وهي تشعر بيد ثلجية تعتصر قلبها، ومسحت أمها دمعها، ثم انحنت على ثيابها تلملمها؛ مكحلتها، قليل حليها وخفيها، ثم بحثت بعينيها عن صندوق تضعها فيه فاختارت صندوقًا خشبيًا كانت زينب قد أورثته لها قبل نفيها ولم تفتحه بعد، متوارث عن الأهل، لا يعدوه في قدمه وجمال نقشه صندوق آخر، قد صنع من خشب داكن معتق، منحوت بتصاوير الزهور وأوراق الشجر، مطعم بالعاج، وإن سقط بعضه تاركًا تجاويف دقيقة، فيه ما فيه من إرث العرب القديم، وآل هاشم، فتحه ففاحت منه رائحة مسك معتقة حتى أن أم كلثوم التفتت تنظر إليه بدهشة، وبالداخل كانت جلدة من ماض سحيق، قد بليت أطرافها وتآكلت، فوضعت على رقعة جلدية جديدة ألصقت بها من الخلف للحفظ، مدت حميدة يدها تتلمسها بحذر قرأت فيها كتابة عربية، ورموزًا لم تعرفها للغة غابرة، وبدأت تقرأ العربية منها ببطء:

«كهيعص. ذكر رحمت ربك عبده زكريا».

- *«سورة مريم؟».*

سألت أم كلثوم، فهزت حميدة رأسها أن نعم، فعادت تسألها:

- *«خط من هذا؟».*

مررت حميدة يدها على «بسم الله الرحمن الرحيم»، وأجابتها مترددة:

- *«كأنه خط الحسين».*

- *«متيقنة أنت!».*

- *«هكذا كان يخط حين علمني».*

- *«والخط على الحواف؟ تلك اللغة الغريبة؟».*

- *«لا أعرفها»*.

سقطت دمعة من فاطمة على الرقعة وهي تنظر إليها فأسرعت حميدة تمسحها كي لا تؤذي الحروف، ورفعت رأسها إلى أمها وخالتها تسألهما:

- *«ألا تبقيان تلك الرقعة معي؟»*.

أجابتها فاطمة وهي تنظر إلى أم كلثوم:

- *«بل تأخذين الصندوق بما فيه»*.

واقتربت من ابنتها، احتضنتها طويلًا، ثم جاءتهما أم كلثوم تحتضنهن جميعًا، بكت ثلاثتهن، تعلقت عينا حميدة بالرقعة ومن بين دمعها ظنت أنها قد قرأت فيها..

«فنادها من تحت ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًا».

همست لنفسها بتلك اللحظة: «قد سمعتك يا رب».

***

نادى المؤذن للفجر من مسجد النبي، وفتح علي زين العابدين، الذي جاء مودعًا ابنة عمته، باب الدار لينظر إلى النعمان فوق حصانه، بينما استقر جمل عليه هودج أحمر أمامه، وخرجت حميدة، ارتجفت من شدة البرد، أو من خوفها لكنها تماسكت وهي تحمل صندوقها بين ذراعيها وتصعد الهودج فتجد داخله عمرة التي تناولت منها الصندوق وهي تهمس بدهشة:

- *«ما أجمله!»*.

ثم مدت يدها تعينها حتى دخلت.

لم تلتفت حميدة وراءها، خُيل إليها أنها تسمع صوت أنفاس أمها بالخارج لكنها أغلقت عينيها وصداع مؤلم يضرب رأسها، واهتزت مع استقامة الجمل، وبالخارج لم تنطق فاطمة كلمة بينما وقف علي زين العابدين يكلم النعمان ويوصيه، فقط وقفت تتبع الجمع وهو يغادر حتى اختفى في طرقات المدينة المتعرجة، فلما غاب دخلت دار أخيها الحسين مسرعة وهي تجاهد لتكتم دمعها، لكن أم كلثوم استقبلتها فاحتضنتها فاطمة وانفجرت في البكاء وهي تدفن وجهها فيها.

- *«هوني عليك يا أخية»*.

قالت أم كلثوم فأجابتها:

- *«كأن قلبي انخلع من صدري»*.

وانطلق النعمان مستترًا بالظلمة، متعجلًا المسير خوفًا من جيش اليزيد، واختار أن يتجه بعمق الصحراء متقيًا المسالك المعهودة في السفر من الحجاز إلى الشام، سالكًا طريقًا مهجورًا يمر ببوادي يعرف أشرافها ومن هناك ينطلق شمالًا حتى تبوك، ثم يسلك طريق الجبال حتى يدخل عريش سيناء.

تابعت حميدة الطريق بعينين واسعتين، كان المطر رفيقهم منذ خرجوا من المدينة، فلم تخرج الفتاتان من الهودج إلا للصلاة أو الغسل أو الخلاء، وفي صباح يوم جمعة بينما كانوا بأواسط جزيرة العرب يستعدون للالتفاف شمالًا توقفت الأمطار، وأشرقت شمس دافئة فخرجتا من الهودج والنعمان يتابعهما.

رأوا أمامهم سلاسل متفرقة من أحجار عملاقة، موزعة على أرض شاسعة كأنها أنصاف بيوت، الأرض تحتهم سوداء تتناثر فيها الأزهار الملونة والرياحين، وعلى البعد فوهات براكين خامدة.

مروا بإحداها متفحصين، لمستها حميدة فوجدتها باردة رطبة، ونادت عليها صاحبتها فأسرعت إليها لتجدها عند إحدى الصخور تتفحص نقوشًا غائرة فيها لورود وأوراق مزهرة ورموز غير مفهومة.

«ما هذه الكتابة؟»، سألت عمرة، فهزت حميدة رأسها وإن تذكرت بعض النقوش التي رأتها على الرقعة العتيقة، وقالت:

- *«ليست العربية»*.

- *«بالجزيرة عجم!»*.

- *«لا أظن»*.

- *«إذًا!»*.

- *«ربما كانت عربية عتيقة»*.

تركت الفتاتان وادي الصخر إلى شق ضيق بين جبلين والنعمان يتبعهما حارسًا، عبرتاه بسرعة خوفًا من شقوق الأفاعي وصيحات النسور تصل إليهما من الأعلى، فلما خرجتا منه تسمرتا وشهقت عمرة!

أمامها كانت أطلال مدينة عتيقة لم تريا مثلها من قبل.

أعمدة متهدمة من العقيق الأحمر، لا يزال بعضها يلمع كملح البحر، وأطلال قصور، بقايا سور مهيب لا حد له، ممتد حتى يغرق في الرمل، ساحة أو ما يشبه ساحة، ذات حمرة باهتة فارغة إلا من حطام صخري، وبناء شاهد عليها منقوش على ما تبقى منه صورة آلهة قديمة ونساء.

حفرة بالأرض تسري على امتداد البصر، كأنه مجرى سيل أو نهر قديم، وسكون مقبض يحيط بكل ذلك.

«أي مكان هذا؟!»، همست حميدة في حيرة فأجابتها عمرة: «لنسأل أبي»، والتفتت تبحث عنه فوجدته عند شق الجبل، ورأت في عينيه نفس حيرتهما، ولما سألته قال:

- *«لعلها أرض ثمود»*.

وتفحص بعينيه تمثالًا محطمًا لامرأة قد اختفى النصف العلوي منه، فابتلع ماء حلقه وأضاف:

- *«أو عاد»*.

- *«ألا نأخذ بعض العقيق من ذاك الحطام؟»*.

- *«أخاف أن يكون ملعونًا إن كان لتلك الأقوام»*.

أجابها النعمان وهو يشد حصانه متأهبًا لمتابعة السير.

من هناك انطلقوا نحو مرابط عنزة فدخلوها ليلًا، وكان لهم بالنعمان سابق مودة، فأكرموا وفادتهم، وسيقت الفتاتان إلى خيام النسوة. هناك لم يكن للنساء حديث إلا حديث خروج الناس على البيت الأموي واقتراب نهايته، فقالت عجوز تغطي وجهها بستار نحاسي:

- *«ما كان الله ليذر بني أمية بعدما أحدثوا، والله ليخسفن بهم، وها قد خرجت عليهم العراق، والمدينة، وبويع لابن الزبير بمكة فلم يبق لهم إلا دمشق ومصر، لا يلبث أن يدخلها عليهم المسلمون فيعملوا فيهم الذبح حتى يفنى اليزيد وجيشه»*.

التفتت عمرة إلى حميدة مبتسمة فابتسمت الأخيرة، فكرت في أنه إن صدق ظن هذه المرأة فلا تلبث إلا يسيرًا حتى ترجع لأمها بالمدينة ومعها عمتها زينب.

ونادى النعمان على بنتيه متعجلًا، خرجتا فوجدتاه ممتقع الوجه، يشير بكفه أن هلما إلى ركابكما، فسألته ابنته:

- *«لم نكد نستريح! أفلا نبيت هنا الليلة؟»*.

هز النعمان رأسه رافضًا وقال:

- *«يقولون هنا أن مسلم بن عقبة قد خرج في جيشه، وسلك أقصر الطرق إلى المدينة، فلا يلبث أن يصل إليها».*

- *«أيقاتل أهلها؟!».*

سألت حميدة، فتوقف النعمان لحظة ثم أجاب:

- *«ألم يقتل حسينًا من قبل؟ وهل أهل المدينة أعز على اليزيد منه؟».*

وهز رأسه وهو يشير للفتاتين إلى الهودج قائلًا:

- *«هذا أوان مصر».*

***

قيل عن النبي ﷺ أنه خرج في سفر من أسفاره.

فلما مر بحرة زهرة وقف فاسترجع، أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، فساء ذلك من معه، وظنوا أن ذلك من أمر سفرهم، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ما الذي رأيت؟

فقال رسول الله ﷺ: أما إن ذلك ليس من سفركم هذا، قالوا فما هو؟ فقال: يقتل بهذه الحرة خيار أمتي بعد أصحابي.

***

لما دخل النعمان ومن معه الفسطاط، كان مسلم بن عقبة يحاصر المدينة المنورة بجيشه.

إليه تسلل بنو أمية منها، فأخبروه بمسالك المدينة، ونقاط ضعفها، والأحياء التي ثارت على يزيد فيها.

على أبواب المدينة تلا مسلم بيان اليزيد ليسمعه أهلها، وكان فحوى هذا البيان أن خيرهم بين بيعته، والخروج مع جيشه لغزو مكة المكرمة وقتال عبد الله بن الزبير، وبين الذبح والاستباحة للدم والعرض والمال، فقال قائد أهل المدينة:

- *«أتظنون أنا تاركوكم تدخلون مكة وتلحدون فيها؟! والله لنقتلنكم هنا فلا تسيرون إليها».*

وكانت هذه بداية القتال بالحرة.

جيش المدينة فيه من فيه من آل البيت وآل هاشم، وآل أبي بكر، وآل عمر بن الخطاب،

وأولاد الصحابة، وأحفادهم، والأوس والخزرج، ورجال قبائل عربية استقرت بها منذ أيام أبي بكر حتى صاروا من أهلها، كل هؤلاء تقاتلوا مع مسلم بن عقبة وطوفان من الجند يزيد على اثني عشر ألف رجل.

استمر القتل، وحوصر أهل المدينة، فمنع عنهم كل شيء، وهدمت الأسوار التي حمتها من قبل عهد النبي وفي عهده ومن بعده، وغطا الدم أرض الحرة فكان المشهد الذي أنبأ الله به نبيه من قبل، وملأت جثث خير أهل المدينة أرضها.

بادت في تلك المعركة عوائل كاملة، مثل عائلة بني عوف، وكانوا أحفاد وأبناء عبد الرحمن بن عوف وأخيه، كما باد كثير من أشراف بني العباس عم النبي بالمدينة.

ولما انتصر مسلم بن عقبة، أمر جنده أن يستبيحوا المدينة ثلاثة أيام بلياليها، فدخلوها، وأعملوا الذبح في الرجال والولدان والشيبة، ولم يراعوا حسبًا أو نسبًا، وحرقوا مزارع النخيل فغطت المدينة سحابة سوداء منعت النور عنها لأسابيع، ونهبوا الدور والمتاجر وبيت المال، وسرقوا من النساء حليهن وثيابهن، وفسقوا بهن، فاغتصبوا وقتلوا.

كل ذلك على مرأى من قبر النبي محمد، وصاحبيه أبي بكر وعمر، وغير بعيد عن قبور عثمان والحسن ببقيع المسلمين.

لم تشعر حميدة بذلك وهي ترقب بدهشة طرقات الفسطاط.

يدق قلبها انفعالًا بالجمال محاولة أن تستوعبه..

النهر الأزرق، أكبر كتلة ماء تراها، لا نهاية له ولا بداية، حاضر في كل مكان تتحرك فيه، تحيط به أشجار النبق والموالح والنخيل ودورٌ بيضاء عالية. المدينة كلها تعج بأصوات الطير الناعمة في جو مشمس دافئ، غير حر الصحراء الحارق، ووجوه أهل البلد غريبة عليها، تغلب عليها السمرة، لكنها لطيفة، وفيها بشر ووداعة.

مدت جسدها ترقب فساتين النساء الملونة ذات التطريز الرائع، شعرت أنها ضيقة لكنها جميلة.

لا يتعمم رجالهم، فقط العرب لا يزالون يرتدون عمائمهم هنا، وتندر الجمال، أما الحمير فكثيرة.

الثمر في كل الشجر، ببعض الأحيان يغطي الأرض تحته وقد نضج فثقل حتى سقط، تحمله النساء فوق رؤوسهن في مشنات دائرية ضخمة من دون أن يستعملن أيديهن.

ابتسمت..

استرعت انتباهها بُخيرة أرادت أن تسأل عن اسمها لكنها استحت أن توقف مسيرهم لتسأل النعمان.

كانت محاطة بأشجار الدوم، منعزلة عما حولها، يلمع ماؤها بضوء الشمس فلا تستبين إن كان ما يتحرك فيها سمك، أم هو خداع ضوئي.

عند مدخل أحد الأسواق توقف النعمان، ونزل من على فرسه فغاب غير يسير ثم عاد وفي يده أربعة أثواب.

سار إلى الهودج، نادى على حميدة، فأخرجت رأسها، رأتهم فتعجبت من شدة جمالهم، لكنها لم تطل النظر إليهم، مد يده بهم إليها، وهو يقول:

- «*رداء العافية إن شاء الله يا ابنتي*».

مدت يدها إليهم، لكنها سحبتها سريعًا، وهي تقول كالمعتذرة:

- «*ليس معي مال أشتريهم به*».

فقال الرجل مترفقًا:

- «*هي هدية يا حميدة.. فاقبليها رحمك الله*».

وربتت عمرة على كتفها وهي تهمس: «اقبلي».

بيدين ترتعشان أمسكت بهم، وقالت بصدق: «شكر الله لك يا عمي»، فابتسم، وكان طوال رحلتهم متجهمًا، لكنها شعر بنغزة في صدرها، نغزة يتم ما أكثر ما أحستها منذ قتل جدها، ومن بعده أبوها وخالها.

وعند غروب الشمس وقف الرجل أمام دارٍ بهية، بيضاء لها باب خشبي مزخرف بتصاوير نباتية، ونزلت حميدة ومن خلفها عمرة بوجه حزين، ترقب صاحبتها وهي تطرق الباب، فتفتح زينب التي انفتحت عيناها بدهشة وامتلأتا بدمع فجائي وهي ترى ابنة أختها!

ومن دون كلمة، احتضنتها وأغلقت عينيها كأنها تستقبل العالم كله بدفء غير محدود رغم كل البكاء.

***

لم يظل مكوث زينب مع حميدة..

كانت زينب قد ماتت فعلًا حين قُتل أخوها الحسين، ولم يبق إلا أن يستسلم جسدها، وما

أسرع أن فعل.

بليلتها الأخيرة نادت على حميدة..

دخلت الفتاة لتجد خالتها على فراشها، عيناها متعبتان، لكن وجهها سعيد..

اقتربت منها..

- «*اجلسي يا صغيرتي*».

همست زينب بصوت ضعيف. جلست تحت قدميها، فهزت رأسها مبتسمة وقالت:

- «*لا، بل عند رأسي*».

فعلت حميدة، وبيد مرتعشة أمسكت زينب بسوارها الذهبي وفكته عن يسراها، ثم ناولته إلى حميدة وهي تهمس: «هو لك».

نظرت إليه حميدة دون كلمة، رفعت عينيها إلى خالتها، فكان ملؤهما الدمع، لكنها اندهشت لانشراح وجه زينب، وكان الحزن لا ينقطع عنها من قبل، فهمست:

- «*أنت سعيدة!*».

- «*نعم*».

- «*كيف؟*».

- «*سألقى أهلي يا حميدة*».

بكت الفتاة، فرفعت خالتها يدها إلى خدها وقالت:

- «*لا، لا.. استبشري خيرًا*».

- «*من صاحبي من بعدك؟*».

- «*يا حبيبتي، لا صاحب بحق، إلا الله*».

خفضت حميدة رأسها..

ومدت زينب يدها إلى أصابعها فأمسكت بهم بقوة، وعيناها تبتعدان ببطء إلى المجهول، همست:

- «*ارقيني*».

مدت حميدة يدها اليمنى إلى شعر خالتها. كان ناعمًا تفوح منه رائحة طيبة. شرعت تقرأ

القرآن..

قرأت طويلًا حتى شعرت بضغطة أخيرة في يدها الممسكة بيد خالتها، قبل أن تهدأ اليد للأبد.

ولما علم أهل الفسطاط بموت زينب، خرج العرب من سكانها، ومصريون كثر، يدفنون المرأة المباركة.

بنت علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء.

وأصبحت حميدة وحيدة بالكامل، حتى اسمها الحقيقي ليس معها، وكانت تُعرف بحميدة بنت النعمان، لكن النعمان نفسه قتل بذلك العام بعد أن خلع بيعة بني أمية، وبايع عبد الله بن الزبير وسافر إليه ليدخل جيشه، فتبعه خالد بن خلي وقتله قبل أن يصل إلى الحرم.

أما الدار التي تسكنها فكانت وهبةً من الوالي ابن مخلد إلى زينب، فلما ماتت، وأتبعه والٍ آخر هو سعيد بن يزيد، وكان أمويًا قحًا، أرسل إلى حميدة نسوة يخبرنها بأن عليها إخلاء الدار.

تأهبت لأن تغادرها قريبًا، تقلدت سوار خالتها، ونظرت حولها تبحث عما تأخذه معها، فوجدت حجاب زينب الأبيض الذي كانت تستقبل به النسوة بمجلسها، فردته على سريرها فوجدت فيه بعض شعرها، ولم تكن قد شابت قبل موتها. بحرص نزعت حميدة منه الشعرات، جمعتها في مكحلة، ووضعتها في الصندوق إلى جوار الرقاع.

ثم خرجت متجهة إلى سوق القبط لتبيع السوار وتشتري بثمنه دارًا صغيرة.

كانت من قبل تشتري ما تحتاجه من سوق العرب الجديد، لكنهم لا يبيعون فيه الذهب، وسألت عن سوق القبط فأخبروها أن عليها أن تسير طويلًا بمحاذاة النيل ناحية الغرب، حتى تصل إلى المقياس، وتعبره وبعدها تجد سوقهم.

هكذا خلفت الفسطاط وراءها، وسارت بالطريق إلى منف، بمحاذاة حصن رومة القديم، كان أهل الفسطاط يروون الأساطير عن ذلك الحصن، نظرته متهيبة، لكن حزنها لم يدع لها فرصة لاستكشافه، وبسرعة قل العرب حولها، وكثر القبط. رأت أن أغلبهم حليق، لا يتركون لحاهم ولا شواربهم كالعرب، تتبسط نساؤهم في الملبس، حتى أن بعضهن لبسن أثوابًا بلا أكمام!

وعلى امتداد البصر كانت دورهم، إما بيضاء، وإما من طين ترك على حاله، متقاربة، ذات علو، تشترك جميعها في وجود النقوش عليها، بعض النقوش بسيط، وبعضه فيه من الفن ما

يبهرا تتقارب تلك الدور ببعض الأحيان حتى تكون حارات ضيقة، وتتباعد عند القصور فتكون ميادين واسعة، وفي كل بقعة لم تمتد إليها يد البناء، تكون الأشجار أو النخيل، أو بركة ماء، أو بساتين.

الأرض نفسها تحت قدميها تنبض بالحياة، حشرات تتحرك، وطين أسود متعطش للإنبات!

لما طال مسيرها، أوجعتها قدماها، ولما اختفت اللغة العربية تمامًا وحلّت القبطية، فكرت في حيرة كيف ستبيع وتشتري! تابعتها الأعين لكن أحدًا لم يقترب منها مخافة إغضاب العرب الذين لا يسمحون أن يتحدث غريب إلى نسائهم، كانت ترتدي آخر ثوب بقي عندها من هدية النعمان، فبدت ذات حسب رغم أنها كانت تحاول أن تغطي رقعة في الثوب عند المعصم طوال الوقت.

ولما انتصفت الشمس بالسماء فوقها، ولم تعثر على مقياس النيل، ولم تصل إلى سوق القبط، ولم تجد حولها إلا بساتين بلا بشر، استوحشت، وجلست على الأرض كطفلة ضائعة تنظر ما حولها، وهي تضغط على السوار الذي لف معصمها.

ولم تتمالك نفسها فبكت..

***

أمام دارها الكبيرة كانت تابيري تغسل قدميها -اللتين نفرت عروقهما متأثرة بطعن السن والعمل الدائم- محاولة تخفيف ألمهما. سمعت البكاء، ميزت في الصوت بحة صادقة لطيفة، ضيقت عينيها تنظر فلم تر شيئًا، ولما استمر البكاء أخرجت قدميها من الطشت، ومسحتهما بخرقة نظيفة وهي تجول بعينيها بحثًا عن الصوت، ثم سارت حول منزلها ببطء سعيًا وراءه.

مشت بين أشجار البرتقال والليمون بالبستان، الذي ورثته عن زوجها باتجاه النخيل المطل على النيل، فلما عبرت البستان رأت حميدة للمرة الأولى وشهقت!

فوقها، غير بعيد عن رأس تلك الشابة العربية، كانت مريم العذراء في ثوبها السماوي، يغطي رأسها ستر أبيض، وقد فردت ذراعيها مشيرة إلى حميدة.

رأتها تابيري! ميزتها بكل تفاصيلها، جرت نحوها وهي تبكي فاهتزت الصورة في عينيها لحظات، أسرعت تمسح الدمع عن عينيها وفتحتهما ثانية فكانت حميدة، وغابت مريم.

هكذا اقتربت تابيري من الفتاة، جلست عندها، مدت يدها تمس كفها، فرفعت حميدة رأسها إليها، وسرت في صدر تابيري دفقة باردة وهي ترى العينين الجميلتين تنظران إليها.

«ما بك أيتها الصغيرة؟»، سألتها فلم تفهم حميدة كلامها، وخمنت تابيري أنها لا بد عربية

من غزاة الحجاز الجدد، رغم أن وجهها كان أبيض متشربًا بحمرة على خلاف سمرة أغلبهم، وتقاسيم وجهها أكثر نبلًا من كل من رأتهم، حتى أنها تعلو على جمال الروم والفرس الذين تعاملت معهم من قبل، وكأنها عنصر أعلى من الجميع.

مدت حميدة يدها بسوار خالتها مضمومًا في حجابها الأبيض، ونظرت إلى تابيري وهي تقول بالعربية:

- *«هل تشتريه؟»*.

بحس التاجر فهمت تابيري ما تريده حميدة، مدت يدها بغير اكتراث محاولة مداراة إعجابها، أمسكت بالسوار ورفعته تتفحصه. على خلاف أساور النساء بمصر لم يكن ثقيلًا، لكن نقوشه كانت نادرة الجمال، محفورة فيه بعمق، تصاوير نباتية متقنة، وفروع أشجار، ولم يكن مطعمًا بالحجر، وقد فاحت منه رائحة عطرية أحبتها.

«تعالي يا صغيرة»، قالت، وهي تجذب حميدة والسوار لا يزال في يدها، فتبعتها الفتاة بتردد إلى دارها القريبة.

كانت الدار وبستان الموالح إرثها من زوجها الذي مات شابًا، وكان بناءً ذا صيت بمنف حتى أن الرهبان استعانوا به في بناء كنائسهم، قد بنى هذه الدار بيديه فجعلها آية في الجمال على بساطتها، وزين سقفها بعروق الخشب الذي رسم عليه تصاوير فلسطين ورحلة العائلة المقدسة، والطير وإلهامات قصص حروب موسى، وأحلام يوسف، وسفينة نوح.

أمام باب الدار كانت أشجار التوت، وتعاريش العنب التي زرعتها تابيري من أجل الطعمة والخمر، وفي كل ركن من المنزل كانت تحرص على تواجد الورود ونباتات الزينة.

أجلستها على كرسي خشبي زينته وردة محفورة ثلاثية البتلات، وعليه مخدة لطيفة، ثم أسرعت تصب لها ماءً ونبيذًا، فتناولت حميدة الماء وشربته عطشًا حتى أنهته، ولما قربت لها الخمر ربتت حميدة على يد العجوز ودفعتها عنها برقة ممتنة.

- *«لا تشربين النبيذ! ما أشد بؤسك!»*.

قالت تابيري وقد تذكرت ما سمعت عن نبي العرب الذي حرم عليهم شربه، فقامت وسكبت النبيذ في قارورته، ثم غسلت القدح جيدًا من أثره، وغمسته في طست لبن وقربته من حميدة، فتناولته شاكرة.

تابعتها تابيري، شعرت أنها جائعة، وفهمت أنها تبيع حليها للحاجة، وللمرة الأولى رأت أن ثوب هذه الفتاة قد اتسع عليها وكأنها نحلت، وميزت الرقعة فيه، فانقبض صدرها.

- *«أنا تابيري».*

قالت وهي تشير إلى نفسها، ثم أشارت إلى جدران الدار وتابعت:

- *«مالكة الدار والبستان».*

ابتسمت الفتاة فأضاء وجهها جميلًا، وقالت:

- *«أنا حميدة بنت النعمان».*

«حميدة»، أعادت تابيري نطق الاسم مستحسنة، ثم رفعت السوار وقالت:

- *«كم تريدين فيه؟».*

نظرت إليها حميدة بعين حائرة، عرفت تابيري أنها قادرة على أخذه بأي ثمن تريد، وكانت عالمة بأمور التجارة بحكم ما تبيعه من خمر وفاكهة، لكن مشهد العذراء فوق رأس الفتاة ألجم رغبتها، ودفعها لأن تدفع فيه ثمنًا عدلًا.

ربما أكثر مما يستحق.

***

ذاك النهار بعد أن نقدتها المال لقاء السوار، مشت تابيري مع حميدة حتى أوصلتها إلى دارها.

دخلته فاشتمت رائحة المسك اللطيفة، وتأملت نظامه البسيط مستأنسة.

- *«أين تخزنين الحبوب والجبن؟».*

سألت حميدة، فلم تفهمها لكنها أشارت بيدها كأنها تدعوها لتتفقد الدار كلها وقالت:

- *«لن تعود دارًا لي قريبًا».*

بحثت تابيري فلم تجد أثرًا لخزين إلا قليلًا من تمر، ولم تزَ بهائم أو طيرًا.

- *«من أين تأكلين؟!».*

سألت بدهشة.

أمسكت بيد حميدة وسحبتها إلى السوق العربي، هناك وجدت الأسعار أعلى من سوق القبط لكنها اشترت منه فولًا، وعدسًا، وسمسمًا، كما ابتاعت شاة سحبتها حميدة وراءها، وعادا إلى الدار فجلست تابيري ترتب الحبوب بمواضع اختارتها بعيدًا عن النمل وحميدة

تعينها في كل ذلك.

آلمتها قدماها من كثرة ما مشت، تأوهت فانتبهت لها الشابة، ونظرت إليهما فرأت عروقها النافرة. أجلستها ثم غابت في غرفة خالتها وعادت وهي تحمل زيتًا تفوح رائحة الزيتون منه، أوقدت له نارًا هادئة، وغلته طويلًا، ثم تركته يدفأ، وبعدها سحبت منه بيدها ودعكت أقدام تابيري.

خف ألمها..

ثم حركت قدميها تجربهما فلم تشعر بأن فيهما سوءًا! وكانت المرة الأولى التي تشعر فيها بهذه الخفة منذ أعوام، رفعت عينيها إلى حميدة وهمست:

- *«مباركة أنت!»*.

وهكذا بدأت علاقتهما.

لم تنقطع تابيري بعدها عن زيارة حميدة.

أعانتها على أن تشتري دارًا جديدة وتترك دارها للوالي كما أمر، وكان موقع الدار الجديدة قريبًا جدًا من الجامع، ثم جلبت العمال والنقاشين والنحاتين من أصدقاء زوجها الراحل، فعملوا الدار على أحسن هيئة، وزينوا السقف بالنقوش النباتية، بل استنسخوا بعض الآيات بالعربية دون أن يعرفوا ما هي ورسموها عليه.

ونظمت تابيري أحوال الدار، علمت حميدة أعمال المنزل وشؤونه، فكثر ما عندها من طير وأغنام، وخزنت حبوب المواسم لما هو آت..

ثم ارتأت تابيري قطعة أرض خلاء بين منزل حميدة وما يلي من البيوت الملاصقة للجامع، فدعت حميدة أن تشتريها وأعانتها بالمال من أجل ذلك على أن يكون لها نصيب منها، فوافقت الفتاة، وأقبلتا على الأرض تزرعان فيها أشجار الموالح، وبذرتا الأرض ببذور الخضر، وجعلت فيها تابيري كرمة عنب سرعان ما أثمرت.

وتعلمت حميدة القبطية سريعًا، بينما أخذت تابيري وقتها في تعلم العربية، وجدت المرأتان في اللغة أخوة خافية، كأن أصلهما واحد، ولما حذقت تابيري العربية جعلت تجارتها في سوق العرب لأن كسبه كان خيرًا من سوق القبط، والمنافسة فيه أقل، فأصبحت تبيت مع حميدة أيامًا في دارها مستأنستين ببعض.

وحصلت بمصر أحداث جسام..

دخلها والٍ اسمه عبد الرحمن الفهري، أرسله عبد الله بن الزبير، فحاصر والي بني أمية، وطرده من مصر.

ونفخ الشيطان في أنوف بني أمية، فأخرجوا جيشًا من دمشق لقتال أهل الفسطاط، فأرسل عبد الله بن الزبير إلى واليه أن يحفر خندقًا حولها يلفها من كل جوانبها المكشوفة إلا الجبل ليمنع عنها جند الأمويين.

بتلك الأيام، وفي الليلة الأخيرة من شعبان، بينما يصل إليهما صوت الرجال الذي يعملون بالخندق ليل نهار، والهلال قد ارتسم في السماء مؤذنًا بدخول شهر الصوم، والأذكار تتلى من مئذنة الجامع الشرقية، حدثت حميدة تاييري عن قصتها للمرة الأولى.

نسبها لآل هاشم، من ناحية بني أبو طالب، وقرابتها بالنبي وآله، مقتل خالها الحسين، وجدها عليّ من قبله، وهروبها إلى مصر.

لم تنم تاييري تلك الليلة، حضرت للفتاة التمر المخلوط بالعسل والخبز للسحور.

نظرت إليها وهي نائمة وسألت نفسها، أي ناس يستطيعون أن يصبروا كما صبر هؤلاء؟!

قبل الفجر بقليل أيقظتها لتأكل.

ونامت جوارها بعد أن صلت الفتاة.

فرأت حسينًا مقبلًا..

وسيمًا، ذا قوة، في عينيه رحمة صافية لم ترَ مثلها إلا في عين العذراء يوم رأتها عند حميدة.

لا يزال الدم ينزف من مواضع جرحه لكنه لا يأبه له، مرتديًا ثوبًا أبيض بسيطًا.

ابتسم لها وهو يقترب منها.

فتح يديها فوضع فيها بذورًا خضراء لم ترَ مثلها من قبل، وهمس لها: «ازرعيها».

أسرعت تضعها في طين الفسطاط، فاهتزت الأرض تحتها، وانبثقت من الأرض شجرة عظيمة مباركة، وحولها ظهرت قبابٌ لا نهائية غطتِ أرض الفسطاط مما يلي المقطم، وفي الشجرة انبعثت الأغصان يسري فيها دم الحسين ورسم اسمه، وانبعثت منها عشرات الثمار، بل الآلاف، ثم أعداد لا حصر لها، على كل منها اسم عربي لواحد من ذريته إلى يوم الدين.

وتعالت الشجرة حتى استقبلت السماء، والملائكة تحيط بها، بحثت بعينيها عن الحسين لتبشره ما يكون لذريته فلم تجده، فتحت فمها لتنادي عليه فوجدت نفسها تؤذن بالعربية!

ولما استيقظت من رؤياها، نوت الصوم.

وشهدت لله وللنبي بين يدي حميدة.

وقبل انقضاء رمضان كان الخندق قد حُفر.

ولما أمن الوالي عبد الرحمن على الفسطاط، قرر أن يبادر بمهاجمة الأمويين فأرسل سفنه من الإسكندرية غازيًا سواحل الشام، وأرسل سرية للغزو برًا، لكن جيش الأمويين كان قد وصل إلى مصر فخرج عبد الرحمن لقتالهم قبل أن يصلوا إليه، ولقيهم بعين شمس، فهلك خلق كثير من الفريقين، لكن الأمويين غلبوا بكثرة عددهم وحسن تسليحهم.

ودخل مروان بن الحكم، الخليفة الأموي، وابنه عبد العزيز الفسطاط، واستتبت أحواله وأحوال المدينة، فأمر أن يبنى له قصر بجوار جامع عمرو بن العاص، واشترى بعض أرض حميدة وتابيري ليضمها للقصر، وأشرفت تابيري على بيعها فأصابت منها رزقًا عظيمًا.

فلما أراد الخليفة العودة إلى دمشق، استخلف من بعده ابنه عبد العزيز، وكان آخر نصحه له أن قال:

«يا بني، عاملهم بإحسانك، يكونوا كلهم بني أبيك، واجعل وجهك طلقًا تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره يكن لك عينًا على غيره، وينقاد قومه إليك».

وفي غرة ذي الحجة، دق باب حميدة قبل صلاة الظهر بقليل ففتحته وقد غطت رأسها ومن ورائها تابيري تنظر، فوجدت امرأة عربية مليحة في ثوب بهي، زينتها الذهب واللؤلؤ، وإلى جوارها صبي قسيم بادي الذكاء لم يبلغ الحلم بعد. فقالت المرأة لها بعربية صحيحة وكثير من اللطف:

- *«أنا أم عاصم، ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، زوجة الوالي عبد العزيز بن مروان، وقد جاء بي إلى مصر حين ولاه أبوه إياها. وهذا ابني عمر. لا أعرف من نسوة العرب هنا أحدًا، وأنت أقرب جيراني إلى القصر، فهل لنا في صحبة؟»*.

دق قلب حميدة بقوة وهي تنظر لها وللطفل. ابتسمت محاولة إخفاء توترها ثم فسحت لهما الطريق للداخل وهي تجيب:

- *«تفضلا أهلًا، حمدًا لله على سلامتكما»*.

والتفتت تنظر إلى تابيري التي وقفت ترقبهم بصمت وهي تدعو الله أن يحفظهما من بني

أمية ونسائهم.

***

غادرت الضيفة تاركة وراءها الهدايا من طيب، وفاكهة مجففة، وزيت زيتون شامي، ثم عادت خادمتها بعباءة رومية لحميدة، وشال مطرز لتابيري.

وتتالت الزيارات بالأيام التالية، فسألت تابيري حميدة:

- *«هل عرفت منها شيئًا من أخبار بلدك وأهلك؟»*.

فهزت حميدة رأسها نفيًا ثم استدركت:

- *«لكنها قالت لي أن لهجتي قرشية»*.

- *«أوَليس النعمان قرشيًا؟»*.

- *«بل هو أنصاري عاش بالشام»*.

أجابتها حميدة ثم صمتت كالمهمومة، فعادت تابيري تسألها بقلق:

- *«مالك؟ أهناك ما تخافين منه؟»*.

نظرت إليها حميدة ثم قالت ساهمة:

- *«كأن الناس تغيروا يا تابيري.. زوجها عبد العزيز بن مروان بن الحكم، ابن الخليفة الأموي، لكني لم أرَ فيها كراهية يزيد لآل بيت النبي»*.

- *«هذا حسن؟»*.

همست مجيبة:

- *«نعم، عله يكون كذلك»*.

توطدت صداقة حميدة بليلى، تزورهما كل صباح، وترفض حميدة زيارة القصر رغم أن تابيري ألحت عليها في رؤيته، فكانت ليلى تأتيهما مع ابنها وخلفها الخدم يحملون طعامًا للإفطار، أو تأكل مما أعدته حميدة وتابيري بأيام أخرى، ثم يأنسن بحكي قصص العرب، وأخبار البلاد.

في الأيام القليلة التي كانت لا تأتيهما فيها ليلى، كانت حميدة تخرج إلى بركة الحبش التي رأتها أول مرة يوم دخل بها النعمان الفسطاط، فتجلس هناك مستأنسة بصوت الطير والخلوة الهادئة.

حكت لهما ليلى عن طاعون البصرة الذي ابتلى الله به أهل الشام والعراق بعد موقعة الحرة فهلكوا فيه حتى شارفوا على الفناء، وترك القتلى دون دفن بعد أن خافهم الناس، حتى أن أم أمير البصرة حين هلكت لم يجدوا من يدفنها، وظلت حتى الظهيرة ملقاة حيث ماتت حتى أقبل أربعة نفر، فحملوها ودفنوها بقبر منعزل بأطراف المدينة.

وفي صباح يوم شتوي بارد، عند نار أوقدتها تابيري ببستان الدار، والماء يغلي في قدر عليها بينما تنتظر كؤوسا وضع فيها النعناع والعسل، تكلمت ليلى عن أمها وإلى جوارها ابنها عمر يسمع بإنصات.

«لما ولي عمر بن الخطاب أمر المسلمين بعد صاحبه أبي بكر الصديق، كان يعس بطرقات المدينة ليلًا، يتلمس أخبار الناس، ويطمئن على أحوالهم.

وفي ليلة سار حتى تعب وكان قد شاخ، فأراح ظهره على حائط دار لا يعرف صاحبها فسمع منها جلبة فأرهف السمع، فوجد امرأة تقول لابنتها: «قومي يا بنية فاخلطي اللبن بالماء»، فأجابتها ابنتها:

- *«يا أمه، قد نهى عمر بالسوق أن يخلط اللبن بالماء»*.

فقالت أمها تعاتبها:

- *«وما شأنه بنا؟! هذا موضع لا يراك فيه عمر»*.

فأجابتها الفتاة:

- *«يا أمه، إن لم يكن عمر يراني، فإن رب عمر يراني»*.

فقام عمر ينظر الدار حتى ميزها، وعرف بعدها أن الفتاة بلا بعل، وأن أباها قد غيب، فجمع أبناءه وقص عليهم قصتها، وسألهم: «أيكم يريد أن يتزوجها ويفلح؟»، فتكلم ابنه عاصم وقال: «لا زوج لي يا أبي، فزوجني إياها».

«وهكذا تزوجت أمي»، قالت ليلى مبتسمة، فابتسمت تابيري وحميدة، ووقف عمر بن عبد العزيز فأمسك بيد أمه وقال بسعادة:

- *«يا أمي.. أريد أن أكون كخالي عبد الله بن عمر بن الخطاب»*.

فضحكت أمه، وهي تدفعه قائلة:

- *«أغرب! أنت تكون كعبد الله بن عمر!»*.

فانتبهت حميدة للصغير، مدت يدها له فأمسك بها، وأجلسته جوارها وهي تسأله متلطفة:

- «تحب خالك؟».

- «هو يحبني أيضًا. لم يكن يريدني أن أدع المدينة مع أمي».

قالت ليلى:

- «هذا حديث صبيان».

فالتفت إليها ابنها، وقال:

- «بل والله قال لي أني أشبه الناس بجدي عمر بن الخطاب».

سكتت ليلى، ورفعت حميدة رأسها إليها وكانت قد سمعت بتقوى عبد الله بن عمر منذ أيام المدينة، وقالت:

- «ألا ترغبين أن يكبر هذا الفتى بمدينة النبي مع خاله؟».

- «بل يكون إلى جوار أبيه».

فقالت حميدة وهي تربت على رأس عمر:

- «إن بقي هنا يا ليلى، يلحن لسانه، ويقل علمه، وينشغل عن العبادة باللهو والخيل».

وتكلمت تابيري قائلة:

- «هذا صبي نجيب.. فأحسني إليه».

نظرت ليلى إلى عمر، كأنها تراه للمرة الأولى..

وأرقت ليلتها تلك فلم يجد إليها النوم سبيلًا، تذكرت عمها عبد الله، وما قاله ليلة غادرت المدينة المنورة:

- «يا ابنة أخي، خلفي هذا الغلام عندنا، فإنه أشبهكم بنا أهل بيت عمر».

التفتت إلى زوجها النائم، هزت كتفه توقظه، ففتح عينيه في حيرة، فحكت له عما كان بينها وبين حميدة وتابيري فأشاح عنها مغتاظًا، وقال:

- «خاب من سمع من نسوة».

لكن ليلى قالت مترجية:

- كذا قال لي عبد الله بن عمر».

- «عمك تقصدين؟!».

سألها عبد العزيز وهو يجلس معتدلًا بانتباه.

- «نعم».

- «ما قال لك؟».

- «سألني أن أتركه عنده لأنه أشبه الناس بآل عمر بن الخطاب».

فابتلع عبد العزيز ماء حلقه ولم يعقب، ونزل من سريره.

دار في قصره كالتائه ثم مشى إلى غرفة ابنه..

سمع صياح الديك من الخارج.. همس:

- «قَرُب الفجر».

دفع باب الغرفة ودخل فرأى عمر نائمًا على جانبه الأيمن، يده تحت خده، مثل نومة النبي، وقف ينظر إليه، ما أشد شبهه بآل الخطاب من عدِي، وأبعده عن بني أمية حتى في جسمه. خفض رأسه متفكرًا فسمع صوت أذان الفجر آتيًا من جامع عمرو بن العاص، وبإلهام علوي قرر أن يرسله من يومه إلى آل أمه بالمدينة المنورة، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره، وكان عبد الملك قد غدا الخليفة، فأمر لعمر بألف دينار كل شهر.

وحين ودعته حميدة، بكت وهي تنظر إلى وجهه، وكانت تحب الأطفال كثيرًا، فرق قلب ليلى وهمست:

- «عسى الله أن يرزقك الذرية قريبًا».

وكانت تلك دعوة تابيري لها كل ليلة.

ولما كانت حميدة كثيرة الملازمة للدار، لم يكن يراها أحد، ولا يُعرف عنها الكثير، وكانت قد رضيت بذلك وعلمت ألا زواج لها على حالها من الخشية وإخفاء أصلها.

كانت فسحتها الوحيدة بركة الحبش، تستظل عندها بعروش العنب، وترقب صفحتها والإوز يسبح فيها.

بكرت بأحد الأيام بذهابها إلى البحيرة اتقاء حر الظهيرة، فأقبل عليها فارس ملثم وتمهل وهو يصيح:

- «أُقبل؟».

عدلت ثوبها متأهبة لرحيل، وهي تجيبه:

- *«بل أرحل أنا»*.

فسارع يسألها:

- *«أمعك شيء من طعام؟»*.

وقفت تنظر إليه فرأت أثر الغبار في ثوبه، وقد لفحت الشمس جلده، فعرفت أنه مسافر، أخرجت من جعبتها بعض تمر ناولته إياه، فقال قبل أن يأخذه:

- *«هدية؟»*.

- *«بل صدقة»*.

قالت، فأمسك يده عنه وأجاب:

- *«لا نأخذ الصدقة»*.

دق قلبها انفعالًا وتسارعت أنفاسها وهي ترفع عينيها إلى وجهه للمرة الأولى، أنزل لثامه فرأت فيه الأمارات لكنها أرادت التيقن..

- *«الصدقة للمسافر»*.

- *«ليس إن كان هاشميًا»*.

تيقنت، كادت تدمع، سألته بصوت مرتجف:

- *«من أي آل هاشم أنت؟»*.

فسألها هو:

- *«أنت أيضًا قرشية!»*.

فهزت رأسها وهمست: «أنصارية».

- *«لا والله لست كذلك»*.

ثم ابتسم مترفقًا وقال:

- *«أما أنا فأصدقك القول، من آل العباس»*.

دمعت عيناها فأسرعت تداريها وهي تعدل حجابها ومدت يدها بتمر جديد قائلة بصوت

متوهج:

- *«أما هذا، فهدية».*

وأسرعت تغادر المكان، وهو يتبعها بعينيه.

في طريقها بكت.

كانت مرتها الأولى التي تقترب فيها من رجل من آل بيتها منذ ماتت خالتها زينب. لامت نفسها إذ لم تسأله عن اسمه، عن أهله ومساكنهم.

تساءلت إن كانت ستراه مرة ثانية!

ماذا إن كان أحد رجال جيش إفريقية؟ إن غادر الليلة أو باكرًا؟

ماذا إن كره ما صنعت معه فلم يرجع لها؟

من قال إنه راجع؟

استرجعت ملامحه تلك الليلة..

وضيء الوجه، به وسامة تعرفها في آلها، نحيف من غير سوء، مشرب بالحمرة، طويل وعليه ثوب حسن، وإن كان مغبرًا.

وفي الصباح التالي غادرت مبكرة إلى البركة..

فكان هناك منتظرًا وإلى جواره حصانه.

لم يكن مبتسمًا..

ولا متجهمًا.

لكنه كان ينتظرها، أبطأت خطواتها وهي تسترق النظر له..

سألها أول ما اقتربت:

- *«قرشية أنت؟»*.

- *«نعم»*.

هز رأسه كالعارف، وعاد يسأل:

- *«من أي حي؟»*.

فأجابت دون وجل:

- «*من بيت علي بن أبي طالب*».

ولم تصدق أنها نطقت الاسم بصوت مسموع!

***

اسمه العباس وهو أكبر إخوته، له أخ أصغر منه اسمه علي، أبوه أعظم علماء المسلمين بوقته عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأمه حبيبة بنت الزبير بن العوام، أخت عبد الله بن الزبير، قتيل الكعبة. يشترك معها في النسب في جدهم عبد المطلب بن عبد مناف، عم النبي محمد ﷺ.

ولد بمصر أثناء مرور عبد الله بن العباس مع عبد الله بن أبي السرح لإفريقية أيام الخليفة عثمان رضي الله عنه، وسافر بين بلدان شمال إفريقية معلمًا أهلها القرآن واللغة والخط، وكان ذا حرفة فيه، فكان ينقش الآيات على أبواب الجوامع، والمنابر، والرقاع.

عاد لمصر عازمًا أن يستقر بها، فاشترى لنفسه دارًا مجاورة للجبل من الناحية الغربية للجامع، وبدأ يعلم الناس عقب صلاة الظهر حتى العشاء بصحن الجامع.

واجتمع حوله خلق كثير من أبناء العرب والمسلمين من القبط، يتلون عليه القرآن، فيسمع ويصحح اللحن، ثم يقرأ عليهم أحاديث النبي ﷺ التي تعلمها من أبيه، ثم يختم بدروس اللغة العربية والخط.

وبليلة العاشر من رمضان، بين الرحمة والمغفرة، خطب العباس حميدة على أن يعقد عليها بعد شهرين حين يصل أخوه علي وزوجه إلى مصر لحضور الزفاف.

وكان مجيء أخيه بعيد الأضحى من ذلك العام.

سيذكر أهل الفسطاط ليلة وصوله طويلًا، يسبقه الخدم يحملون مشاعل النور، ومن ورائهم عليّ على فرس أسود، تجاوره زوجته على فرس أبيض، ومن خلفهم تلاميذه وصحبه وآل بيته، ثم جموع من أهل القبائل بالشام ومصر، فلو أنه أراد أن يدخل الفسطاط يومها غازيًا لكان له ما أراد، وبأعين مندهشة راقبت تابيري بستان الدار وهو يمتلئ عن آخره بالرجال، تفوح منهم روائح الطيب والمسك، وتعلو عربيتهم في المكان بلا لحن، وما زالوا يتوافدون على البستان حتى سدوا الأرض بين الدار والقصر.

فقط عليّ وزوجته دخلا الدار، وهمست تابيري في خشوع:

- *«تبارك الخالق!».*

كان عليّ أجمل ما رأت من رجال على طول عمرها، قسمات وجهه كرسوم القديسين التى رأتها على حوائط كنيسة العذراء، لو كانت لهم لحى مثله، مفرط الطول، متناسق الجسد، عليه حلة دمشقية مبهرة، كل حركة من يده، أو إيماءة، أو حتى نظرة يلفها البهاء.

زوجته لبابة بنت عبد الله بن جعفر، قرينته في الجمال، كأن جلدها من نور، زينتها الذهب، لسانها يفيض عذوبة، وعلى وجهها ابتسامة هادئة، لما دخلت المنزل رفعت رأسها إلى الرسوم وحلية السقف ثم التفتت إلى تابيري قائلة بلطف:

- *«هذا بيت حسن الزينة».*

فهزت تابيري رأسها شاكرة وهي تجيبها:

- *«رسمها أصدقاء زوجي الراحل كرامة له».*

ابتسمت لها لبابة والتفتت إلى زوجها قائلة:

- *«عربية سليمة».*

فهز رأسه بلا كلام وهو ينظر إلى تابيري، وسأل:

- *«أين حميدة؟».*

- *«هنا يا عم».*

قالت الفتاة وهي تخرج إليهم، وقد سترت شعرها، تابعتها لبابة وعلى وجهها أثر ابتسامة، وخفض عليّ رأسه للمرة الأولى، بينما اقتربت تابيري منها وهي تلف كتفها بذراعها فشعرت برجفة خوفها، والتفتت تنظر إلى وجهها وفي عينيها دمع مكتوم.

اقتربت منها لبابة، وهمست تنظر لها متفحصة:

- *«أمعك من أهلك أحد؟».*

- *«معي تابيري».*

أجابت حميدة، فرمشت عينا لبابة..

- *«معك ولي؟».*

سأل علي، فهزت حميدة رأسها أن لا.

- *«أنا وليك إذًا».*

أجابها وهو يلف عباءته حول جسده ويلتفت مغادرًا الدار، بينما أجلستها لبابة إلى جوارها ممسكة بيدها وقالت وهي تخلع من حول عنقها قلادة ذهبية ضخمة بأوسطها ياقوتة حمراء تلمع:

- *«أتعلمين من أهداني هذه يا حميدة؟».*

هزت حميدة رأسها نافية فقالت المرأة:

- *«زوجي السابق، الخليفة عبد الملك بن مروان».*

ومدت يدها تلف القلادة حول رقبة حميدة وهي تقول:

- *«كنت زوجة له، على كراهية مني، أما هو فأحبني رغم أني ابنة عبد الله بن جعفر الطيار ابن أبي طالب، والعداوة بيننا بأوجها.*

ذات ظهيرة كان يأكل الفاكهة وأنا عنده، تناول تفاحة فقضمها، ثم ناولني إياها لآكل منها، فأمسكت سكينًا، وقطعت الحافة التي قطم منها».

- *«لم فعلت؟!».*

سألتها حميدة فأجابت:

- *«لأن رائحة فمه كانت خبيثة، وأسنانه نخرة، فلم أتحمل أن أشمها فيما آكل.. سألني معاتبًا، «لم فعلت ذلك؟»، فقلت: «أميط الأذى عنها»، فطلقني».*

قالتها ضاحكة وهي ترى الدهشة في أعين حميدة، وتابيري، ثم تابعت:

- *«نعم والله كان خير يوم. تزوجت بعده من علي بن العباس فهنئت بالعيش معه، وزوجك العباس سيكون خيرًا لك بإذن الله يا حميدة، فارع الله فيه فإن آل العباس مباركون».*

- *«أفعل بإذن الله».*

هزت لبابة رأسها راضية، وهي تلمس القلادة على رقبة حميدة وتقول:

- *«هذه هدية عرسك مني».*

ثم أشارت إلى الجموع خارج الدار، وقالت:

- *«أترين كل هؤلاء الناس؟».*

- «نعم».

- «كل منهم قد جاء ومعه هدية لك يا حميدة».

بالصباح التالي، يوم الزفاف، لم تستطع تابيري أن تنام. جمعت هدايا حميدة في سلال كبيرة فتراكمت فيها حتى ملأتها، أدهشها أن الفتاة اليتيمة التي رأتها ببستانها وفوقها العذراء قد غدت اليوم عروسًا ذات مال وأهل، فهمست تسبح الله وتشكره على نعمته، ثم فتحت صندوق حميدة، ذلك الذي يحوي الرقاع، وفيها الرقعة الحسينية، ووضعت هديتها لها فيه؛ سوار خالتها زينب الذي اشترته يوم لقائهما، ملفوفًا في الحجاب الأبيض، ومعه تمثال ذهبي لهرم صغير كانت قد ورثته عن أمها، التي ورثته عن جدها، وكان مقاتلًا بجيش مصر، مقربًا من قائده.

ومثل أم أيقظت حميدة بقبلة على جبينها.

ثم جلست جوارها، ووضعت أمامها صينية عليها الجبن والفطير والعسل والتمر، فأكلتا معًا، وهي تسر إليها بأمور الرجال والزواج والبيت.

واحتضنتها طويلًا، بكت، فبكت حميدة..

وحين خرجت إلى هودجها الذي سيحملها إلى دار زوجها، سألت تابيري نفسها إن كانت ستعيش معها تحت سقف واحد بعدها أم تغادرها أبدًا؟

لم تعرف، لكنها ظلت تدعو الله أن تحمل ولدها قبل أن تموت.

***

لم تكن الأحوال بأرض الخلافة بخير حين تزوجا، وكانت أخبار المؤامرات والثورات، وطواعين الشام والعراق تسري في جلسات الرجال كالهواء الذي يتنفسون.

لكن حياتهما كانت غير ذلك، هادئة وهانئة، عليها سلام وسكينة.

ببطء، شغلت أدوات العباس حيزًا في دارهما؛ رقاعه وأقلامه وأحباره وسكين قشطه الذي يبري به أقلامه التي اتخذها من الخوص الذي ينمو بضفاف النيل، أو يجلبه من الإسكندرية وهو أمتن.

وكان له نظام لا يتغير، يخرج من داره قبل صلاة الظهر بقليل، فلا يعود إلى ما بعد العشاء، فتكون حميدة بانتظاره، وقد جهزت طعامًا، وأعدت بساطًا تجالسه عليه للسمر، أو سريره إن عاد متعبًا.

أما الجمعة فكانا ينطلقان إلى البحيرة حيث التقيا، فيجلسان هناك من الصباح إلى المغرب.

كانت تابيري تأتيها بعد خروجه بقليل، ولا تغادر دارها إلا مع العشاء.. أحيانًا، بالليالي الباردة، كانت تبيت معها فلا يعترض العباس.

قال لها مرة وهما يتسامران:

- *«ما لك لا تخرجين إلى الصلوات بالجامع!»*.

- *«صلاتي هنا خير لي»*.

هز رأسه موافقًا وهو يمد يده إلى حبة تين لينة ناولها إياها، ثم تناول أخرى وقال:

- *«لكنك تكادين لا تدخلين الجامع يا حميدة!»*.

خفضت رأسها وسكتت، فالتفت إليها متفكرًا، وسألها:

- *«أخبريني إن كان هناك ما يمنعك»*.

رفعت عينيها إليه وقالت:

- *«الدعاء يا عباس»*.

- *«أي دعاء؟»*.

- *«دعاء الإمام»*.

- *«ما به؟»*.

اعوجت شفتاها وهي تنظر إليه، ففطن إلى ما تريده، ترك التين من يده، وتفكر.

وباليوم التالي، بعد صلاة الجمعة، وقف وجماعة من تلامذته منتظرًا الإمام، وكان شيخًا نحيلًا شديد الأدمة له لحية عظيمة، فأوقفه لما خرج وقال له:

- *«دع عنك سبّ علي وحسين على منبرك هذا، فإنك تؤذينا إذ تفعل»*.

نظر إليه الإمام مستنكرًا، وقال:

- *«قد أمر الخليفة بهذا»*.

- *«أعلم، ولكن اسمع، إن فعلتها ثانية، والله لأوذينك»*.

تلمس الشيخ لحيته وهو يطيل النظر إلى العباس، ثم مد ذراعه يزيحه عن طريقه فأمسك

العباس بيده وقال:

- «*تذكر قولي، ولا تلومن إلا نفسك إن أعدت سبهم*».

تلك الليلة، إلى جوار حميدة في سريرهما، همس العباس قائلًا:

- «*كيف هان عليّ أن أترك عليًا وحسينًا يُسبان في جامع أصلي به؟! كدت ألا ألحظ ذلك حتى ذكرتني به*».

همست حميدة:

- «*هي العادة*».

فالتفت إليها في حيرة.

- *العادة أيها العباس؛ تبدأ الأشياء غريبة، فننفر منها، ثم لا نلبث أن نعتادها، حتى لا نشعر بها*».

- «*صدقت*».

همس وهو يضع يده على صدره، ويقول:

- «*والله لا يُسَبون في مسجد أصلي به بعد اليوم*».

لكن الإمام، كسابق عهده، سب عليًا وحسينًا بنهاية دعائه بالخطبة التالية، وإن أوجز في سبهما.

ولما أنهى صلاته، وقام، دفعه العباس مجلسًا إياه، بينما ينصرف الناس، فالتفت إليه الإمام مغضبًا، وهو يقول:

- «*قد زدت!*».

لكنه انكمش على نفسه إذ أمسك العباس بخده يعتصره بين أصابعه، ورأى من بين ألمه كثرة من الرجال حوله، فلما خلا جامع عمرو بن العاص من العامة، جيء بسعف نخلة، وتوقف العباس ممسكًا بها وهو يقول للرجال:

- «*مدوه على ظهره*».

ففعلوا قسرًا، والإمام يصيح في دهشة مذعورة، ثم زفعت قدماه في الهواء واقترب العباس حتى وقف أمامه ثم قال:

- «*ألم أنهك عن شتمهما؟*».

- *«لأشكونك إلى الوالي»*.

- *«إن استطعت أن تمشي إليه»*.

قالها وهو يهوي بالسعفة على قدمي الرجل فيصرخ من الألم، وسط صمت الرجال، والعباس يرفعها ثانية ويهوي بها على قدميه مرة بعد مرة.. كان صوت الإمام يتعالى بالبكاء الذي أضحى أنينًا متوسلًا، والعباس يواصل ضربه حتى عد سبعين جلدة.

مسح العرق عن جبينه، ألقى بالسعفة، نظر إلى من حوله فلم يرَ أثر الندم في أحدهم، وتذكر للحظة بدهشة حلمًا رواه له أخوه علي بن العباس حين زاره ليلة عرسه بمصر وقال له أنه رأى أن الملك يصير إلى بني العباس بعد أن ينزعوه من بني أمية.

«هذا أول الأمر إن شاء الله»، همس العباس وهو ينهج، ثم لف عباءته حوله وخرج من المسجد.

ولم يستدعه الوالي لذلك الأمر؛ خاف أتباعه وتجنب الفتنة، فأمر الشيخ ألا يسب أحدًا على منبره.

ودخلت حميدة الجامع مع زوجها للمرة الأولى.

صلت فيه. بكت لما تذكرت أيام صلاتها بجامع النبي بالمدينة.

وكبر في نظرها العباس، وكان حبيبها، لكن حبها له صار الآن عجيبة ندر أن تحدث. فلم تعرف الفسطاط امرأة أحبت زوجها كما فعلت.

ومرت شهور، ولم تحمل، سألتها تابيري غير مرة إن كانت قد شعرت بشيء من ألم، أو تقيأت بالصباح، أو عافت الاكل، لكن شيئًا من ذلك لم يكن.

وخافت لما دخل رمضان، منذرًا بقرب انصرام العام الأول من زواجها دون حمل.

نصحتها تابيري فقالت:

- *«تعالي معي يا حميدة إلى بئر ماعت، غير بعيدة من الحصن، فإن المرأة عندنا إن لم تحمل، تذهب إلى تلك البئر، فتستحم فيها سبعة أيام متتالية، ثم تذبح عندها طائرًا تهب لحمه للسارح من الحيوان، ثم تعود دارها وتصيب زوجها بالليلة السابعة فتحمل»*.

- *«أهي بئر عميقة؟»*.

سألت حميدة.

- «لا، تقف فيها المرأة فلا تصل إلى أوسطها».

وسألت حميدة العباس عن الأمر بينما تأخذ عباءته وتطويها لتضعها في خزانته، فقال:

- «لا يزال بتلك العجوز بعض جاهلية».

- «أفلا أجرب؟».

سألته مترددة، فنظر إليها وقال:

- «قولي، أعوذ بالله من الشيطان».

همست بها، ثم قالت بصوت باهت:

- «قد شارف حول يا عباس، حول كامل، وليس بي شيء من أثر الحمل».

- «وإن كان!».

قال وهو يبتسم مترفقًا، فأجابت بحزن:

- «ألا تريد ابنًا أو بنتًا؟».

- «لا أريد أكثر مما قسم الله لي».

- «تقول ذلك، ثم تتزوج بغيري فترزق منها، فتقول حينها، هذا ما قسم الله لي».

ضحك من قولها، وقال مازحًا:

- «وخير رزق هو».

فامتلأت عينا حميدة دمعًا.

اقترب منها، مسح عن خدها، وقال بهدوء وهو ينظر إلى عينيها:

- «قد رزقني الله بك يا حميدة، فكنت خير زوجة، وخير أم، وخير صاحبة، ووالله لا أجد في نفسي حاجة للنساء غيرك. فاعلمي أني سأحيا، وأموت وليس لي إلا حميدة الخير».

بكت..

احتضنها، وقبل رأسها.

- «تعالي وانظري».

قالها وهو يبعدها برفق، ويتناول جعبته التي يسميها «الخريفية»، للونها الأصفر مثل ورق

الشجر الساقط، أخرج منها لفافة، فردها على المصطبة أمام حميدة.

أدهشتها مادة الورقة بقدر ما أدهشها جمال الخط والمكتوب!

بدا الورق كأنه مصنوع من خشب رقيق جدًا، تخاف أن تلمسه فيتمزق لكنك حين تمسك به تجده متينًا! وعليه بالحبر الأسود رأت شيئًا عجيبًا..

كانت شجرة ذات فروع، لكن ساقها اسم واحد «عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي»، ومنه تتفرع فروع قليلة عليها أسماء أبنائه، «عبد الله»، «العباس»، «حمزة»، و«صفية»، و«أبو طالب»، ومن تلك الأفرع تخرج عشرات الفروع الأصغر أبهاها فرع «محمد ﷺ»، وفرع «علي بن أبي طالب». تتلاقى الأفرع، تتقاطع بالزواج، فيكون الحسن والحسين وزينب وغيرهم، وبطرف الورقة رأت فرعها، قد نقش عليه اسمها، قادمًا من علي بن أبي طالب ملتقٍ بفرع العباس بن عبد الله بن العباس، ومنهما ينتظر فرع جديد أن ينمو..

- *«أهلنا»*.

همست مسحورة، فهز رأسه وقال وهو ينظر إلى الورقة:

- *«اسمها المشجرة، وهي أصل وفروع لأنسابنا منذ جدنا عبد المطلب»*.

- *«ما أجمل ما صنعت!»*.

- *«الأسماء التي تحتويها هي ما صنع جمالها هذا»*.

تلمست الورقة، رفعتها وسألت وعيناها لا تفارقها:

- *«ليست جلدًا، ولا سعف نخل»*.

- *«بردي، لا تُصنع إلا بمصر. متينة، وذات جودة، ويسهل الكتابة عليها»*.

تسارعت أنفاسها وهي تراجع الأسماء، دق قلبها بعنف، همست:

- *«ألا نخرج في حج عام مقبل فنمر بالمدينة»*.

ابتسم وقال:

- *«نعم، إن كتب الله لنا أن نشهد عامًا مقبلًا، آخذك، ونسير إليها»*.

ناولته البردية، ثم التفتت إلى صندوقها وقالت:

- *«الآن، تعال أريك خطًا مباركًا»*.

جلست أمام الصندوق باحترام، كانت تابيري قد حذرتها أن كل امرأة يجب أن تبقي بعض مالها سرًا لا يعرف عنه حتى زوجها، ونصحتها أن يكون ذهبها، ومالها بهذا الصندوق، لكنها الآن لا تريد إلا أن تريه ما فيه.

فتحته فأصدر صوتًا دقيقًا مع حركة غطائه، أبعدت بيدها الحلية والمال، ومدت يدها إلى جوفه فوجدت هرم تابيري وسوار زينب، أزاحتهما برفق ثم مدت يدها الأخرى وبحرص شديد أخرجت الرقعة الحسينية، وناولتها العباس.

ميزت رعشة يده وهو يمسك بها هامسًا:

- *«سورة مريم»*.

حدق فيها وهمس بصوت منفعل:

- *«ما أجمل هذا الخط! وهذه النقوش حوله! كأنها أزمان مختلفة»*.

- *«الخط خط الحسين بن علي»*.

قالت حميدة، فجمد العباس من الدهشة، ابتلع ماء حلقه، ورأت شعره يلتصق بجبهته من تعرقه فمسحته بيدها.

مرر إصبعه على بقعة سوداء قبيحة على الرقعة، ثم قال:

- *«أُرَضَة»*.

فزعت حميدة وهي ترى ما أحدثت، كانت قد شوهت جزءًا صغيرًا من الرقعة لكن بدا وكأن أثرها سيستمر، ففهمت بذعر أن الرقعة قد بلغت من القدم ما يهدد بقاءها، لكن العباس قال:

- *«لا تزال الرقعة سليمة والحمد لله، أما ما أصابها من الأرضة، فأعالجه بإذن الله ثم ألصقها بجلدة جديدة من الخلف فلا تبلى»*.

انشغل العباس بتلك الرقعة المقدسة، فكان يعمل عليها الساعات الطويلة بالليل بعد إنهاء دروسه بالجامع، ويتبضع مواد من أجل علاجها من أثر التسوس من أماكن بعيدة بمنف.

لكن انشغاله بها لم يمنعه من أن يشعر بالقلق من الأخبار القادمة من شرق مصر، العريش بالذات، حيث كانت الأقاويل تنتشر عن وفيات زائدة سببها طاعون قادم من الشام.

بعدها بعشرة أيام، وبينما كان يلقي درس الخط بجامع عمرو بن العاص على ضوء قناديل وحوله تلامذته، دخل رجل عملاق، عليه عمامة حمراء وثوب معفر من أثر السفر، لا يزال

سيفه في غمده المربوط بحزام حول خصره، تقدم دون أن ينظر إليهم إلى المحراب مباشرة حتى وقف أمامه في الموضع الذي كان عمرو بن العاص نفسه يؤم الناس فيه، فرفع يديه إلى السماء وصرخ بصوت مرعد: «يا رب الكعبة! ارفع المرض عن عبادك»، ثم انكفأ على نفسه يتقيأ موضع سجوده!

أسرع طفل من تلاميذ العباس يساعده، فأمسك به العباس وهو يحدق بالرجل، وقال:

- *«عد إلى أهلك، ولا تأتِ المسجد حتى أطلبك».*

ثم لملم رقاعه، وأقلام الخوص، وضعها بالخريفية، وتوقف وهو يقول:

- *«حسبنا اليوم، انصرفوا».*

بهدوء غادر تلامذته، بينما وقف يرقب الرجل، وكان جسده يرتجف ممددًا على الأرض، همس لنفسه:

- *«إنا لله وإنا إليه راجعون».*

ثم مشى نحو الرجل بعد أن ملأ قدحًا ماءً، فاقترب حتى وقف أمامه ومد يده إليه بالقدح.

رفع الرجل عينيه إليه، كانتا حمراوين كأنهما دم، اختلطت سوائلهما بتعرق الرجل الذي فاحت من جسده رائحة ثقيلة من أثر السفر. بشفاه محتقنة همس الرجل له:

- *«اترك الماء، واعتزل المسجد، وامنع أهلك من الناس».*

تردد العباس لحظة، ثم قال:

- *«الطاعون؟»*.

- «هو».

بسرعة وضع العباس القدح على الأرض قريبًا من الرجل، ومن دون انتظار غادر المسجد دون كلمة.

ليلتها طلب من تابيري ألا تغادر الدار.

- *«تبقين معنا حتى يأذن الله»*.

وجعل لنفسه غرفة منفصلة عن زوجه، وكانت خطته أن يكون هو الوحيد الذي يخرج من أجل الطعام أو الصلاة، لكنه لن يتصل بالآخرين في بيته، ولن يتركهما يغادرانه.

وهرب الوالي عبد العزيز بن مروان بأهله من دار الإمارة بالفسطاط إلى حلوان، فاختط لنفسه دارًا فيها، وبنى جامعًا، وجعل سوقًا صغيرًا، وقناطر تحمل الماء من عيون المقطم إلى معزله.

ثم بدأ الهلاك في الفسطاط وأنحاء مصر كافة.

فكانت حميدة وتابيري تسمعان بكاء جاراتهما، وصراخ المفجوعين بالموت، وتكبيرات الناس وهي تحمل الجنازات متتابعة.

ثم امتنع أهل القرى عن الفسطاط وقد انشغلوا بموتاهم، فانقطع رزق كثير وفاكهة وقمح وشعير وغيره مما يُحمل من تلك البلاد، فعمت بلوى الجوع في أنحاء المدينة، وانتشرت السرقات بعد أن انقطعت شرطة الوالي عن الشوارع.

وذهب العباس إلى بستان تابيري، فأخذ كل ما يستطيع من ثمار ورطب، وعاد بها إلى داره وخزنها بمواضع عدة، ثم أخرج سيفه وصقله وأعاد تنظيفه وجعله جواره أغلب الوقت.

وانقطع بالكلية عن الناس، فلم يخرج من داره أسابيع.

ولما اطمأن وزوجه بانعزالهما، صارت تأتيه ببعض الليالي بغرفته، فيتسامران كالأيام الأولى لزواجهما.

ثم كانت الجمعة الأخيرة من شوال، وكان شهر كامل قد مضى منذ خرج العباس من الدار.

اغتسل، واستطاب، ولبس خير ثوبه، وعزم النية على صلاة الجمعة في جماعة بعد رؤية رآها، وكان يصلي فيها بجوار الحسين والحسن وجماعة من آله في جامع النبي بالمدينة.

خرج من داره، فلم ير السوق العربي! فقط أرضًا خلاءً لا يضع فيها أحد بضاعة!

ولم يسمع صوت الساقين، ولم يشتم رائحة الخبز من الدور.

كان الصمت تامًا حوله، والأرض خالية من الناس.

مر بدور يعرف أصحابها، فوجد أبوابها مفتوحة ولم يجد فيها من الأحياء إلا الذباب.

ثَرك الأثاث الخشبي، وأواني الطبخ وأفران الخبيز، والصوامع الصغيرة، وألواح المصحف وأقلام الكتابة، وأكياس المال، والرطب والزيتون والزبيب، وكثير من الثياب.

مضى في الحارات الضيقة حيث كانت رائحة الشواء والخبز لا تنقطع فاشتم روائح نتنة، ثم تسمر وهو يرى جثثًا ملقاة بالطريق والذباب يتصارع فوقها!

شعر بدوار، وكاد يتقيأ لكنه تحامل على نفسه وسار إلى الجامع.

لم يكن فيه إلا ثلاثة رجال وامرأة، زادوا اثنين حين حضر موعد الخطبة.

وقف الإمام على منبره، وجال ينظره في أنحاء المسجد، ثم قال:

- *«أين الناس؟»*.

فأجابت المرأة:

- *«في التراب»*.

واسترجع الشيخ، قصّر خطبته، بكى وهو يدعو، ولم يطل بصلاته.

وبطريق عودته، عرج العباس حتى وصل إلى بركة الحبش، فوجدها وقد أسن ماؤها، وعلا صفحتها عفونة خضراء، وغاب عنها الإوز بينما تكاثرت الضفادع، وحتى كرمة العنب فوقها اصفرت وذبلت.

استوحش كما لم يفعل من قبل.

ورجع منزله، فدخل بلا كلمة، استقبلته حميدة وتاييري فأشار إليهما أن ابتعدا، ثم سأل:

- *«أين المجرفة؟»*.

- *«لأي شيء تحتاجها؟»*.

فلم يجبها.

لم يدخل الدار ثانية، بدأ يحفر قبرًا ببستان منزله، يعمل فيه طوال النهار وهو يتلو القرآن، وينام قريبًا منه ليلًا.

وقبل فجر الجمعة التالية، قامت حميدة من نومها وقلبها مضطرب، خرجت من غرفتها فوجدت تاييري تخبز بصمت، فسألتها:

- *«أين العباس؟»*.

أجابتها:

- *«لا بد أنه لا يزال نائمًا عند حفرته، انتظري فخذي الخبز له»*.

هزت حميدة رأسها، ثم قالت منتبهة:

- *«وما أيقظك بتلك الساعة؟»*.

صمتت المرأة مهمومة، ثم همست:

- «*حلم أفزعني*».

فازداد اضطراب حميدة، وخرجت من الدار إلى زوجها، لكنها توقفت بمنتصف الطريق حين لم تره عند حفرته، اقتربت بخطوات بطيئة، وهي تتلفت حولها بحثًا عنه.

ثم سقطت على ركبتيها عند حافة الحفرة وهي تراه ممددًا فيها، في ثوبه الصيفي، وقد انقطع نفسه وسكن للأبد.

***

كان أول ما ظهر من أعراض حمل حميدة، أن تقيأت بالصباح التالي لدفن زوجها، وكان الناس قد ذهلوا بمصارعهم، فلم يَصَل عليه سواها وتابيري، ببستان دارهما، ثم أهالتا عليه التراب في حفرته.

سمعتها تابيري، وكانت لا تزال نائمة، ففتحت عينيها، وأرهفت السمع لأنين حميدة وهي تقيء، فهمست بدهشة وقد فهمت:

- «*ما أشد رحمتك!*».

ونزل من عينيها دمع حار.

ثم تتابعت العلامات؛ نوم متقطع، وحرقة بالصدر، وانقطاع طمث فتأكد الخبر.

واستطال الطاعون بمصر حتى كاد يفني كل أهلها..

ثم انقشع وكأنه سحابة مطر..

وذهلت حميدة بحملها هذا، بكت وضحكت، حدثت الجنين من شهره الأول، بعربية قومها القرشية، حكت له عن النبي محمد، وعن سيف علي، ورحمة الحسن بالمسلمين، وشجاعة الحسين، بل حكت له قصص جده الأكبر عبد المطلب الذي حفر زمزم، وعن قصي الذي جمع حوله أهله من بقاع الجزيرة وأسكنهم مكة. تلت عليه القرآن ساعة قبل نومه، كل ليلة، وإلى جوارها تابيري تسمع باستغراق وتسأل عن الكلمات التي لا تفهم معناها.

كانت على يقين أن جنينها يسمعها، وكانت قد رأت الرؤيا فيه وعرفت أنه ذكر.

في رؤياها كانت امرأة من آل محمد، قائمة على مولودها تقبله، زكية الرائحة، بهية، ذات جمال نبيل، حجابها النور، وسترها الاستبرق، همست بدهشة:

شعر بدوار، وكاد يتقيأ لكنه تحامل على نفسه وسار إلى الجامع.

لم يكن فيه إلا ثلاثة رجال وامرأة، زادوا اثنين حين حضر موعد الخطبة.

وقف الإمام على منبره، وجال بنظره في أنحاء المسجد، ثم قال:

- *«أين الناس؟»*.

فأجابت المرأة:

- *«في التراب»*.

واسترجع الشيخ، قصَّر خطبته، بكى وهو يدعو، ولم يطل بصلاته.

وبطريق عودته، عرج العباس حتى وصل إلى بركة الحبش، فوجدها وقد أسن ماؤها، وعلا صفحتها عفونة خضراء، وغاب عنها الإوز بينما تكاثرت الضفادع، وحتى كرمة العنب فوقها اصفرت وذبلت.

استوحش كما لم يفعل من قبل.

ورجع منزله، فدخل بلا كلمة، استقبلته حميدة وتابيري فأشار إليهما أن ابتعدا، ثم سأل:

- *«أين المجرفة؟»*.

- *«لأي شيء تحتاجها؟»*.

فلم يجبها.

لم يدخل الدار ثانية، بدأ يحفر قبرًا ببستان منزله، يعمل فيه طوال النهار وهو يتلو القرآن، وينام قريبًا منه ليلًا.

وقبل فجر الجمعة التالية، قامت حميدة من نومها وقلبها مضطرب، خرجت من غرفتها فوجدت تابيري تخبز بصمت، فسألتها:

- *«أين العباس؟»*.

أجابتها:

- *«لا بد أنه لا يزال نائمًا عند حفرته، انتظري فخذي الخبز له»*.

هزت حميدة رأسها، ثم قالت منتبهة:

- *«وما أيقظك بتلك الساعة؟»*.

صمتت المرأة مهمومة، ثم همست:

- *«حلم أفزعني»*.

فازداد اضطراب حميدة، وخرجت من الدار إلى زوجها، لكنها توقفت بمنتصف الطريق حين لم تره عند حفرته، اقتربت بخطوات بطيئة، وهي تتلفت حولها بحثًا عنه.

ثم سقطت على ركبتيها عند حافة الحفرة وهي تراه ممددًا فيها، في ثوبه الصيفي، وقد انقطع نفسه وسكن للأبد.

***

كان أول ما ظهر من أعراض حمل حميدة، أن تقيأت بالصباح التالي لدفن زوجها، وكان الناس قد ذهلوا بمصارعهم، فلم يُصَل عليه سواها وتابيري، ببستان دارهما، ثم أهالتا عليه التراب في حفرته.

سمعتها تابيري، وكانت لا تزال نائمة، ففتحت عينيها، وأرهفت السمع لأنين حميدة وهي تقيء، فهمست بدهشة وقد فهمت:

- *«ما أشد رحمتك!»*.

ونزل من عينيها دمع حار.

ثم تتابعت العلامات؛ نوم متقطع، وحرقة بالصدر، وانقطاع طمث فتأكد الخبر.

واستطال الطاعون بمصر حتى كاد يُفني كل أهلها..

ثم انقشع وكأنه سحابة مطر..

وذهلت حميدة بحملها هذا، بكت وضحكت، حدثت الجنين من شهره الأول، بعربية قومها القرشية، حكت له عن النبي محمد، وعن سيف علي، ورحمة الحسن بالمسلمين، وشجاعة الحسين، بل حكت له قصص جده الأكبر عبد المطلب الذي حفر زمزم، وعن قصي الذي جمع حوله أهله من بقاع الجزيرة وأسكنهم مكة. تلت عليه القرآن ساعة قبل نومه، كل ليلة، وإلى جوارها تابيري تسمع باستغراق وتسأل عن الكلمات التي لا تفهم معناها.

كانت على يقين أن جنينها يسمعها، وكانت قد رأت الرؤيا فيه وعرفت أنه ذكر.

في رؤياها كانت امرأة من آل محمد، قائمة على مولودها تقبله، زكية الرائحة، بهية، ذات جمال نبيل، حجابها النور، وسترها الاستبرق، همست بدهشة:

- *«من أنتِ؟»*.

فأجابتها المرأة بصوت عذب:

- *«بارك الله في ذريتك»*.

- *«من أنت؟»*.

فلم تجبها..

وواستها تابيري كأمها، ربما أكثر، إطعامًا وتطبيبًا، وفي الليالي الباردة لا تنام إلا محتضنة إياها.

لكن دارهما أفجعت بخوف شامل بالشهر الثامن لحملها، ذلك أن تابيري استيقظت محمومة، فقامت بسرعة من جوار حميدة التي فتحت عينيها، ورأت العجوز وهي تستند على حائط الدار بيد مرتعشة ووجه متعرق رغم برودة الليلة، فقامت من سريرها محاذرة السقوط واقتربت منها بسرعة فاحتملتها وهنا رأت عينيها التائهتين، وشفاها الجافة. انقبض قلبها، وكان الطاعون قد غاب، لكن أخبار الموتى الفرادى به لم تنقطع.

لكن حميدة لم تهب تابيري، قبلت رأسها، وأعانتها حتى أعادتها إلى سريرها، وغطتها، ثم حملت الماء في طست صغير، وبدأت تمرره على جسد المرأة لتخفف الحمى وهي تتلو القرآن، فغابت تابيري في نوم عميق.

ولما استيقظت، رأت حميدة نائمة على قدميها وفي يدها خرقة مبللة..

اعتدلت تابيري برفق تنظر إليها..

ذلك الرسم الجميل لوجهها، يمكنك أن تتلمس يد الله فيه، الصدق الطاهر يشع في أرجائه، وحتى رائحة الأنفاس الزكية من فم لا يتكلم إلا بطيب..

سألت نفسها:

- *«كيف قتل العرب أهل هذه؟!»*.

أغلقت عينيها، ورفعت يديها إلى السماء ودعت:

«اللهم إني قد اتبعتك في كل ما عرفتك فيه؛ امرأة مسيحية، ثم أسلمت.. اللهم إني أسألك بحبك للمسيح وأمه، وبحبك لمحمد وآله، أن تبقيني حتى أرى ذرية هذه الفتاة، وأعينها في تربيتهم. اللهم أطل عمري طويلًا جدًا جدًا».

بعدها بأسابيع قليلة، تسلمت بيدها وليد حميدة من يد القابلة اليمنية، وبكت وهي تنظر إليه وإلى أمه.

قالت حميدة وهي تتأمله بعينين ملؤهما الرضا إنه أقرب الناس شبهًا بالحسين إلا من لون عينيه، وكانتا بلون فضي يندر أن يُرى في أولاد العرب.

سقطت دمعة من عين تابيري على يد المولود، فمد يده الأخرى يتحسسها بشغف! أين بكاؤه؟! لا يبكي، فقط يرهف السمع منصتًا لكل كلمة، محركًا رأسه تلقاء من نطق بها، حتى أن القابلة قالت: «يا الله!».

- *«تريدين أن تسميه يا تابيري؟»*.

رفعت المرأة عينيها إلى حميدة بدهشة، واضطربت شفتاها ببكائها، ثم همست كالمستأذنة:

- *«عيسى؟»*.

- *«ليكن عيسى بن العباس بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم»*.

- *«نعم»*.

قالت تابيري وهي تضحك بين دموعها، فقط غابت ضحكتها حين سمعت صاحبتها تهمس:

- *«ليتك كنت هنا أيها العباس، أو ليتني أكون معك»*.

***

كان آل عبد الله بن العباس بن عبد المطلب قد عُرفوا بجمال الخلق، والخلقة، والعلم، فورث منهم عيسى كل ذلك مجمعًا، ونبهت علامات مبكرة بنباهته، منها أنه نطق جملًا من أربع كلمات قبل أن يتم عامه الأول، وتعلم عربية سليمة قرشية في عامه الثاني، فاتفقت حميدة، وتابيري أن تتحدث كل منهما لغتها خالصة حتى يتعلمها منهما بنفس الوقت، فنطق الطفل باللغتين العربية والقبطية نطقًا حسنًا مع نهاية عامه الثاني.

وكان خير مصر قد شح، وغشتها كآبة فقر وحاجة وظلم، بعد أن غادرها عبد العزيز بن مروان، وخلفه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وكان ظلّامًا، غير مكترث للحكم، منصرفًا إلى اللهو.

ضاعف الضرائب، وضيق على الناس، فغلت الأسعار، وتفشى الظلم، وافتقر كثيرون، حتى أن تابيري وحميدة قد جاعتا أيامًا.

كما انقطع الوالي عن عمران مصر إلا من قصوره، فتداعى بعض حوائط جامع عمرو، ولم يعد يتسع للمسلمين من عرب وقبط وحبش فتزاحموا فيه، أما بركة الحبش، ملتقى حميدة والعباس، فغدت ملجأ للوحش من الحيوان، وانقطعت عنها حميدة مخافة شرها.

ولما أتم عيسى عامه الرابع كانت تابيري قد صنعت له ثوبًا من قطن وعمامة صغيرة، ألبسته أمه إياهما، ثم أوقفته أمامها وهي تنظر له متأملة، وقالت:

- «*يا عيسى.. ما أشبهك بالحسين بن علي! فكن مثله*».

وشدته إليها مقبلة رأسه..

- «*اليوم آخذك إلى جامع عمرو بن عاص، ستصلي الظهر هناك ثم تجد حلقات علم، فكن فيها*».

- «*في أيها أجلس يا أمي؟*».

- «*دُر عليها كلها، يومًا بعد يوم، حتى تجد قلبك في إحداها، فتستقر فيها*».

- «*وأنت، هل ستجلسين بحلقة للنساء؟*».

- «*لا يا صغيري، بل أتفق معك على موضع خارج الجامع أنتظرك فيه لنعود معًا*».

خرجت بالصغير، جرت خلفهما تابيري تعطي عيسى حقيبة وضعت بها قربة ماء، وبعض رطب، ناولتها إياه وهي تقول محذرة:

- «*لا تشرب من ماء الجامع، ولا تأخذ الطعام من أحد، فقط مما نعطيك إياه*».

ابتسمت حميدة لقولها وقالت:

- «*لو سمعك العباس تقولينها لغضب*».

فأجابتها:

- «*كان ليغضب، ويلومني، لكن ليس من نصحي عيسى، وإنما فيكِ أنت يا حميدة. قد هزلت يا ابنتي، حتى ثوبك صار علي أن أضيقه مرة أخرى!*».

هزت رأسها وقالت:

- «*بل اتركيه على حاله*».

ولما وصلا الجامع، انطلق عيسى إلى الرجال، بينما ظلت حميدة بالخلف مع النسوة، فلما انقضت الصلاة، خرجت من الجامع تنتظره بالمكان الذي اتفقا عليه مستظلة بشجرة موردة

جلست تحتها، لكنها لم تنتظر إلا يسيرًا حتى خرج إليها عيسى وعلى وجهه أمارات الخيبة، فوقفت تستقبله بقلق وسارعت تسأله:

- *«أخرجوك!»*.

- *«لا يا أمي»*.

- *«فما أخرجك؟»*.

- *«ليس بالجامع حِلق»*.

- *«ماذا؟ علك لم تنظر جيدًا!»*.

- *«بل سألت الإمام فقال لي أنه لم يعد في الجامع مَن يعلم الناس فيه»*.

- *«لا حول ولا قوة إلا بالله»*.

همست، وهي تضع ذراعها على كتفه عائدين إلى دارهما.

هناك، أخرجت أدوات أبيه العباس؛ أقلام الخوص، وبعض الرقاع الخالية، وبدأت تعلمه بنفسها، فبدأت باللغة، والحديث مما ورثت من أهلها منقولًا عن النبي..

ثم علمته أن يجول ببصره في الجامع بعد الصلوات، فإن توسم في أحد المصلين خيرًا، جلس يسأله أن يعلمه من أمور الدين وإن لم يكن فقيهًا.

وفي أحد الأيام، وهي تنتظر خروج ابنها بعد صلاة العصر، أقبل إليها شاب حديث السن، نحيف، أبيض الوجه، حسن اللحية، في جبهته أثر جرح قديم لا يعيبه، وفي قسماته سمت قرشي، سلم عليها فردت السلام، وأشاحت عنه، فقال:

- *«ألا تذكرينني يا خالة؟»*.

التفتت إليه تتفحصه، فقال باسمًا:

- *«أنا ابن صاحبتك»*.

- *«أية صاحبة؟»*.

- *«أنا عمر بن عبد العزيز»*.

أنار وجهها بسعادة وهي تنظر إلى الشاب وتتذكر الأيام البعيدة، وقالت:

- *«يا عمر! شد ما بدلتك الأيام!»*.

- «عله يكون خيرًا إن شاء الله».

هزت رأسها موافقة، ثم قالت:

- «ما عاد بك إلى مصر؟».

- «قد شكى أهل مصر واليهم عبد الله بن عبد الملك إلى أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأرسلني الخليفة لأحقق في شكواهم».

- «بئس الوالي هو».

قالت دون مواربة، فغابت ابتسامة عمر، واعتدل في وقفته، وسألها:

- «أخبريني ما صنع بكم».

- «بل يخبرك أهل مصر عن شره، أما أنا فاسمع مني هذه، ها هو جامع عمرو بن العاص، قد فاض بأهله فلم يوسّعه، وانقطع التعليم فيه بعد أن منع مؤونة العلماء وحاربهم، ولا زلت أرسل ابني عيسى إلى الجامع ليتفقه فلا يجد معلمًا، وإن مَنّ عليه رجل صالح من المسلمين كان من بره وليس بأمر الوالي».

بهت عمر بن عبد العزيز، ولم ينطق، وتفحص ثوبها بنظرة سريعة فوجده مرقعًا بأكثر من موضع، وهاله نحولها، فسألها بصوت رقيق:

- «استبشري خيرًا يا خالة، لكن أخبريني، ألك حاجة أخرى أقضيها لك؟».

«نعم»، أجابت، فهز رأسه مصغيًا..

- «اجعل لابني من يعلمه اللغة والخط والقرآن والحديث».

- «أفعل، لكن زيدي في طلبك رحمك الله».

- «لا أطلب غير ذلك».

قالت وهي تلتفت عنه إلى عيسى الذي خرج يهرول من الجامع باتجاهها، يرف في ثوب نظيف جديد، انحنت تحتضنه وهو يصيح:

- «علمني رجل يماني سورة عبس!».

- «وحفظتها؟».

سألته بسعادة فصاح: «كلها»، وابتسم عمر للطفل، دعاه إليه، ثم انحنى ينظر في عينيه وتلمس شعره وهو يسأله:

- «*بكم يوم حفظتها؟*».

- «*اليوم فقط*».

- «*ما أسرع ما تعلمتها!*».

قال وهو ينظر إليه، ثم رفع عينيه إلى أمه وقال: «هذا صبي نجيب»، فقال عيسى بفخر:

- «*سأكون عالمًا مثل جدي عبد الله*».

- «*أي عبد الله تقصد؟*».

سأله عمر مبتسمًا، فأجابه ببساطة:

- «*عبد الله بن العباس*».

«ابن عم النبي؟!»، سأله بصوت مبحوح فهز الولد رأسه، والتفت عمر إلى أمه في دهشة، ثم همس: «تالله يا خالة، قد علمت أن فيه سمتًا قرشيًا».

وأخذ يد عيسى بين راحتيه، ثم قال:

- «*أبشر أيها الصغير، لأرسلن لك خير أهل الأمصار علمًا*».

ولما غادر عمر بن العزيز مصر بأخبار الوالي، أرسل إلى بيت حميدة كيسًا من ذهب، وكساء ثلاثة أعوام لها ولتابيري ولعيسى، وأجولة قمح ودقيق وزبيب، وصفائح جبن، ومحابر ورقاع وأقلامًا.

بعدها بيسير، أرسل الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى مصر قرة بن شرحبيل، وكان رجلًا جلدًا ذا جد، خشنًا، جبارًا عند الغضب، فدخل على عبد الله بن الملك يخبره أنه خُلع عن مصر، وأن عليه العودة إلى أخيه بالشام، فذهل عبد الله، وقال لقرة بن شرحبيل: «تبقى ضيفي حتى أرسل لأخي»، فهز الرجل رأسه قائلًا بجفاء: «بل أنت الآن ضيفي، وغدًا تخرج إلى أخيك بأهلك».

هكذا غادر عبد الله بن عبد الملك مصر مكللًا بالعار واللعن، لكنه حمل معه مالًا كثيرًا، وأكسية حريرية، وتماثيل ذهبية، وغيرها من خير مصر، فقابله حرس أخيه قبل دمشق، وصادروا كل ما معه تنكيلًا، فلم يدخل دمشق إلا بأهله، وما عليه من ثوب.

وشرع قرة بن شرحبيل بالعمل من فوره، فهدم جامع عمرو، وأعاد بناءه بتوسعة هائلة حتى أدخل فيه دار عمرو بن العاص، وجعل له أحد عشر بابًا، وعين فيه علماء وحفظة قرآن

وخطاطين وجعل لهم راتبا، فانتشرت حلقات العلم فيه من الظهر حتى العشاء.

أما عيسى، فقد أرسل له عمر بن عبد العزيز المعلمين من مصر، ثم أتبعهم بعلماء من المدينة المنورة، ونبغ الصبي فذاع خبره في الفسطاط، وتنبأ له أهلها بعلم يماثل علم جده.

وتتابعت أخبار خير على حميدة، فدخل مصر بعض آل البيت، واستضافت بعضهم بدارها، فسمعت منهم أن أمها لا تزال حية بالمدينة المنورة، وقد تزوجت من المنذر بن عبيدة بن الزبير بن العوام.

لكن هزالها اشتد، وغابت النضرة عن وجهها، وتتابعت عليها الرؤى، فكانت ترى زوجها كالمنتظر، ينظر إليها بصبر.

وفي يوم خريفي، جالست تاييري في غدائها، وأكلت معها جيدًا على غير عادتها، ثم تركت ابنها مع معلمه، وانطلقت إلى بركة الحبش، وكانت قد حلمت بها في ليلتها السابقة فنوت زيارتها على ما بها من خراب.

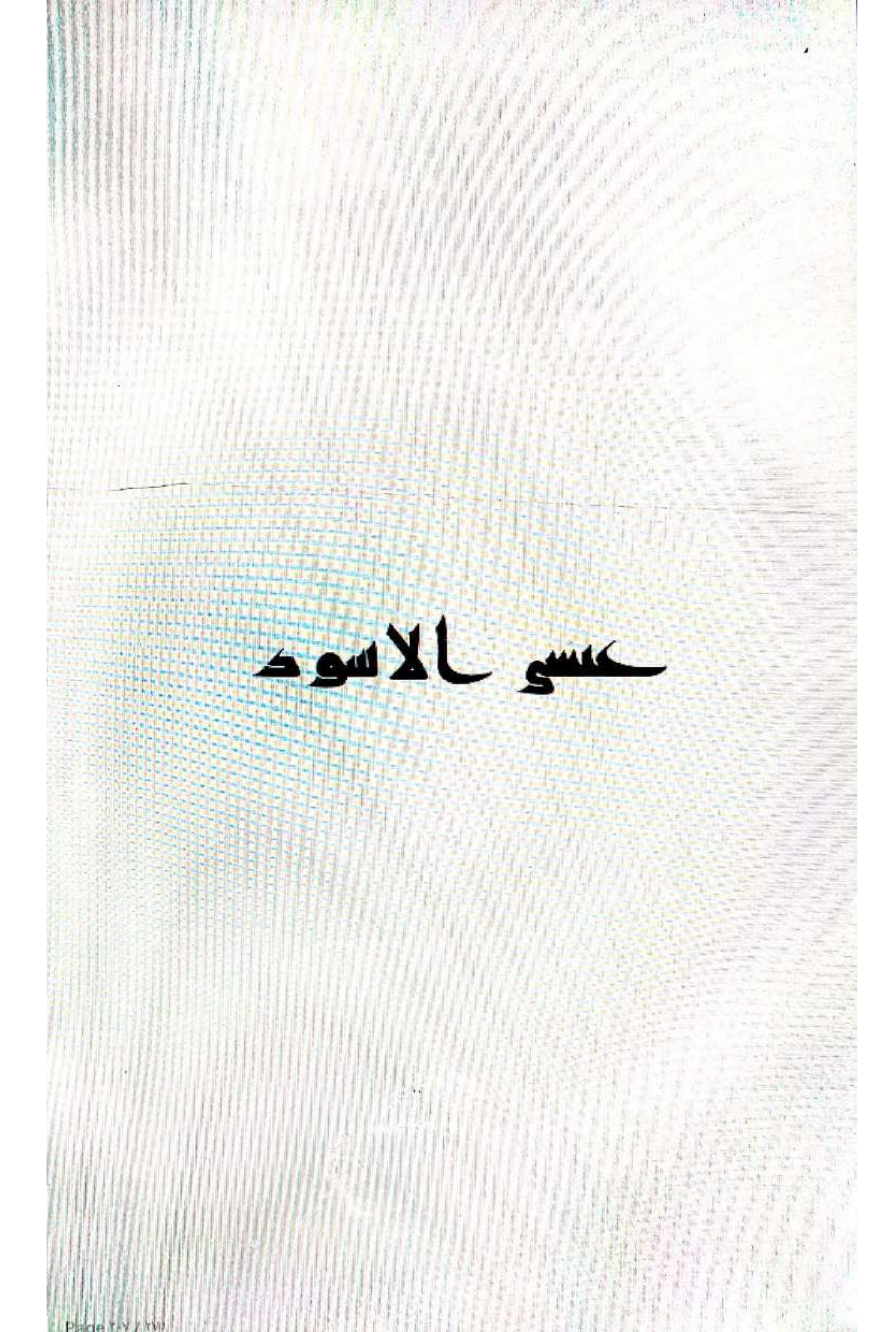
لكنها حين وصلت إليها، وجدتها وقد عمرت! فطَهُر ماؤها، وبنيت تكعيبات خشبية جديدة نبتت عليها سيقان العنب، كما زرع القصب والنعناع والفل حول حوافها!

ضحكت وهي تنظر إليها، وجلست عندها حتى المغيب وكأنها الصبية الصغيرة التي تنتظر حبيبها العباس.

ونامت عندها والشمس تغرب، فرأته في منامها ينتظرها بصبر..

فذهبت إليه..

ولم تعد إلينا.


عيسى الاسود

لما ماتت حميدة، خاطت تابيري لنفسها، ولعيسى ثيابًا سودًا حدادًا على أمه، فلما ارتدى عيسى اللون الأسود لم يخلعه أبدًا.

لما شبَّ التحق بجامع عمرو بن العاص طالبًا، ثم عالمًا فقيهًا له حلقة.

أسماه الطلبة بتلك الحلقات «عيسى الأسود»، لما رأوا لون ثيابه وعمائمه.

كان دائم الصمت إلا في دروس العلم، كثير التفكر، لا صاحب له، ولا يُرَى ضاحكًا أبدًا.

والحقيقة أن حزنه على فقد أبيه وأمه، ومن قبلهما ما قيل له عن حكايات أجداده، جعل حزنًا دائمًا يغلف كل الموجودات حوله.

آمن أن الحياة شر دائم، وأن لحظات الخير فيها لا يمكن أن تقارن بتطاول قرون ظلمتها، فزهدها.

وأرادته تابيري أن يكون ذا شأن بين العرب مثل عمه علي بن عبد الله بن العباس، وكانت تحتفظ في ذاكرتها بصورته المهيبة في حلته الدمشقية وحوله أتباعه. فأرسلته في سن صغيرة ليتعلم ركوب الخيل، ولما أعاده المدرب طالبًا منها أن تنتظر حتى يكبر، زادت في عطائه حتى وافق، ثم أنفقت مالًا كثيرًا على رحلته إلى الإسكندرية ليتعلم هناك السباحة والرماية، كما أجاد القبطية بتلك الرحلة أيضًا، كتابة، وكان يجيد الحديث بها.

وحين عادت به إلى الإسكندرية كان جسده قد استقام قويًا، أكبر من سنه في بنيانه، شديد الطول والتناسق، وعليه تاج الوقار الذي عُرف به آل بيت العباس.

لكنه امتنع عن الزواج، رفض كل من أشارت عليه تابيري به من نساء العرب والقبط، وانقطع لعمله بالزراعة في حقولها، ودروسه بالجامع، ومثل أبيه امتهن الخط حرفةً فكان يسهر على رقاعه ليلًا.

بليلة هادئة دخلت عليه غرفته، فوجدته منكبًا على رقعة ينقش فيها آيات، فجلست إلى جواره تتابع عمله الجميل، ثم قالت بصوت هادئ:

- *«لا أريد أن أموت قبل أن أرى عيالك».*

تابع دون أن يلتفت إليها أو يجيب، فعادت تكرر:

- *«يا عيسى.. حقق لي هذا الحلم، فوالله إني أحب أن أعيش مائة عام أخرى فأحمل عيالك، ثم عيالهم، ثم عيال عيالهم».*

وضع قلمه، ورفع عينيه إليها وقال:

- *«من يعش طويلًا يا تابيري، يدفن كثيرًا من أحبائه».*

- *«يعوض المولود المفقود من أهله».*

- *«حقًا؟!».*

سكتت، فالتفت عنها وعاد إلى رقعته. توقفت ومشت إلى صندوق أمه، ففتحته، سمع صوته لكنه حاول أن يتجاهله، أخرجت منه تابيري المشجرة التي كتبها العباس لأهله، عادت بها إليه، وضعتها أمامه وقالت وهي تشير إلى فرعي أبيه وأمه:

- *«انظر يا عيسى.. انظر إلى هذا الفرع».*

أشارت إلى الاسمين؛ العباس وحميدة، رسمهما العباس قبل موته، ومنهما فرع جديد ظاهر مات قبل أن يكمله فخطت فيه حميدة اسم «عيسى» ثم جعلت منه فرعًا جديدًا لا يزال من دون اسم.

- *«لا يزال الفرع الذي رسمته أمك ينتظر صاحبه».*

تنهد عيسى، أمسك قلمه، غمسه في الحبر، ثم رسم خطًا أفقيًا تحت الفرع وهو يقول لتابيري:

- *«انتهى هذا الفرع يا تابيري. لا ذرية له».*

رمقته تابيري صامتة، همست بغضب:

- *«ليتني أضربك فتستمع».*

فابتسم لها، وهو أمر نادر، وقال:

- *«أنت الوحيدة التي إن فعلت، فلن أقتص منها».*

فضحكت العجوز واحتضنته.

ومرت سنوات..

هرمت تابيري، لكنها استمرت تتسوق، وتطبخ، وتنظف الدار إن استطاعت، ثم استعانت بأخريات لما كثر مالها ومال عيسى الذي ورثه، وكانت قد استثمرته جيدًا في التجارة.

بأحيان كثيرة كانت تجلس عند قبر حميدة الذي جعلته مجاورًا لقبر زوجها فكانت تحكي لها عن أحوالها، وأحوال ابنها.

ولما بلغ عيسى الخامسة والثلاثين، اضطربت الفسطاط بشتاء لم تعرف له مثيلًا منذ

سنوات بعيدة.

أمطرت السماء بلا توقف، سبعة أيام بلياليهم، حتى فاض النهر، وهدم الدور، وأغرق الناس والحيوان، وامتنع الناس عن الخروج من بيوتهم، فقل رواد الجامع، وبدأت السلع تشح..

وفي الليلة السابعة من ذلك المطر المستمر سمع عيسى طرقًا على باب داره فرفع رأسه من على رقعته، وتوقف مكانه..

كانت الأقاويل تثار بتلك الأيام عن اغتيال بني أمية لرجال من بني العباس..

أمسك بخنجره اليماني وهو يلف عمامته على رأسه، وانطلق إلى الباب بحذر فلما فتحه وجد شابًا أديمًا قد فعل به المطر والسفر ما فعل حتى حال لون ثوبه، وتساقط الماء من كل شبر فيه، ونزفت أصابع قدميه. استرق عيسى نظرة نحو أوسط الرجل فرأى سيفه في غمده، فتلمس خنجره الذي أخفاه في طيات ثوبه مثلما علمته حميدة أيام صباه، وهز رأسه مستعلمًا دون أن ينطق فقال الشاب:

- *«سيدي عيسى بن العباس!»*.

- *«تكلم، ما وراءك؟»*.

حدق فيه الشاب لحظات، ثم التفت إلى حصانه حيث كانت أمتعته فأخرج من بينها عمامة بيضاء وهو يقول:

- *«أنا رسول زيد بن علي إليك»*.

رمشت عينا عيسى، وسأل بصوت محشرج:

- *«أي زيد؟»*.

- *«سيدي زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب»*.

انفتحت عينا عيسى عن آخرهما، وضع يده على كتف الرجل، وهو يخرج من بابه متلفتًا حوله. كانت الظلمة مستفحلة، والمطر قد ترك الشوارع خاوية من البشر، سحبه إلى الداخل سريعًا، وأغلق بابه مشيرًا إلى أقرب الكراسي إليه ليجلس، ورفع رأسه إلى ركن الدار فأبصر تابيري مستندة إلى الحائط تتابع ما يحدث بوجل فأخذ نفسًا عميقًا، وجلس أمام الشاب وسأله:

- *«أخبرني باسمك»*.

- *«اسمي كثير بن طارق، وأنا تلميذ الإمام»*.

- «فيمَ أرسلك؟».

رفع التلميذ رأسه إلى عيسى، قرب وجهه إليه وهمس:

- «أفي البيت من يسمع؟».

- «نعم».

- «تأمنه؟».

- «تكلم».

- «يتجهز الإمام زيد للخروج، وقد أمرني أن أعلمك فإن أجبت سرت بك إليه».

تأخر عيسى في مقعده، وهو ينظر إلى كثير، وفي موضعها الذي تسترق السمع منه، ارتجفت تابيري.

- «سيخرج على هشام بن عبد الملك؟».

ضرب صوت رعد السماء فلم يسمع بما أجابه، فكرر كثير ما قاله:

- «سيخرج على بني أمية».

- «كلهم؟!».

- «نعم، يريد إقامة خلافة حق كما أرادها النبي محمد».

- «فمن معه؟».

- «كثير من رجالات الأمصار، وقبائل خزاعة، وعبد القيس، ومذحج، وكندة، وهمدان».

- «وغيرهم!».

- «رجال من مكة، والمدينة حيث نشأ، واليمن، بل وبعض أهل الشام أيضًا».

- «والعلماء!».

ابتسم كثير، وهو يجيبه:

- «أكثرهم معه، وقد أعانه الإمام أبو حنيفة النعمان بالمال من أجل السلاح».

تأمله عيسى، مد يده إليه يتناول العمامة بحرص، مست أصابعه يد الشاب فرفع رأسه إليه وسأله:

- «يدك ساخنة. مريض أنت؟».

هز الشاب رأسه نافيًا، فتوقف عيسى، وهو يقول:

- «انتظر هنا ريثما نجهز لك طعامًا تتقوى به من أجل رحلتك».

- «وبمَ أجيب الإمام؟».

- «تسمع الإجابة بعد أن تفرغ من طعامك إن شاء الله».

ولما قُدم الطعام، تركه يأكل وحده بينما دخل غرفة أبيه وأمه، وكانت تابيري قد أغلقتها وتركتها على حالها، تنظفها مرة كل شهر، ولا تستعملها ولم تُخرج منها إلا صندوق أمه الذي طلبه عيسى لما كان صبيًا.

تأمل ما بقي منهما فيها؛ أوراق أبيه وأقلامه، ثياب أمه، عباءة مزركشة من المغرب كانت أمه قد أخبرته أن أباه يحبها، ودفنته لما مات في أختها، المكحلة والمشط، هناك بعض شعرات لا تزال في ذاك المشط، الناعمة منها لأمه، والثقيلة السوداء لأبيه. كان قلبه يدق سريعًا حتى أن أنفاسه تقطعت. حاول أن يهدأ ثم سمع صوت خطوات تابيري البطيئة وهي تدخل الغرفة فأغمض عينيه عنها.

اقتربت منه، وضعت يدها على كتفه وسألته:

- «لم أبقيته حتى الآن يا عيسى؟».

خفض رأسه، وهمس:

- «أفكر إن كان علي أن أمضي وحدي إلى الإمام، أم أذهب معه الآن».

- «أي إمام؟!».

- «زيد بن علي بن الحسين».

- «وما أدراك به؟!».

- «راسلته منذ سنين».

أدارته ناحيتها، وهي تنظر له لائمة. فتح عينيه ونظر إليها.

- «إن أردت أن تعيش يا عيسى، وجب عليك أن تبتعد عن هؤلاء».

- «هؤلاء هم قومي، ولا والله، لا أريد أن أعيش».

صاحت فيه غاضبة:

- «الموت إذًا هدفك أيها العاقل!».

- «ولا الموت».

- «فما إذًا؟».

- «الله، وإقامة العدل».

تأوهت من ألم قدمها وحزنها، فأعانها حتى جلست وجلس جوارها، وضع يده على يدها ودنا منها. كان جسدها قد تضاءل بفعل العمر، وحين رفعت وجهها إليه بدت كطفلة تنظر إلى أبيها، في عينيها دمع، كثيرًا ما يكون هناك منذ ماتت حميدة، ابتسم مشفقًا فهمست مأخوذة:

- «أنت جميل حين تبتسم».

مترفقًا قال لها:

- «لا يمكن أن تستمر أمة النبي تحت حكم بني أمية. لا يرضى الله بذلك. يحكمنا فاسقهم، وظالمهم، ويضيع ديننا بدنياهم. بل إن خيرهم الذي كانوا يرشون به الرجال والقبائل فيقاتلون معهم ويسكتون عن الظلم قد شح. ألا ترين الفقراء في أسواقنا يا تابيري يزداد عددهم كل عام؟ ألا يُذل المسلم في أرضه، ويمنع عنه خيرها؟ ألا ينقص دين محمد منذ جاؤوا؟».

- «بعضهم أمراء أحسنوا يا عيسى. أذكر ذلك الرجل الذي كان جارنا، ما اسمه؟».

- «عمر بن عبد العزيز».

- «نعم، هو. خارت ذاكرتي. ألم يكن قد أحسن إلى المسلمين؟».

- «لكنهم قتلوه يا تابيري، وهدموا إرثه».

- «أنت لم تشهد ملوك مصر قبل أن يصلها العرب. كانوا أسوأ من ملوك اليوم».

- «لا يقبل ديننا ذلك».

بكت قائلة:

- «ليس لي شأن بذلك. أنا مسنة، وأريدك معي بآخر أيامي. تتزوج هنا، ويكون لك ذرية أراهم قبل أن أموت».

ثم انثنت شفتاها كطفلة وقالت:

- *«ماذا سأقول لأمك إن حدث لك مكروه؟»*.

- *«أمي ميتة»*.

- *«عندما ألحق بها، ما أقول لها؟ قد ضيعت ولدك!»*.

- *«لا يحزن الأموات لوفاة أهلهم. يستبشرون بموت الصالحين منهم. لا يُحزن الميت إلا فساد أهله من بعده، وأنت يا تابيري أنشأتني كما كانت أمي لتفعل»*.

أراحت رأسها على كتفه، وهمست:

- *«أخاف أن أموت وحيدة»*.

- *«أعلم هذا»*.

من الخارج ناداه كثير، فرفعت تابيري رأسها مرتعبة، ونظرت إليه. ربت على خدها، أومأ إليها وهي يهمس:

- *«قد حان الوقت»*.

بفجر ذلك اليوم، غادر عيسى الأسود برفقة رسول الإمام زيد إلى العراق.

وقفت تابيري تودعه.

لم تمكنها عيناها الضعيفتان من إبصاره طويلًا في الظلمة. فقط رأت ظلالًا مبهمة تسري حتى تختفي في المطر.

دخلت منزل حميدة والعباس.

مستندة إلى حوائطه، تتأمله..

جلست أمام الصندوق محاولة أن تكتم دمعها. عضت شفتيها، مدت ذراعيها إليه، وجعلت وجهها فوقه، ثم انفجرت في البكاء.

رفعت عينيها إلى السماء، وقالت برجاء:

- *«يا ربي.. يا أيها الرحيم.. أحيني حتى أرى أولاد عيسى، لا أريد أن أموت، أو يموت»*.

***

تسلل الرجلان مستترين بالمطر والظلمة.

جواسيس هشام بن عبد الملك في كل مكان، يبحثون عن أنصار الخوارج والعباسيين

والإمام.

انطلقا من الفسطاط إلى بلبيس، ومن بلبيس شمالًا حتى جاورا البحر بالعريش، ومن العريش إلى غزة، ومن غزة قطعا المسافة شرقًا حتى القدس، ومنها جنوبًا إلى بادية الشام خوفًا من رجال الخليفة المنتشرين في دمشق وعمان وما جاورهما من مدن.

كان عقل عيسى مزدحمًا بكل ما رآه في مسيره؛ المدن العظيمة وأهلها، البحار والجبال والصحاري، السهول الساحلية وخيام القوافل، القبائل ولهجاتهم وثيابهم. كان بطبعه ميالًا إلى العزلة، لكنه فكر في أنه لا يعرف الله حق قدره رجل لم يقطع الأرض مسافرًا.

لكن ذلك لم يكن شغله الوحيد، إنما اغتم بمرض رفيقه، ولما دخلا الطريق القاحل بالبادية حمي كثير، فانقطع له عيسى يطببه بما تيسر، وهو يقول له:

- *«عله التعب من أثر السفر تحت المطر».*

- *«عله يكون كذلك».*

أجابه كثير.

مكث محمومًا ثلاثًا ثم مات، فغسله عيسى، وصلى عليه، ولحده دافنًا إياه محل موته.

ثم انقطعت به السبل.

لم ينقطع المطر، فلا خوف من ندرة الماء وقد تكونت البرك بكل موضع، وخزن الصخر مياهًا كثيرةً، لكنه لا يعرف الطريق إلى الكوفة حيث الإمام.

هام على وجهه أيامًا على غير دراية، يجر الحصانين؛ حصانه وحصان صاحبه، وارتقى صخور جبل رملي، متفحصًا المكان من حوله عله يجد سبيلًا يهتدي إليه، فرأى غير بعيد، جنوبًا في الاتجاه الأبعد عن الشام، راية حربية لجند بني أمية ترفرف فوق خيمة كبيرة قد أوقدت نارٌ عندها.

نزل الجبل سريعًا، واقترب ما استطاع مستطلعًا لكنه رأى أنه مكشوف وليس هناك ما يحتمي به، فعاد وقد قرر أن يعاود المحاولة بالليل.

وصلته رائحة الشواء ولم يكن قد أكل منذ أيام، فعزم أن يسرق من طعامهم ما يستعين به على رحلته، ولما جن الليل وتعمق، تحرك عيسى متوشحًا بسيفه.

ابتلع الطين والمطر أصوات خطواته، فاقترب حتى وصل الخيمة، ولم يكن خارجها إلا النار ولحم وفير مما بقي من شواء الظهيرة كأن لم يؤكل منه إلا قليلًا! فمد يده إليه واقتطع

بعضه ودسه في فمه، ثم قطع مرة أخرى قطعة أكبر وضعها في حقيبته، وأقل عائدًا.

لكنه سمع جلبة من داخل الخيمة المظلمة فتمهل..

أرهف السمع، ميز صراخ امرأة، فخفض رأسه حائرًا.

اقترب خطوتين، فسمع لهاث رجل غاضب.

وصرخت المرأة ثانية بعربية كسيحة مغضبة، ثم ميز صوت السوط وهو يهوي عليها والرجل يلعنها!

احتقن وجهه غضبًا وهو يسمعها تصيح:

- *«أنا حرة! أنت لص! بم استحللتني؟!»*.

هنا تلمس مقبض سيفه، زفر بانفعال متوتر، ثم اندفع داخل الخيمة فرأى الرجل فوقها وقد خلع قميصه، في يده سوطه ويده الأخرى حرة يبطش بها، والمرأة تحته تدفعه بيديها وقدميها.

قبض عيسى على الرجل من طرفي ثوبه، احتمله عنها ملقيًا به إلى ركن الخيمة، وتجمدت الفتاة وهي تنظر إليه، بينما التفت هو إلى الجندي الذي التفت إليه مذعورًا للحظة، ثم لم يلبث أن صاح فيه غاضبًا:

- *«دخلت خيمتي دون إذني!»*.

- *«اترك الفتاة»*.

قال عيسى بهدوء، فصاح الآخر مستنكرًا:

- *«أترك أَمَتي؟!»*.

- *«قد سمعت غير ذلك»*.

- *«تصدق أعجمية، وتكذب رجلًا من جند الخليفة! مجنون أنت!»*.

وتوقفت المرأة بسرعة، كان ثوبها قد تمزق في غير موضع، احتمت بعيسى وقالت:

- *«هذا كذاب. قتل أبي، وأخذني»*.

ثم بكت، وهي تواصل:

- *«قتل أبي في غير حرب»*.

- *«بل كان قتالًا!».*

صاح الرجل، فقال له عيسى:

- *«ذهبت تقاتل وحدك؟».*

توقف الجندي وهو ينظر إليه بكراهية، وقال وهو يقترب من أمتعته:

- *«اسمع يا مقطوع النسب، أنت لا تعرفني، لا تعرف عشيرتي وما قد يفعلونه بك. اخرج من هنا، وارض بالنجاة، واترك هذه لي».*

هز عيسى رأسه رافضًا وهو يقول:

- *«لا تتكلم عن الأنساب».*

مد الرجل ذراعه إلى سيفه بين أمتعته فتابع عيسى:

- *«ولا تمدن يدك إلى سيفك وإلا قطعتها».*

اشتعل الرجل غضبًا حتى اسود وجهه، وقال:

- *«والله، إن مسستني لأجعلنك مُثلة! وإني لا أحسبك إلا خارجًا أو لص طريق».*

- *«سبحان الله! تحكم عليَّ بما لا تدري! سأغادر بهذه المرأة وأتركك، فاتركني فإني والله لا أحب أن أمد يدي بسوء لمسلم».*

- *«والله لا تذهب بها!».*

صاح الجندي وهو يقفز إلى سيفه، ويمسك به، ثم يصرخ ملتاعًا وهو ينظر إلى كفه وقد انفصلت عن باقي ذراعه متشبثة بمقبض السيف ونافورة دم تفيض من أوردته.

- *«قد حذرتك».*

قال عيسى مغتمًا بمشهد الدم، فانقض عليه الجندي صارخًا:

- *«لأقتلنك!».*

دفعه عيسى عنه ملقيًا إياه أرضًا، ثم التفت إلى الفتاة وقال:

- *«ألك متاع هنا؟».*

هزت رأسها بلا فأشار إليها قائلًا:

- *«لنغادر».*

خرجت أمامه، تبعها، لكن الجندي قفز إلى سيفه فأبعد عنه يده المقطوعة، وتناوله بيسراه وهجم على عيسى فالتفت إليه الأخير، ووضع سيفه في بطنه فاخترقه بسلاسة، وانفلتت عينا الجندي ببكاء ألم غير محتمل وعيسى يتأمله، ثم يهمس له:

- «*تشهد قبل أن تلقى الله*».

بكى الجندي، همس بالشهادة، ثم سقط عند قدمي عيسى محتضنًا ساقيه، فوضع الأخير سيفه على الأرض، وانحنى على الرجل، مدده على الأرض، أغمض عينيه، ثم التفت إلى الفتاة وسألها:

- «*ألديه ماء؟*».

- «*نعم*».

- «*أحضريه*».

لم تلبث أن عادت حاملة قربة ممتلئة، تناولها عيسى منها ثم قال:

- «*إن أردت فانتظريني عند تلك الهضبة، ستجدين هناك خيلي*».

وتناول الماء، سمى الله، ثم غسّل الجندي، وكفنه في ثوب نظيف وجده في أمتعته، وحفر له ودفنه، ولم يرض أن يأخذ من متاعه شيئًا حتى قطعة اللحم ألقاها.

ولما عاد إلى الهضبة كان الفجر قد كشف الظلمة، وكانت الفتاة هناك تنتظره فرأى للمرة الأولى وجهها الجميل.. لها وجه أبيض كالسحاب، وشعر له لون فروع الشجر، شديد الطول، عيناها ناعمتان فيهما نظرة نبيهة تلفهما أهداب ساحرة.

نزع عينيه عنها انتزاعًا، سألها وهو يمسح الدم عن سيفه:

- «*تعرفين الطريق إلى العراق؟*».

- «*أعرف الطريق إلى دومة الجندل*».

وجد أن عمامته قد ابتلت بدم ضحيته فخلعها، وبحث عن أخرى حتى وجد عمامة الإمام البيضاء، لفها حول رأسه وهو يسألها:

- «*ألك أهل هناك؟*».

هزت رأسها، لم يفهم إن كانت إجابتها نعم أو لا، لكنه لم يرد أن يطيل القول.

- «*أوصلك إلى هناك ثم نفترق*».

وخلع معطفه الثقيل فناولها إياه قائلًا:

- «*ارتدي هذا حتى تشتري ثوبًا جديدًا*».

فلما ارتدته اشتمت منه ريح طيبٍ خفيفة أشعرتها بلفحة باردة في قلبها.

- «*أنا مسلمة*».

- «*لم أسألك*».

- «*لم أكن لأحل للجندي*».

- «*حتى وإن كنت غير مسلمة، لم يكن يحل له ما فعل في غير قتال*».

تأملته لحظات ثم قفزت على أقرب الخيل إليها، فانتبه عيسى إلى أنها ولا بد فارسة، فعل مثلها، ثم انطلق الاثنان إلى دومة الجندل.

ولم تكن بعيدة.

مسيرة ثلاثة أيام في المطر.

اختار فيها عيسى التوقف والمبيت كلما وجدا مكانًا يصلح؛ مغارة، ثم أطلال قصر مهجور. ترك لها المغارة وبات خارجها، وفي أطلال القصر كان مبيته عند بابه.

ولما وصلا الدومة، استقبلتهما بساتين النخيل وقوافل التجار، فلما دخلاها وجدا مدينة عظيمة ملؤها الأسواق والقلاع والجوامع. نظر إلى الفتاة مرة أخيرة، وأخرج من كيسه مالًا ناولها إياه وهو يقول لها:

- «*هذا المال لك. اشتري به ثوبًا جديدًا قبل أن تلحقي بأهلك*».

تناولت المال بتردد، ثم انحنت لتنزل من فوق الحصان فقال مسرعًا:

- «*والحصان أيضًا لك*».

رفعت عينيها إليه، فهز رأسه وهو يقول لها:

- «*انطلقي إليهم*».

- «*اسمك.. لا أعرفه*».

- «*ولم تريدين أن تعرفيه؟*».

- «*أدعو لك*».

- «اسمي عيسى».

كررت الفتاة اسمه من بعده، ثم قالت وعلى وجهها ما يشبه ابتسامة وجلة:

- *«أنا إليانا»*.

- *«اكتمي عني أمري»*.

- *«أفعل»*.

أجابته، وهي تراه يهم بالمغادرة..

- *«لا يزال معطفك معي»*.

- *«هو لك»*.

- *«أين تذهب؟»*.

حدق فيها بغير فهم، فعادت تقول:

- *«لست من هنا. أين تذهب؟»*.

ابتلع ماء حلقه، كاد يجيبها لغير سبب مفهوم، لكنه تماسك ورفع يده بالسلام، ثم غادرها، وعيناها تتبعانه.

وكانت الكوفة على بعد أيام منه. اشترى طعامًا وثوبًا جديدًا، ثم انطلق إليها رأسًا ليلقى زيدًا وصحبه.

وكان قد سمع أحاديث، وهو لا يزال بدومة الجندل، بقرب خروج الإمام وانشقاقه عن الخليفة.

وفي جامع عمر بن الخطاب -الأقدم بالدومة، والذي أمر ببنائه لما كان أمير المؤمنين- عرف أن كثيرًا من الناس على بيعة سرية لزيد فاستبشر.

***

دخل الكوفة فانقبض صدره من زحامها، اختلاط الأعراق فيها واختلاف أنماط البناء بين القصور الباهرة ودور العبيد الفقيرة.

لم يصل إلى جامعها حتى قابل دوريات الجنود الأموية، أكثر جندها من غير العرب، كما قابل أنباطًا، وأعرابًا، وعرب جنوب، وأعاجم كثيرة من روم وترك وفرس.

سأل نفسه كيف استطاع الإمام زيد أن يجمع حوله جيشًا من كل هذه الأخلاط؟!

صلى الظهر بالجامع الكبير، ثم سمع بعد صلاته الدعاء للحسين وأبيه يُقال علانية من أحد رجال القبائل غير عابئ بعيون هشام بن عبد الملك وجنده، وتلفت حوله بدهشة وهو يرى الناس يؤمّنون بلا خوف على الدعاء!

اقترب منه شاب حديث السن، سأله وهو ينظر إلى سيفه:

- *«أنت غريب»*.

التفت إليه عيسى متفحصا، ولم يجبه. كان الشاب أمرد، كثيف الشعر، أميل إلى القصر، شديد النحول، يرتدي ثوبًا أبيض اللون استطاع عيسى أن يميز بقع الدهن عند أطراف كُميه.

أشار الشاب إلى سيف عيسى قائلًا:

- *«أقسم أنك قتلت بهذا السيف»*.

فأسرع عيسى ينظر إلى سيفه ليجد بقعة دم لا تزال هناك.

- *«لن تصل إلى زيد وحدك، فأجبني إن كنت تحتاج المساعدة!»*.

بوجل سأله:

- *«من أنت؟»*.

فابتسم الشاب ابتسامة واسعة، وقال وهو يفرد ظهره، ويشير إلى نفسه:

- *«اسمي أبادير»*.

ثم تضاءل، وهو يقترب من عيسى محاذرًا ألا يسمعه أحد، وتابع:

- *«وأنا خادم من أرسل لك عمامته»*.

امتدت يدا عيسى تلقائيا فوق رأسه فوجد أنه لا يزال يتعمم بالعمامة البيضاء. أشاح عن الشاب بغيظ مكتوم، فقال له:

- *«ليس هناك ما تخشاه، والآن اتبعني أوصلك إلى الإمام»*.

ووقف منصرفًا دون كلمة أخرى، فانتظر عيسى لحظات، ثم قام يتبعه..

سحب عيسى حصانه، ومشى خلف أبادير في مسالك الكوفة.

وجد عيسى أنها مقسمة حسب أصول سكانها؛ العجم، والموالي من أهل فارس، والترك

يعيشون في دور متلاصقة صغيرة، والعرب الشماليون وعرب الجنوب يعيشون في مناطق أرحب، محتمين بعشائرهم، مساكن الجند تحيط بالمدينة من جهاتها الأربع. تكلم أبادير وهو يدخل حارة ضيقة:

- *«لا تزال جموع الناس تأتي الإمام تبايعه. أحسب أن آلافًا سيخرجون لنصرته حين يأتي أمره، أكثرهم العلماء»*.

والتفت إلى عيسى وسأله:

- *«أنت أيضًا عالم؟»*.

لم يجبه وهو يتفحص الدور، كانت حالة كثير منها بائسة، حتى لتبدو المدينة أفقر من كل المدن التي مرّ بها في رحلته. كل الكوفة لم تكن بخير على خلاف مصر والشام، لمح الشاب نظرته فابتسم، وهو يخرج تمرات من جيبه ملقيًا بها في فمه قائلًا:

- *«أعلم ما تفكر فيه، لكن هذه هي الكوفة، مدينة تبغض بني أمية ويبغضونها. أنا أصلًا من دمشق، وأعلم كيف ينفق الملوك لإعمارها، لكن هذه المدينة قد ضيق عليها منذ ثورة الحسين»*.

- *«منذ مقتل علي بن أبي طالب»*.

قال عيسى مصححًا، فهز أبادير رأسه موافقًا وقال:

- *«أنت عالم»*.

مرا بساحة سوق وقد وقف عند أطرافها جند يتفحصون المارة. تحاشى عيسى النظر إليهم، وكذا فعل أبادير، لكن شرطيًا نفز حصانه منطلقًا نحوهما وهو يصيح بهما أن توقفا..

مد عيسى يده إلى سيفه فسمع أبادير يهمس منذرًا:

- *«لا تفعل!»*.

سحبها من عليه ببطء، واقترب الشرطي على حصانه ينظر إليه ثم سأله بلكنة أعجمية:

- *«أنت مسافر!»*.

هز عيسى برأسه أن نعم، فسأله:

- *«فيم مجيئك؟»*.

كاد أبادير أن يجيب لكن الشرطي منعه بإشارة من يده، وبدأ جند آخرون في الاقتراب،

بينما صمت عيسى وهو يحاول ألا يبدي انفعاله. حاول أن يفكر في حجة مقنعة لكن عقله لم يسعفه، فتكلم الشرطي قائلًا:

- *«تالله لم تأت إلا لزيد بن علي»*.

ابتلع عيسى ماء حلقه، واقترب الجند الآخرون لكن الشرطي أشاح لهما بيده أن انصرفا وهو يتأمل عيسى لحظات قبل أن يهز رأسه، ويضرب ظهر حصانه قائلًا:

- *«أكمل طريقك»*.

سمع عيسى تنهيدة أبادير المرتاحة، هز رأسه للشرطي شاكرًا وغير مصدق، وهمس لنفسه أن الحمد لله.

ولما وصلا دار زيد، كانت كأنها دار إمارة من كثرة الداخلين والخارجين منها. تبدت لعيسى بذرة جيش الإمام؛ جيش عربي بحق، يزينه سمت العلماء؛ هدوء وعمائم وكلام هامس وثياب نظيفة.

ميز في الرجال خارج الدار لهجات خزاعة وكندة التي كان يسمعها في جامع عمرو بن العاص مع مقاتلة جيوش شمال إفريقية، كما ميز القرشية الصافية كأنها ماء الذهب في حديث كثيرين، لكنه لم يتعرف إلى أحد منهم.

- *«الآن، إن أردت أن تدخل فتبايع، فأخبرني باسمك لأستأذن لك»*.

أومأ عيسى وقال:

- *«اسمي عيسى»*.

- *«عيسى بن من؟»*.

- *«عيسى الأسود»*.

ابتسم أبادير بمكر وقال:

- *«أنت ابن أمه؟»*.

- *«نعم»*.

فضرب أبادير بيده على جبهته وقال ضاحكًا:

- *«حسبتك من أشراف قريش!»*.

هكذا دخل أبادير الدار بينما انتظر عيسى خارجها.

طال انتظاره فانتهزه في سماع أحاديث رجال الإمام، ومتابعة حشودهم.

كان الجميع منشغلًا وكأن الأمر قد اقترب، وبينما كان كثيرون يستأذنون في الدخول، كان قلة يدخلون ويخرجون بغير إذن فعلم أنهم خاصته المقربون. لم يرَ سلاحًا مشهرًا ولا خيلًا ولا مؤونة، فعرف أنها لا بد مخبأة بموضع آخر، ثم جاءه أبادير فسحبه من يده وهو يقول:

- *«أسرع، الإمام ينتظرك».*

دخلا الدار، كانت ظلمة الغروب قد حلّت، ولم تضأ القناديل بعد. اشتم رائحة زكية لطيب قوي، ووجد نفسه في دارٍ فسيحة ضيقها كثرة من فيها من رجال، ثم لم يلبث أن دخل غرفة الإمام فرآه متربعًا على الأرض. تجمد عيسى في موضعه من رهبة..

ما أشد بهاءه!

أبيض الوجه، طويل القامة، يظهر مدى طوله حتى في جلسته، له لحية كثة عظيمة، وأنف مستقيم دقيق.

- *«اقترب يا أخي».*

قال الإمام ببساطة وهو يشير إليه، فاقترب بخطوات مسرعة حتى جلس أمامه، وللحظة شعر عيسى أنه جلس أقرب مما يجب، فكاد يتقهقر للخلف لكن الإمام وضع كفه على ركبته وقال:

- *«حسبك، لا ترجع».*

ثم رفع الإمام عينيه إليه يتأمله، واسترق عيسى نظرة إليه فوجد أن الشيب قد وجد سبيله إلى لحيته، ورأى أن عينيه صافيتين كبحر مصر. صمت حتى تكلم الإمام:

- *«تبدو لي أصغر بكثير مما ظننت؟».*

- *«وأنت أيها الإمام.. قد ملأت العالم بخبرك حتى ظننتك أسنّ مما وجدت».*

- *«كم عمرك يا عيسى؟».*

- *«ستة وثلاثون عامًا أيها الإمام».*

- *«أكبرك بأعوام قليلة».*

قال الإمام مبتسمًا، ثم عاد يسأله:

- *«من علّمك أمور الفقه التي راسلتني فيها؟».*

- *«علماء مصر»*.

أجابه عيسى، ثم همس باسم الله، وبسط يده لتكون السفلى، فأومأ الإمام ووضع يده فوقها، ونظر إلى عينيه مباشرة فامتلأت عينا عيسى دمعًا ودق قلبه بعنف وهو يسمع إمامه يقول:

- *«أجبني إلى الحق يا عيسى، وكن عونًا لي في إقامته، وأطعني ما دمت عاملًا بأمر الله، وأمر جدي في أمته»*.

- *«أبايعك على ذلك»*.

هز الإمام رأسه راضيًا، وقال له وهو ينظر إلى تقاسيم وجهه:

- *«كأني أعرفك»*.

- *«تراسلنا أعوامًا»*.

- *«لا أقصد ذلك، إنما وجهك»*.

فتح عيسى فمه ليجيبه عن أصله، لكن رجلًا دخل على الإمام وعلى وجهه قلق بادٍ وقال:

- *«يا إمام، قد خرج الوالي في طلبك! ورجاله انتشروا بأنحاء الكوفة»*.

التفت عيسى إلى الإمام فوجده هادئًا يتابع الرجل الذي أكمل:

- *«يتكلم الناس عن جيش عظيم بعثه هشام بن عبد الملك لقتالنا»*.

ضغط الإمام على يد عيسى قبل أن يفلتها، فشعر الأخير كأن قلبه قد ذاب.

- *«لنا حديث قريب إن شاء الله يا عيسى»*.

- *«نعم أيها الإمام»*.

قالها عيسى وهو يتوقف بسرعة ويخرج من الغرفة، ومن خلفه سمع الإمام وهو يقول لصاحبه:

- *«لا تخف.. إن الله معنا»*.

فجزّ على أسنانه وهو يتلمس سيفه متأهبًا لقتال.

***

خرج الإمام من داره محاطًا بآله وخاصته من الفقهاء، وأشراف مكة والمدينة، وقلة من

أهلِ العراق.

حمل رجاله المشاعل، رفعوها عاليًا، وطافوا بها ينادون بأحياء الكوفة «يا منصور»، وهو شعار جمعهم.

لف عيسى حول نفسه معطفًا ثقيلًا من صوف لكن وجهه آلمه من شدة البرد. تراجع بحصانه حتى حاذى قريبًا من موكب الإمام فكاد أحد أهل بيته يبعده لكن الإمام رفع يده، وهو يقول: «اتركه»، ونظر إلى عيسى ثم هز رأسه مشجعًا.

لكن الأحياء ظلت خالية..

لم تفتح الدور، ولم يخرج الرجال الذين بايعوا من قبل..

لم يُجب الناس على نداء القتال مُلبين «يا منصور أمت»، كما كان العهد..

لم يزد عدد الناس حول الإمام آلافًا، ولا مئات، فقط عشرات انضموا للمسير..

لم يُسمع صوت اصطكاك الحديد حين يرفع السلاح من أجل المعركة، ولم يصبح حشد الإمام جيشًا.

تلفت عيسى حوله بدهشة، بتوتر قبض على لجام حصانه حتى كاد يمزقه، وسمع أحد المقربين من الإمام يقول له:

- *«قد أمر الوالي يوسف بن عمر نائبه بأن يجمع أهل الكوفة بالجامع الكبير، ويمنعهم من الخروج».*

فأجابه الإمام:

- *«ليس هذا بعذر».*

وتنهد قائلًا:

- *«لا حول ولا قوة إلا بالله».*

واسترجع عيسى مأساة الحسين.. ما حكته أمه له أيام صغره عن خذلان أهل العراق لحفيد الرسول فشعر بتوتر داراه بأن أخرج جعبة سهامه وراح يعد ما فيها، ثم أحكم شد وتر قوسه، وعلقه حول كتفه، واعتدل فوق فرسه وبدأ يرتل القرآن.

كانت سورة يونس..

﴿فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حق علينا ننجي المؤمنين﴾..

التفت إليه زيد مصغيًا، حتى وصل إلى الآية:

﴿*وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم*﴾.

فأمر أن يستمر المسير حتى وإن لم يجتمع له الناس.

وانتشرت بالكوفة والقرى حولها أخبار زحف جيوش الأمويين إلى الإمام.

جيش من أهل الكوفة يقوده نائبها الحكم بن الصلت، وسرايا تتقدم من الشام، يخلفها جيش عظيم يقوده الوالي يوسف بن عمر نفسه، جله من العجم من جند الممالك التي حطمها الأمويون من قبل.

رأى البدو وأهل القرى حول الكوفة مسير تلك الجيوش، مثقلة بالسلاح والمؤونة، ترفرف فوقها أعلام بني أمية.

وخرج حشد الإمام إلى أطراف الكوفة، كان من تجمع حوله مائتي رجل فقط..

وغير بعيد عنهم كانت أولى سرايا الشام تقترب من المدينة..

حشدٌ غفير من الفرسان والمشاة، نظر إليه الإمام على بعد، ثم همس بالدعاء مستعينًا بالله، وأخرج سيفه من غمده للمرة الأولى..

وانسلت سيوف جنده من بعده.

صاح فيهم:

- «*لا تبدأوا بقتال. حاذوهم ما استطعتم، وإياكم أن تكونوا من يبدأهم القتل، فإن خلوا بيننا وبين سبيلنا فقد أمنوا، وإن قاتلونا فقاتلوهم*».

هكذا تابع الإمام وجيشه مسيره مُتخذًا طريقًا بعيدة عن عدوه، لكن جيش الشام اقترب منهم، وبدأت سهامه تصل إليهم، صد بعضها رجال زيد بدروعهم، وأصابت آخرين.

والتفت الجمع إلى الإمام ينتظر أمره.. سيفه مرفوع، يحدق في الجيش المقترب، عددهم مهول بالنسبة إلى من معه، محصنين بالدروع والسيوف والرماح الطوال والنبال، تنقر طبولهم مهددة وهم يقتربون ببطء، مزاميرهم كأنها صرخات الجن، تهدد بالموت الحتمي لكل من يتصدى لهم.

كلمهم الإمام:

- *«تراجعوا عنا فإنا لا نريد قتالكم»*.

تجاهلوه وتابعوا، كررها، فلم يجبه أحد، وبدأ بعض من حوله يتساقط وقد أصابته السهام. اضطرب حصانه تحته فربت على رأسه مهدئًا..

وأشار بسيفه نحو عدوه، ثم صاح: «يا الله»..

وانطلق وحده نحوهم.

ومرت لحظة خاطفة، أتبعها صياح رجاله خلفه وانطلاقهم يحاولون اللحاق به وسيوفهم مشهرة في وجه العدو.

همس عيسى لنفسه:

«يا لثأر الحسين»، فشعر بجسده كله يرتجف فرقًا، وضرب على بطن حصانه بقدميه فانطلق يسابق الريح باتجاه الجيش الشامي..

أمطرت السماء..

ابتلت الأرض تحت حوافر الخيل، وتغول البرد كأنه يأكل أجساد المقاتلين..

ولما اقترب عيسى من صف الجند الأقرب رأى زيدًا وهو يضرب ضربته الأولى على خوذة جندي فيسقطه عن حصانه، ثم انحنى عيسى بسرعة متفاديًا رمحًا مسلطًا عليه، ورفع سيفه ثم أنزله بمنتصف رأس مهاجمه فانكسرت جمجمته حتى رأى بياض عظمها، فشد سيفه بقوة مخرجًا إياه من تلافيف المخ، ومال بظهره يسارًا وهو يضرب وجه رجل حاول أن يطعن حصانه.

اخترق عيسى حشود العدو متيمنًا، محاولًا الاقتراب من زيد لكن زحام المقاتلين منعه، فشد لجام حصانه بقوة حتى رفع قائمتيه الأماميتين ثم هوى بهما ساحقًا رجالًا أسفله، وواجهه فارس دمشقي حاملًا رمحه بيمناه، يشق طريقه إلى صدر عيسى، وشعلة معلقة خلفه على ظهر حصانه، فمال عيسى بجسده ورفع ذراعه ليمر الرمح من جانب صدره ثم أنزله بسرعة قابضًا على الرمح بين ذراعه وجسده، وشده من صاحبه فاختل توازن الفارس وسقط من على فرسه.

لف عيسى الرمح وغرزه في صدر الرجل، وتناول شعلة النار، لكنه رأى سيفًا يهوي باتجاه رأسه لا يبعد عنه إلا مقدار ذراع فلم يجد الوقت ليبتعد عنه، لكن -وبمعجزة سيظل

يستعيدها فيما بعد- سقط السيف، وتهاوى الرجل الممسك به ميتًا. بحث عيسى عمن فعلها فلمْ يبصر أحدًا من رجال الإمام، وللحظة تذكر ما قيل عن قتال الملائكة مع المسلمين في معاركهم..

زفر بتوتر، دفع شعلة النار في وجه فارس من العدو فذابت عيناه من لهيبها، وارتطم ثالث بحصانه، فالتفت إليه عيسى وكاد يطعنه لكنه لما أبصر وجده أحد رجال زيد وقد تخللت جسده الجروح، فرفع رأسه يبحث عن الإمام وأصحابه لكنه لم يبصر منهم أحدًا ولم يجد حوله إلا حشود الأمويين.

وجزع عيسى..

ملأه خوف مظلم من كل ما يراه..

وللحظة تذكر أمه..

اشتم رائحتها الحبيبة بذلك الموضع..

صوت همسها حين كانت تحكي..

بكاؤها فرحًا لما أرسل له عمر بن عبد العزيز المعلمين والفقهاء..

رفع سيفه مرة ثانية، وحشر نفسه وسط الجند، إلى قلب الحشد الغاشم.

أبصر فأسًا معلقة بجوار فارس متحصن بدرعه، سحبها منه ثم لوح بها في دائرة باطشة ضاربًا كل من اعترض طريقه.

أحس ببلل على يده اليسرى الممسكة بعقال حصانه، فنظر إليها فوجد سهمًا، مغروسًا برقبة حصانه والدم يسيل من الجرح الذي أحدثه. ربت على رأسه وهو ينطلق باتجاه أقرب الفرسان إليه، وصله من الخلف، لم يبصره الفارس، فمد عيسى ذراعيه، وشد الفارس إليه حتى أسقطه عن حصانه ثم قفز إليه تاركًا فرسه الجريح.

كانت الصرخات تعلو، طمأنه هذا إلى أن القتال لا يزال نابضًا بحياة وأنه ليس وحده، ثم سمع صيحة الإمام نفسه «يا منصور أمت!»، شعار المسلمين بغزوة بدر مع نبيهم، فانطلق باتجاه الصوت مخترقًا الحشود التي بدأت تتحلحل تاركة فجوات واسعة، وبدهشة أبصر الإمام وجماعته وقد احتلوا قلب جيش الأمويين في بقعة محاصرة برجال العدو..

كانوا مركزًا منيعًا يقتل ما حوله لكن الخناق يضيق عليهم بكثرة عدد العدو المحاصر لهم. تلفت عيسى حوله فوجد رجالًا زيدية تقاتل غير بعيد منه فصرخ «تراصوا آل زيد، تراصوا آل

زيد»، ظل يكررها حتى اقترب منه أحد رجالهم، تبعه آخر، ثم آخرون انتظموا في دائرة أخرى أكبر من التي صُنعت حول الإمام، فانحصر الأمويون بين عيسى ومن معه وبين الإمام ورجاله، فلما استحكمت الدائرة الكبرى صاح عيسى:

- *«اقتلوا داخلين»*.

وضرب بفأسه رأس أقرب الرجال إليه فانفجرت نافورة دم غطت كل وجهه وهو يندفع داخلًا إلى الإمام.

ذُبح الحشد بين الدائرتين ذبحًا عظيمًا، ولول الرجال والدم يغطي كل شيء، وانغلقت الدائرة ببطء يقيني، فلما اقتربت كفاية رأى الزيديون من خاصة الإمام ورجال عيسى بعضهم، فصاحوا مكبرين، وانتابتهم جرأة غير محدودة، فطفقوا يضربون العدو حتى التحموا مجتمعين.

هنا تلفت عيسى حوله فلم يبصر أي راية لبني أمية..

ووجد جيش الشام وقد اختفى..

لم يبق منهم إلا عصف مأكول ملقًى على الأرض..

وقلة باقية تهرب إلى التلال البعيدة..

وصيحات جيش زيد تعلو في السماء. وانهمر المطر عليه غاسلًا عن وجهه دماء المقتولين، فالتفت يبحث عن الإمام حتى وجده على فرسه..

سليمًا، معافًى، ينظر باتجاه طريق دمشق بعينين هادئتين.

***

لم ينتظر الإمام بعد انتصاره الأول فانطلق بجمعه مهاجمًا جيوش بني أمية من أهل القبائل والعجم وكانوا أفواجًا موالية لبني أمية نفروا طاعةً لهشام بن عبد الملك، فسحقهم رغم عتادهم وخيلهم، وفرّ كثيرون منهم إلى البصرة بالشمال.

ثم هاجم مقاتلة الكوفة الذين جمعهم الحكم بن الصلت فاستسلموا سريعًا طالبين أن يدخلوا في جنده، فأصبح للإمام جيش حقيقي، تتابع أهل الكوفة على الانضمام إليه بعد أن أرسل رجاله في المدينة منادين على أهلها «يا أهل الكوفة، اخرجوا إلى الدين والعز والدنيا، فإنكم لستم في دين ولا عز ولا دنيا».

وخاف يوسف بن عمر من ذلك فأرسل سرية كبيرة محاولًا كسر شوكة الإمام، لكن

معركتهم معها لم تستمر إلا ساعة، ذُبح فيها من جيش الوالي سبعون رجلًا، وانفلت الآخرون فارين قبل أن يُبطش بهم.

هنا ذُعر الخليفة هشام بن عبد الملك، وأرسل مددًا عظيمًا من خير جنده، وراسل يوسف محذرًا من التخاذل، ففهم الأخير أنه إما أن ينتصر على الإمام، وإما أن يقتل على يد الخليفة ويؤخذ ماله وأهله، فجمع كل جنده من أهل البصرة والشام والعراق، ولم ينظمهم في سرايا، بل جعلهم جيشًا واحدًا، كتلة بشرية عملاقة كجبل رخامي لا يمكن اختراقه، وأخرج فيهم نساءهم ومواليهم وأموالهم، فإما النصر وإما الذلة الأبدية، ووعدهم وأوعد لهم، ثم خرج بذلك الجيش يقوده بنفسه.

وقبل فجر أحد أيام شهر صفر، استيقظ عيسى والأرض ترتج تحت خده، ففتح عينيه منسحبًا من حلم غريب رأى فيه نفسه يخلع السواد ويرتدي عباءة بيضاء. ووجد الحصى يهتز على الأرض أمامه، فقام مسرعًا وهو ينظر إلى البعيد ليرى حشدًا مهولًا يقترب من مسافة، ورأى الحركة تدب في جيش الإمام والناس تتصايح أن استعدوا.

عدا عيسى إلى ربوة عالية، فارتقاها بسرعة واستقام فوقها والريح تكاد توقعه يبصر القادمين فرأى الهول أمامه!

آلاف المشاعل مرفوعة، كتائب فرسان لا نهائية، ومشاة بالآلاف تلمع سيوفهم ونصال رماحهم ودروعهم في الظلمة بنيران المشاعل، وقوافل جمال تحمل مؤونة الجيش خلفهم، ومن ورائها النساء والموالي والعيال!

فاجأه أبادير وهو يصعد واقفًا إلى جواره، التفت إليه فوجده وقد انفتحت عيناه ذعرًا وانعقد لسانه وتعرقت جبهته رغم الصقيع، فربت على كتفه وهو يقول له:

- *«تجهز»*.

- *«لا أريد أن أموت»*.

هز عيسى رأسه، وشد على يد صاحبه، وهو يقول له:

- *«لا تنشغل الآن إلا بالقتال»*.

ونزل الربوة ثم ركض إلى فسطاط زيد فوجد الرجال وهم يتدرعون ويستعدون للقاء، أما في خيمة الإمام فكان جمع من رجاله يتدارسون خطة القتال بينما انشغل زيد نفسه بارتداء درعه وهو يتلو القرآن بصوت خفيض، اقترب منه عيسى حتى وقف أمامه، فنظر له الإمام..

أمسك عيسى برأس الإمام بين كفيه، وقبل جبينه.

إبتسم له الإمام، وربت على ذراعيه.

أراد عيسى أن يتكلم.. لكنه شعر بأن كل ما في قلبه قد وصل الإمام من دون أن ينطقه.

خرج من الخيمة، ارتقى حصانًا فحلًا أسود مما غنموه من الشام، ربت على رقبته وهو يهمس له بصوته كي يتعرف عليه فيما هو قادم، هز الحصان رأسه وحمحم فاطمأن عيسى وهو يرفع درعه، ويحكم حزامه حول وسطه حتى يعتدل سيفه، ويلف قوسه حول كتفه الأيسر، ثم يثبت فأسه إلى جواره.

اتجه بحصانه إلى الصف الأول من المقاتلة الذين تراصوا متقاربين، يصيح فيهم:

- *«تفكروا عباد الله، واعتبروا، وانظروا، وتدبروا، وازدجروا بما وعظ الله به هذه الأمة من سوء إن هم شهدوا الظلم بين ظهرانيهم ولم يخرجوا، وشهدوا الأمر بالمنكر فلم يوقفوه، والفساد مستشريًا فلم ينهوا عنه، ورأوا حق الله مُضيعًا، وماله يؤكل بين الأغنياء منهم ظلمًا فلم يمنعوا ذلك، رغبة في العرض الآفل، والمنزل الزائل، ومداهنة للظلمة، والملوك، والجبارين».*

انتظم عيسى بحصانه بينهم وهو يهمس لنفسه صابرًا: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص﴾، وسرعان ما جاء يحيى بن زيد بن علي، وكان شابًا حدثًا شديد الشبه بأبيه، وقيل أن فيه شبهًا من حسينٍ جده، فوقف إلى جوار عيسى الذي التفت إليه يتأمله على ضوء المشاعل فبدا وجهه مقدسًا كأنه شمس تحيط بها سحائب شتوية تلتمع بنورها.

نظر يحيى لمن حوله، كان الجميع قد استعد، والشهادة قد تُليت على الألسنة، والسلاح قد تحضر، فرفع يحيى سيفه وهو يصرخ «بسم الله الناصر»، ثم انطلق به حصانه إلى جيش العدو.

سابق عيسى الآخرين من خلفه فوجد حصانه سريعًا لا يهاب، خفض جذعه مقتربًا من رقبته لتزداد سرعته، ودق قلبه بعنف ومشهد العدو يتضخم كلما اقترب حتى أنه سمع صوت أنفاسه الخائفة..

كان حشدًا غير معقول..

أعمت الظلمة عينيه عن كثير لما نظر من فوق الربوة لكنه الآن يرى ما لا يمكن اختراقه، كأن كل أهل الأرض اجتمعوا على قتال الإمام.

رفع نفسه، أمسك قوسه، ثبت سهمه الأول وشد الوتر ثم أفلته فاخترق رأس أقرب الجند

إليه.

سقط الجندي بين زملائه الذين تراجعوا خطوات أتاحت لعيسى أن يخترق صفهم ضاربًا بفأسه الرؤوس والأكتاف، لكنه وجد نفسه يتقدم في كثرة عظيمة، فاشتد ضربه وهو يحاذر أن يصاب أو يسقط، وحُشرت فأسه في رأس رجل سمين فلما شدها ساحبًا لم تستجب، فشدها ثانية لكنه وجد نفسه يسقط بحصانه الذي ضرب أحد الجند ساقه، فأفلت عيسى الفأس، وقفز من فوق الحصان مستقيمًا بلا سلاح إلا درعه الذي رفعه عاليًا ليتلقى عليه ضربة عاتية ارتج منها جسده، ثم دفعه في وجه مهاجمه مؤخرًا إياه، ورأى قدميه أسفل الدرع فوضع قدميه في طريقهما ليتعثر الرجل ويسقط تحت عيسى الذي نزل بدرعه فوق رقبته بأقصى ما استطاع، ثم اختطف منه سيفه لكنه لم يجد مساحة كافية ليرفع السيف، أو يحرك الدرع، أو يتقدم، أو يتأخر خطوة. بصعوبة وضع السيف في غمده، وهو يتذكر خنجره، استله وطفق يطعن به المقاتلين، قتل كثيرين، أفجعه صوت اختراق اللحم وأنات الرجال حتى بكي وهو يفعل، كان القتل غير محتمل، والنزاع مجنونًا بين فريقين غير متكافئين كقتال البحر لبعض أسماكه.

وانطلقت فرق جيش زيد تتابع ضاربة الحشد عند أطرافه، قاد واحدة من تلك السرايا الإمام نفسه. وأمر الوالي يوسف فأوقدت النار خلف جيشه كي لا يفر أحد، فتدافع الرجال للأمام دافعين زيدًا ورجاله للتراجع، وأذن رجل لصلاة الفجر وسط القتال فقُتل وهو يصيح «حي على الصلاة»، فسمع الناس تحشرج صوته وهو يخر ميتًا، واستعر القتل واستمر، وطاف في الحشد حاصدًا الأرواح بلا تفرقة حتى طلعت الشمس وانتصفت في السماء وقد تقهقر جيش الإمام حتى السبخة، ثم تقهقر أكثر إلى بني سليم، ثم المسناة، وهناك تلاحم الجيشان في قتال مسعور قاده الإمام زيد، الذي اخترق جيش يوسف صانعًا للمرة الأولى فجوة ضيقة فيه تقود إلى قلبه، فتراءى النصر غير بعيد، ومر عصر اليوم الدموي، ودخل مغربه، وعشاؤه والقتل لا يزال مستعرًا، وقارب عيسى الإمام مع المقربين، مدافعًا وحاميًا، والإمام يقاتل بسيفه صابرًا، وقد تعرق وجهه، ولوثت لحيته دماؤه، ودماء أعدائه.

صد عيسى عنه سيوف الرجال ورماحهم، وأفسح أمامه وهو يتقدم في صفوف جيش عدوه العملاق، لكن وفي لحظة خاطفة لمح عيسى سهمًا يخترق الهواء أمام عينيه حتى أنه شعر بريحه، وقبل أن يلتفت سمع أنة الإمام كأنها الهمس، فالتفت مذعورًا وفاه مفتوح ليرى زيدًا وقد اخترق السهم جانب رأسه واستقر فيه!

سقط الامام فوق حصانه الذي لم يتركه يسقط عنه، وصرخ رجل: «أدركوا إمامكم»، وبدون انتظار انطلق عيسى إليه فوجده يتنفس وعيناه مفتوحتان ملؤهما ألم صابر. فقفز

على حصان الإمام، وأمسك به مثبتًا إياه عليه ألا يقع، وضرب الحصان ليدور إلى الخلف هربًا من المعركة. شعر بصدر الإمام يتحرك فوق يده، سمع همسه بدعاء لم يستطع أن يميزه.

رآه رجال بني أمية وهو يخرج فأتبعوه بسهامهم، وحاصروه في دائرة محكمة، لكن أنصار الإمام وآل بيته تجمعوا وأبادوا كل من حاول الوصول إليه حتى انفتح طريق أمام عيسى فانطلق خارجًا وحوله خاصة الإمام يحمونه.

ومن خلفهم سمعوا صياحًا أن اتركوا الجثة إن أردتم النجاة، والتفت عيسى فرأى أربعة فرسان يسابقون نحوهم، أقواسهم مرفوعة وسهامهم مشهرة، وسقط أحد رجال زيد من فرسه مرتطمًا بالأرض بغبرة كثيفة وقد استقر سهم في ظهره، وضرب سهم آخر رأس رجل كان يسبق عيسى مؤمنًا الطريق فوقع أمامه ولم يستطع عيسى أن يتحاشاه فداسته أقدام حصانه محطمة جثته.

صرخ عيسى بيحيى أن اقترب، فضرب الشاب على ظهر حصانه حتى وازاه، وقال له عيسى:

- *«سأنزل عن هذا الحصان لأعطلهم، وتابع أنت مع الإمام»*.

هز الفتى رأسه، ورفع نفسه عن حصانه، بينما شد عيسى وثاق فرسه، ونظر للإمام مرة أخيرة فرأى عينيه تنظران إليه بإشفاق كأنه يخاف عليه، فبكى، ثم قفز من على الفرس، ورأى يحيى وهو يقفز ممتطيًا الحصان، مثبتًا الإمام ثم يزيد في سرعته هاربًا.

والتفت عيسى إلى الأربعة فرسان، رفع سيفه، وهو يحاول أن ينظم أنفاسه ويغلب خوفه وهو يراهم يقتربون، فلما وصلوا إليه انحنى على نفسه متفاديًا رمحًا قاتلًا، وضرب ساق أقرب الخيل إليه فانقلب فوق فارسه الذي صرخ وهو ينسحق تحت ثقل جسده، وشد عيسى قوس الفارس وسهمه، فضرب به ظهر فارس آخر مُسقطًا إياه.

هنا تخلى الفارسان الآخران عن سعيهما خلف الإمام والتفتا إلى عيسى، انطلقا نحوه، فضرب سهمًا آخر لم يصب أحدًا، وثالثًا أبعدته الريح عن هدفه، ورفع الفارس رمحه مشيرًا إلى صدر عيسى الذي سيخترقه في لحظات، وتراجع الأخير خطوة محاولًا أن يبتعد لكنه تعثر في حجر أسفله وسقط على ظهره وهو ينظر إلى الرمح برعب ونصله يلمع أمام عينيه، لكن سهمًا انغرز بين عيني الفارس الذي هلك من فوره حتى قبل أن يصرخ، فسقط رمحه عند قدمي عيسى، وتلفت الفارس الأخير حوله مرتعبًا فلم يبصر إلا سهمًا استقر في بطنه، أتبعه آخر حشرج صوت صرخته في حلقه لما اخترقه.

وقف عيسى وهو ينهج غير مصدق ما حدث للتو، تلفت يبحث عن منقذه فرأى فارسًا

محتميًا بخوذة نحاسية يقترب منه على حصان أبيض. مسح العرق عن جبهته، وبصق دمًا من فمه من سن مكسورة، ثم رفع عينيه إلى الفارس الذي وقف عنده.

- «*يشهد الله أني أدين لك بما بقي من أجلي*».

- «*ألم تسبقني حين أنقذتني من قبل؟*».

قال الفارس وهو يخلع خوذته فانفتحت عينا عيسى دهشة وهو يرى إليانا تحتها، وشعرها الأشقر قد ربط بإحكام في ضفيرة طويلة..

وجهها أجمل من أي شيء رآه من قبل!

بصوت مرتعش سألها غير قادر أن يبعد نظره عنها:

- «*أنت في جيش الإمام؟*».

هزت رأسها أن لا، ثم أجابت:

- «*لا أهل لي في دومة الجندل*».

- «*تبعتني؟*».

همس غير مصدق، فأومأت بنعم.

نظر إليها طويلًا، تفحصها دون وجل، وللمرة الأولى شعر بقلبه ينبض في رقصة لم يشعر بها من قبل..

مشى إلى أقرب الخيل إليه، امتطاها وهو يقول لإليانا:

- «*هيا إلى الإمام قبل أن يدركنا العدو*».

***

لم يلبث الإمام طويلًا، ذلك أن الطبيب وهو يحاول أن يعالج إصابته لما سحب السهم من رأسه قطع تلافيف مخه فمات من فوره.

حوله كان رجاله؛ من بقي منهم، وقد احتموا بجبل قريب من مجرى النهر.

- «*لو وجدوا جثته لمثلوا بها كما فعلوا بالحسين قبلًا*».

قال فقيه كان مقربًا للإمام، فالتفت إليه يحيى مجيبًا:

- «*يجب أن ندفنه*».

- *«نقطع الرأس ونحمله معنا، ونترك الجثة فلا يتعرف إليها أحد».*

اقترح واحد، فالتفت إليه يحيى غاضبًا:

- *«لن أترك جثة أبي تنهشها الكلاب».*

- *«سيمثل به بنو أمية يا بني».*

كرر الفقيه، فزفر يحيى أنفاسًا متلاحقة وهو ينظر إلى جثة أبيه، رآه عيسى وهو ينتف شعرًا من لحيته من فرط قلقه، فخفض رأسه وهو يختلس نظرات إلى وجه الإمام.. كان فمه مفتوحًا قليلًا، أسنانه البيضاء ظاهرة، شعره ثائرًا بنبل غامض، وعيناه تنظران إلى مجهول بعيد. سمع رجلًا من خراسان يقول:

- *«ادفنوه تحت الماء».*

التفت إليه الرجال، فتابع الرجل وعيناه على جسد الإمام المسجى:

- *«النهر جوارنا، فلو أنًا أقمنا حائطًا بدروعنا حتى ينحسر الماء قليلًا عن موضع يكفي جثمان الإمام، ثم حفرنا ودفناه، وتركنا الماء يسيل ثانية فلن يصل إليه أحد».*

نظر الرجال إلى بعضهم، ولم يلبثوا إلا قليلًا حتى وافقوا جميعًا، فخرجوا من فسطاط الإمام إلا يحيى الذي بقي جوار أبيه متسلحًا بسيفه حماية من أي هجوم غادر.

ورأى عيسى إليانا بين النساء، نظر إليها لحظات ثم انطلق مع الرجال إلى النهر.

نزلوه، اختاروا بقعة غير عميقة، ثم رصوا دروعهم، وجلس بعضهم مانعين الماء بأجسادهم، وجُلبت المعاول فحفر القبر بسرعة في التربة الطينية، تعمقوا فيه أشد ما استطاعوا كي يستقر الجثمان في القاع حتى يوم القيامة، ثم حمل الإمام من خيمته فعلا البكاء والصراخ واللطم، وسجي الجسد ملفوفًا في عباءة بيضاء في الحفرة، ثم أهيل عليه الطين، ورفعت الدروع فسرى الماء فوق القبر حتى أخفاه.

وجلس عيسى عند النهر يرقب موضع الدفن، حاول أن يستبقيه بذاكرته للأبد، جلس إلى جواره آخرون منهم أبادير الذي قال له:

- *«لا أعرف لمَ خرج».*

التفت إليه عيسى مستفهمًا، فتابع ساهمًا:

- *«كان خيرًا له أن يظل العالِم الذي كان، كما كان أخوه محمد الباقر من قبل، لكنه آثر هذه النهاية».*

- «*ألا تصمت؟*».

قال عيسى مغضبًا، فالتفت إليه أبادير للمرة الأولى وقال:

- «*كنت لأصمت لو كان مات وحده، لكنه لعننا كلنا بمقتله، فكلنا اليوم ننتظر هلاكنا على يد أمراء بني أمية*».

ثم توقف من دون كلمة أخرى، وغادر متصرفًا.

وجاء العلماء فأمروا الجالسين أن يغادروا مجالسهم جوار القبر كي لا يُعرف الموضع الذي دفن فيه بعد اليوم، فقام عيسى، ومشى حتى وصل قريبًا من خيام النساء، بحث بعينيه حتى رأى إليانا تقف وحدها كأنها تنتظره. أشار إليها أن تعالي، كانت عيناها محمرتين من أثر بكاء، وإن لم تكن تعرف الإمام من قبل، نظر إليها عيسى وسألها:

- «*أنت رومية؟*».

- «*أمي رومية، أما أبي فكان من الترك*».

هز رأسه متفهمًا، ثم بصوت متردد عاد يسألها:

- «*أكان لك زوج من قبل؟*».

هزت رأسها بلا وهي تتفحصه بعينين بريئتين، فقال بصوت كالهمس:

- «*أعيش في مصر، هل تعرفينها؟*».

- «*كان أبي يحدثني عنها*».

- «*أتتخذينني زوجًا يا إليانا فتكون دارنا هناك؟*».

بكت، رفع عينيه إلى عينيها، ودق قلبه بقوة وهو يراها تهز رأسها أن نعم.

***

لم تستقر جثة الإمام بقاع النهر.

جثة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين سبط النبي ابن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي القرشي.

أخبر أبادير الوالي يوسف بن عمر بموضعها، فجاءه واستخرجها.

قُطع الرأس، وأرسل به إلى هشام بن عبد الملك.

ثم عُري الجسد، وصُلب سنين، تذكيرًا بعاقبة الخروج على بني أمية.

وأرسل الخليفة أن اقتلوا يحيى بن زيد، فاتبعه القتلة حتى وجدوه محتميًا بخراسان، فقتلوه هناك، لكن اسمه، يحيى، كان أكثر أسماء المواليد شيوعًا بعدها لأعوام في أمة النبي.

لكن عيسى لم يعرف كل ذلك وهو يقطع الطريق مع زوجه إليانا عائدًا إلى مصر.

ولما دخل الفسطاط، انطلق رأسًا إلى بيت أمه فوجد تابيري جالسة عند قبرها بالحديقة، تهز جسدها للأمام والخلف كطلبة جامع عمرو بن العاص.

ابتسم لما رآها، نزل من على فرسه، وأعان زوجه أن تنزل، ثم مشيا نحو المرأة التي رفعت رأسها إليهما، ثم ضيقت عينيها محاولة إبصارهما، فجلس جوارها وأمسك كفها، وقرب رأسها منه مقبلًا وهو يهمس:

- *«هو أنا يا تابيري»*.

أغلقت عينيها باكية وهي تحتضنه، اهتز جسدها بين ذراعيه، فربت على كتفها مترفقًا، وهمس:

- *«معي زوجي»*.

رفعت رأسها إلى إليانا، ضحكت من بين دموعها، ثم نظرت إلى قبر حميدة وقالت بصدق:

- *«انظري يا حميدة جمال زوجة ابنك»*.

بتلك الليلة، أخرج عيسى صندوق أمه الذي احتوى نفائس رحلة الأجداد العرب.

أخرج بردية أبيه التي خط فيها المشجرة..

قرأها لزوجته وهو يشير إلى الأسماء ويحكي قصصها.

ولما سألته عن الخط المرسوم عند اسمه هو، نظر إليه متأملًا ثم قال:

- *«هذا الموضع الذي ستكتب فيه أسماء أبنائنا»*.

- *«ولم الخط عند اسمك فقط؟»*.

ابتسم وهو يقول ببطء:

- *«لأني عند اسمي، سأبدأ مشجرة أخرى في بردية جديدة.. أما ترين هذه وقد امتلأت بما فيها من أسماء؟ ما نصنع إن أحيانا الله حتى نرى أولاد أبنائنا؟»*.

ثم عُري الجسد، وصُلب سنين، تذكيرًا بعاقبة الخروج على بني أمية.

وأرسل الخليفة أن اقتلوا يحيى بن زيد، فاتبعه القتلة حتى وجدوه محتميًا بخراسان، فقتلوه هناك، لكن اسمه، يحيى، كان أكثر أسماء المواليد شيوعًا بعدها لأعوام في أمة النبي.

لكن عيسى لم يعرف كل ذلك وهو يقطع الطريق مع زوجه إليانا عائدًا إلى مصر.

ولما دخل الفسطاط، انطلق رأسًا إلى بيت أمه فوجد تابيري جالسة عند قبرها بالحديقة، تهز جسدها للأمام والخلف كطلبة جامع عمرو بن العاص.

ابتسم لما رآها، نزل من على فرسه، وأعان زوجه أن تنزل، ثم مشيا نحو المرأة التي رفعت رأسها إليهما، ثم ضيقت عينيها محاولة إبصارهما، فجلس جوارها وأمسك كفها، وقرب رأسها منه مقبلًا وهو يهمس:

- «*هو أنا يا تابيري*».

أغلقت عينيها باكية وهي تحتضنه، اهتز جسدها بين ذراعيه، فربت على كتفها مترفقًا، وهمس:

- «*معي زوجي*».

رفعت رأسها إلى إليانا، ضحكت من بين دموعها، ثم نظرت إلى قبر حميدة وقالت بصدق:

- «*انظري يا حميدة جمال زوجة ابنك*».

بتلك الليلة، أخرج عيسى صندوق أمه الذي احتوى نفائس رحلة الأجداد العرب.

أخرج بردية أبيه التي خط فيها المشجرة..

قرأها لزوجته وهو يشير إلى الأسماء ويحكي قصصها.

ولما سألته عن الخط المرسوم عند اسمه هو، نظر إليه متأملًا ثم قال:

- «*هذا الموضع الذي سنكتب فيه أسماء أبنائنا*».

- «*ولم الخط عند اسمك فقط؟*».

ابتسم وهو يقول ببطء:

- «*لأني عند اسمي، سأبدأ مشجرة أخرى في بردية جديدة.. أما ترين هذه وقد امتلأت بما فيها من أسماء؟ ما نصنع إن أحيانا الله حتى نرى أولاد أبنائنا؟*».

وبينما يتحدث الزوجان، كانت تابيري بغرفتها تدعو ربها أن يبقيها لترى أبناء عيسى وإليانا كما فعلت مع ابن حميدة.

ونامت، فرأت حميدة وهي تقترب منها مبتسمة بعتاب رقيق وهي تقول لها:

- *«إلى متى يا تابيري؟»*.

أجابتها:

- *«أريد أن أعرف كيف سيكون أبناء وبنات رجل وامرأة بهذا الجمال»*.

فاتسعت ابتسامة حميدة، وهي تمد يدها إلى تابيري وتقول:

- *«ألا تريدين أن تري ما أعد لك هنا؟»*.

أجابتها بتردد:

- *«أنظر إليه فقط ثم أعود»*.

- *«فإن أحببت البقاء معي؟»*.

- *«لن أحب أكثر من أن أعود»*.

- *«تعالي يا تابيري»*.

مدت تابيري يدها إليها فلما مستها انفجرت روح الصبا داخلها بألف شعور كانت قد نسيته، وبنشوة كونية مطمئنة، وعرفت معرفة اليقين أن نسل عيسى باقٍ في ذريته وكأنه الوحي، وأنار العالم حولها، وأصبح الغناء لغته، ومن فرط سعادتها طارت في السماء فوجدت أن السحاب أولها فقط وأنها لو طارت ألف عام للأعلى لم تشبع مما تراه!

وبدهشة وجدت نفسها تهمس:

- *«لا أريد أن أعود»*.

تمت